مملكة العميان

إدوارد فيليبس أوبنهايم

ترجمة محمد يحيى

مملكة العميان

تأليف
إدوارد فيليبس أوبنهايم

ترجمة
محمد يحيى

مراجعة
هبة عبد العزيز غانم

هنـــداوي

مملكة العميان

إدوارد فيليبس أوبنهايم

The Kingdom of the Blind

E. Phillips Oppenheim

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٦ ٢٤٤٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٦.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

الفصل الأول	٧
الفصل الثاني	١٥
الفصل الثالث	١٩
الفصل الرابع	٢٥
الفصل الخامس	٢٩
الفصل السادس	٣٥
الفصل السابع	٤٣
الفصل الثامن	٥١
الفصل التاسع	٥٧
الفصل العاشر	٦٣
الفصل الحادي عشر	٦٩
الفصل الثاني عشر	٨١
الفصل الثالث عشر	٨٧
الفصل الرابع عشر	٩٣
الفصل الخامس عشر	٩٩
الفصل السادس عشر	١٠٥
الفصل السابع عشر	١١٣
الفصل الثامن عشر	١١٩
الفصل التاسع عشر	١٢٥
الفصل العشرون	١٢٩

الفصل الحادي والعشرون	١٣٧
الفصل الثاني والعشرون	١٤٣
الفصل الثالث والعشرون	١٤٧
الفصل الرابع والعشرون	١٥٣
الفصل الخامس والعشرون	١٥٩
الفصل السادس والعشرون	١٦٥
الفصل السابع والعشرون	١٧١
الفصل الثامن والعشرون	١٧٧
الفصل التاسع والعشرون	١٨١
الفصل الثلاثون	١٨٩
الفصل الحادي والثلاثون	١٩٧
الفصل الثاني والثلاثون	٢٠٣
الفصل الثالث والثلاثون	٢٠٩
الفصل الرابع والثلاثون	٢١٧
الفصل الخامس والثلاثون	٢٢٣
الفصل السادس والثلاثون	٢٣١

الفصل الأول

وقفت الليدي أنسيلمان في وسط البَهْو داخل فندق ريتز، وراحت تَعدُّ ضيوفها مشيرةً بسبابتها برقَّة. كانت هناك الممثلة الفَرنسية الكبيرة التي كانت تتمتَّع بكل مقومات السحر والجمال، ما عدا الشباب، وهي تتحدث بحيويةٍ مع رجلٍ طويل، شاحبِ الوجه لبقٍ يُتقن التحدثَ بالفرنسية. وهناك الزوجة الشهيرة لممثلٍ كبيرٍ تُناقش مسرحية زوجها الأخيرةَ مع وزيرٍ في مجلس الوزراء بدا كأنه تلميذٌ في المدرسة يحضر حفلًا ماجنًا. وهناك فتاة جميلة للغاية، طويلة وشقراء، ذات عيون زرقاء تميل إلى الرمادية مع شعرٍ ذهبي رائع، يميل إلى الأصفر، وهي تتحدَّث إلى موسيقيٍّ مشهور. وبعيدًا قليلًا في الخلفية، هناك شابٌّ يرتدي زيًّ ملازمٍ بحري يتبادل ما بدا أنه مِزاح مثيرٌ للإعجاب مع فتاة ضئيلة الجسم، ولكنها شديدة الحُسن. وقد عدَّتهم الليدي أنسيلمان مرَّتين، ثم نظرت إلى الساعة وعبَسَت.

وصاحت في يأسٍ بعضَ الشيء وهي تُخاطب الضيف الواقف إلى جوارها، وهو ناشر ذو مظهر مرهق إلى حدٍّ ما: «لا أستطيع أن أتذكر من الذي ننتظره! فهناك ضيف لم يأتِ بعد. بالقطع سأتذكره في غضون دقيقة. أنت تعرف كل واحدٍ من الحاضرين، على ما أظن، أليس كذلك يا سيد دانييل؟»

هز الناشر رأسه.

وقال: «لقد قابلت اللورد رومسي وأيضًا مدام سيلارني. أما بالنسبة للباقين، فأنا لا أعرفهم.»

قالت له الليدي أنسيلمان خافضة درجة صوتها: «الرجل الذي يتحدث الفرنسية جيدًا، هو الجرَّاح الميجور طومسون. إنه مفتش المستشفيات على الجبهة، أو شيء من هذا القبيل. والفتاة الطويلة، الشقراء — يا لها من فتاة جميلة! — هي جيرالدين كونيرز،

ابنة الأدميرال السير سيمور كونيرز. وهذا هو شقيقها، ذلك البحَّار هناك، الذي يتحدث إلى أوليف مورتون؛ ولقد أُعلِنَت خطوبتهما الأسبوعَ الماضي. وأنت بالطبع تعرف الليدي باتريك، وسينيور سكوبل، وأديلايد كنينجهام — أنت تعرفها، أليس كذلك، يا سيد دانييل؟ إنها أعزُّ صديقة لي. فكم عددُ هؤلاء؟»

عدَّهم الناشر بعناية.

ثم قال: «أحدَ عشَر ونحن فيهم.»

تنهَّدَت الليدي أنسيلمان وهي تقول: «ويجب أن يكون عددنا اثنَي عشر.» ثم أضافت فجأةً وقد ابتهج وجهها: «بالتأكيد. يا لي من حمقاء! إنه روني الذي ننتظره. لا يمكن للمرء أن يغضب منه، ذلك المسكين. إنه يتحرَّك بصعوبة.»

مالت نحوَهما الفتاةُ الشقراء، التي سمعت حوارهما. وقد أضاف ظلُّ الاهتمام المستيقظ حديثًا في وجهها، وانحناءُ شفتَيها أثناء حديثها، المزيدَ من الجاذبية إليها. وانعكس شعاعٌ من ضوء الشمس على شعرها الذهبي الأصفر الملفوف بعنايةٍ وجمال.

وسألت بحماسٍ بعضَ الشيء: «هل ابن أخيكِ، كابتن رونالد جرانيت، هو من سيأتي؟»

أومأت الليدي أنسيلمان برأسها.

وقالت: «لقد عاد إلى الوطن يوم الثلاثاء الماضي فقط مع إرسالياتٍ من الجبهة. وهذا هو أول يومٍ له بالخارج.»

استفسرَت مدام سيلارني باهتمام: «أوه! لكن هل تعرض لإصابة؟»

أجابت الليدي أنسيلمان: «في الذراع اليسرى والساق اليمنى. أعتقد أنه شهد بعضَ المعارك الرهيبة، ونحن فخورون جدًّا بخدمته المميزة وشَجاعته. لكن المشكلة الوحيدة هي أنه مثل جميع الآخرين — لن يُخبرنا بأي شيء.»

قال اللورد رومسي: «إنه يُظهر تقديرًا ممتازًا للأمور.»

نظرَت الليدي أنسيلمان إلى ضيفها الموقَّر بتشكٍّ قليلًا.

وقالت: «هذا هو المبدأ الذي تتمسَّكون به، في الوقت الحاضر، أليس كذلك؟ أظن أنكم تفتقدون الحكمة. عندما تَخفى الأخبارُ عن شخص، فإنه يخشى الأسوأ، وعندما تصل إلينا أخبارُ هذه الكوارث الصغيرة متأخرةً بنحو ثلاثة أسابيع، مرةً تلو الأخرى على مراحل، فنحن لا نتخلص أبدًا من هواجسنا، حتى عندما تُخبروننا عن الانتصارات ... أوه! ها قد أتى أخيرًا»، ومدَّت يدَيها إلى الشاب الذي كان يشق طريقه بصعوبة إلى حدٍّ ما نحوهم. وقالت: «روني، لقد تأخرتَ بضع دقائق، لكننا لسنا غاضبين منك مطلقًا. هل تعلم أنك تبدو أفضلَ بالفعل؟ تعال وأخبرني بمن لا تعرفه من ضيوفي وسأعرفك به.»

حيَّا الشاب عمته، متكئًا على عصاه، وتمتمَ بكلمة اعتذار. كان شابًّا وسيمًا للغاية، لديه شاربٌ يميل إلى الحُمرة، وبقايا نمش على وجهه. كانت عيناه الرماديتان غائرتَين بعض الشيء، كما توجد خطوط حول فمه ربما يُخمن المرء أنها نتجت مؤخرًا بسبب الألم أو المعاناة من نوعٍ ما. وقد علقت ذراعه اليسرى بلا حركة في حمالةٍ من الحرير الأسود. وراح الشاب ينظر نحو التجمع الصغير.

قال، وهو ينحني للممثلة الفرنسية ويرفع أصابعها إلى شفتيه: «أولًا وقبل كل شيء، لا يوجد أحدٌ لا يعرف مدام سيلارني. لقد التقينا من قبل، يا ليدي باتريك، أليس كذلك؟ سأشاهد زوجكِ في مسرحيته الجديدة في الليلة الأولى التي يُسمَح لي فيها بالخروج. وقد التقَيْت من قبلُ بالسيد دانييل»، ثم أضاف، وهو يصافح الوزير: «وربما يمنحني اللورد رومسي شرفَ أن يتذكرني.»

ثم استدار لمواجهة جيرالدين كونيرز، التي كانت تُراقبه باهتمام. فعرَّفتهما الليدي أنسيلمان أحدهما بالآخَر على الفور.

وقالت: «أعلم أنك لم تقابل الآنسة كونيرز لأنها كانت تسأل عنك. هذا هو ابن أخي روني، يا جيرالدين. أتمنى أن تُصبحا صديقَين.»

تمتمَت الفتاة بكلمات غير مسموعة وهي تصافحه. ونظر إليها الضابط الشاب لحظةً. ثم بدَت عليه الجدية إلى حدٍّ ما.

وقال بهدوء: «أنا أيضًا آمُل ذلك.»

تابعَت الليدي أنسيلمان: «أوليف، تعالَي لتتعرَّفي على ابن أخي إذا كان بإمكانكِ الاستئذانُ لحظةً من رفيقك. هذا هو كابتن جرانيت ... وهذه هي الآنسة أوليف مورتون. وهذا شقيق جيرالدين ... الملازم كونيرز.»

فتصافح الرجلان بلطف. ثم نظرَت الليدي أنسيلمان إلى الساعة واستدارت بخفةٍ نحو الممر.

وقالت: «والآن، على ما أعتقد، حان وقت الغداء.»

وبينما هي تتحرك إلى الأمام، لاحظَت فجأةً الرجلَ الذي كان يتحدث إلى مدام سيلارني. حيث ارتكن قليلًا إلى جانبٍ واحد وهو يراقب الضابط الشاب بفضول. فعادت إلى ابن أخيها ولمسته في ذراعه.

وقالت: «ترى يا روني، هل قابلت الجرَّاح الميجور طومسون في فرنسا؟ أيها الميجور طومسون، هذا هو ابن أخي، الكابتن جرانيت.»

استدار جرانيت في الحال ومد يده للرجل الآخر. فقط جيرالدين كونيرز، التي كانت فتاة تميل إلى ملاحظة الأشياء، والتي لديها أيضًا أسباب خاصة بها تجعلها مهتمَّة، هي مَن لاحظت التفحصَ الغريب نوعًا ما الذي ينظر به كلٌّ منهما إلى الآخر. ويبدو أن شيئًا ربما تقريبًا كان تحديًا ينتقلُ من أحدهما إلى الآخر.

قال جرانيت: «ربما لم أُقابلك شخصيًّا، ولكن إذا كنتَ الجرَّاح الميجور طومسون الذي كان يفعل أشياءَ عظيمةً مع المستشفيات الميدانية على الجبهة، فعندئذٍ مثل كلِّ شخص مسكين هناك أنا مَدين لك بدَين خاص من الامتنان.» واختتم الضابط الشاب بكل ودٍّ: «أنت الرجل الذي أعنيه، أليس كذلك؟»

انحنى الميجور طومسون لتحيته، وبعد لحظة اتجه الجميع عبر الممر، نحو المطعم، وبحثوا عن أسمائهم على البطاقات وأخذوا أماكنهم على المائدة التي كانت مخصصةً لهم. ألقت الليدي أنسيلمان نظرة سريعةً مدقِّقة حولها تليق بمضيفة خبيرة لتتأكَّد أن ضيوفها قد جلسوا بشكل صحيح قبل أن تُكرس نفسها لضيافة الوزير. كان لديها كلمةٌ أو كلمتان ستقولهما لكل واحدٍ منهم تقريبًا.

قالت: «لقد أجلستك بجانب الآنسة كونيرز، يا روني؛ لأننا نُقدم كل الأشياء الجيدة لرجالنا عندما يعودون إلى الوطن من الحرب.» وتابعت، وهي تلتفت إلى البحَّار: «وأجلستك بجانب أوليف، يا رالف؛ لأنني سمعتُ أنك ستغادر على متن سفينتك اليومَ أو غدًا؛ لذا فأنت أيضًا يجب أن تُدلَّل قليلًا. كقاعدةٍ عامة، أنا لا أوافق على جلوس المخطوبين بجانب بعضهم البعض، فهذا يُركز المحادثة بشكل كبير.» وأضافت، وهي تلتفت إلى مَن يجلس بجوارها: «ومن فضلك، أيها اللورد رومسي، لا تتخيَّل لحظةً أنني سأحنث في وعدي لك. فنحن سنتحدث عن كل شيءٍ في العالم ما عدا الحرب. وأنا أعلم جيدًا أنه إذا كان لدى روني أيُّ تَجارِب مثيرة بشكل خاص، فلن يُخبرنا عنها، وأنا أعلم أيضًا أن عقلك مليءٌ بالأسرار التي لا يوجد شيء في العالم سيحثُّك على إفشائها.» واختتمت كلامها، وهي تبتسم للممثلة الفرنسية قائلة: «سنحاول إقناع مدام سيلارني بإخبارنا عن مسرحيتها الجديدة، وهناك الكثير من أصدقائي على المسرح الفرنسي الذين يجب أن أسمعَ أخبارهم.»

وهكذا بدأ اللورد رومسي مأدُبةَ الغداء في جوٍّ من الارتياح. وهو رجلٌ قد تجاوز منتصفَ العمر بقليل، يتمتَّع ببِنْيةٍ قوية، ويميل إلى الرصانة، وتبدو ملامحه صارمة، بذلك الفكِّ القوي. وغمغمَ قائلًا: «أنت لبقةٌ دائمًا، يا مضيفتنا العزيزة، في الواقع، أنا لم أحضر هنا اليومَ إلا استجابةً لدعوتكِ ولوجودِ مدام سيلارني. من الصعب جدًّا تجنُّبُ الحديث عن

الأشياء الكبرى، وبالنسبة إلى رجل في منصبي»، أضاف، وهو يخفض صوتَه قليلًا: «من الصعب جدًّا قولُ أي شيء يستحق الاستماع إليه عنها، دون أيِّ مظهرٍ من مظاهر إفشاء الأسرار.»

أكَّدَت له الليدي أنسيلمان بتعاطف: «نحن جميعًا نُقدر ذلك. لقد وعدَتْنا مدام سيلارني بإعطائنا الخطوطَ العريضة للمسرحية الجديدة التي تُقدمها في مانشستر.»

وافقت السيدة سيلارني على ذلك قائلة: «إذا كان هذا سيُثير اهتمامكم جميعًا، فإنها تبدأ — هكذا!»

ومن ثَم استمعوا جميعًا تقريبًا في صمتٍ واهتمامٍ بعضَ الوقت. حيث ساعدت إيماءاتُها، ونبرات صوتها، ورفعُ حاجبيها وكتفيها — في إضفاء الحياة واللون على المشهد الصغير الذي شرحَته. ولم يجرؤ على تجاذب أطراف حديثٍ مستقل إلا أولئك الجالسون عند الطرفِ البعيد من الطاولة. حيث تبادلَت السيدة كنينجهام، وهي المرأة التي أشارت إليها مضيفتها على أنها صديقتها الخاصة، التي تُشاركها شغفَها بالترفيه، الحديثَ بشكلٍ متقطع مع الرجل الجالس بجوارها، الميجور طومسون. وقد تناولَت أكثرَ من نصف غَدائها قبل أن تُدرك أن محادثتهما تجري من طرفٍ واحد؛ طرَفِها هي بالطبع. فراحت تتفحَّصه لحظةً بفضول. فوجدَت وجهه ساكنًا للغاية وخاليًا من التعبيرات، على الرغم من أن أشعة الشمس القادمةَ عبر النوافذ العالية المتسعة التي تُطل على الحديقة، كانت تنير وجهه بالكامل.

فقالت فجأةً بإصرار: «حدِّثني عن نفسك! لقد كنتُ أثرثر مدةً طويلة بما يكفي. لقد كنتَ خارج البلاد، أليس كذلك؟»

أجابها بجدية.

«لقد ذهبتُ مع الكتيبة الأولى. في ذلك الوقت كنت مسئولًا عن مستشفًى ميداني.»

«وماذا عن الآن؟»

أجاب: «أنا كبير المفتشين في المستشفيات الميدانية.»

«هل عُدت إلى الوطن في إجازة؟»

قال لها، بأسلوب جافٍّ بعض الشيء: «ليس بالضبط. يجب أن أحضر في كثيرٍ من الأحيان لأسبابٍ تتعلَّق بتفاصيلَ ذاتِ صلةٍ بإدارة عملي.»

قالت: «كان يجب أن أعرف جيدًا أنك جرَّاح.»

«هل أنت متخصِّصةٌ في علم دراسة الملامح، إذن؟»

قالت: «إلى حدٍّ ما. أترى، أنا أُحب الناس. وأحب وجود الناس من حولي. يعتقد أصدقائي أنني مصدرُ إزعاجٍ تام؛ لأنني أرغب دائمًا في إقامة الحفلات.» وأضافَت وهي تنظر إليه: «أنت لديك وجهٌ ساكن، بارد مثل الجراحين — ويداك أيضًا.»

قال باقتضاب: «أنت قوية الملاحظة.»

ضحكت قائلة: «أنا فُضولية أيضًا، وأنت على وشك اكتشافِ ذلك. أخبِرني لماذا أنت مهتم جدًّا بروني جرانيت؟ أنت لم تُقابله من قبل، أليس كذلك؟»

وللمرة الأولى تقريبًا استدار ونظر مباشرة إلى مَن تجلس بجواره. كانت امرأةً قد بدأ شعرها الأشقر في التحول إلى اللون الرمادي، حسَنة الملبس، ومفعمة بالحيوية، ومبتهجة. وهي ذات فمٍ مرح ووجه متسامح.

أجاب قائلًا: «أنا لم أقابل الكابتن جرانيت من قبل. ومع ذلك، فإن المرء يهتمُّ بطبيعة الحال بالجنود.»

قالت: «لا بد أنك قد قابلتَ الآلاف من أمثاله — إنه حسَن المظهر، ذو ملامح بريطانية للغاية، رياضي متحمس، شجاع، مع القليل من اللامبالاة، يكره التحدث عن نفسه والأشياء الجادة. لقد عرَفته منذ أن كان صبيًّا.»

استمر الميجور طومسون في الاهتمام بجدية.

وقال لنفسه وهو يُفكر: «جرانيت! هل أعرف أحدًا من عائلته، يا ترى؟»

ردَّت السيدة كنينجهام بخفة: «أنت تعرف بعضَ أقاربه، بالطبع. السير ألفريد أنسيلمان، على سبيل المثال، عمه.»

«وماذا عن والده ووالدته؟»

«لقد تُوفِّيا. هناك إقطاعية عائلية كبيرة في وارويكشاير، ومنزل ريفي ضخم، وهما الآن، للأسف، في أيدي الألمان. فهما يقعانِ في مكانٍ قريبٍ جدًّا من الجبهة. وكانت السيدة جرانيت من مدينة ألزاس. وهو كان سيُسافر مع فريق البولو، كما تعلم، إلى أمريكا، لكن ضلعه انكسَر أثناء قيامهم باختيار الفريق. ومن ثَم لعب الكريكيت مع فريق ميدلسكس مرةً أو مرتين أيضًا، وكان قائدَ فريق أوكسفورد في العام الذي تفوقوا فيه.»

غمغَم الميجور طومسون: «يا له من شخص متميز.»

قالت: «في الرياضة، بالقطع. لقد كان دائمًا أحدَ أكثرِ الشباب شهرةً في المدينة، لكن بالطبع النساء سوف يُفسِدنه الآن.»

سأل: «هل هذا من وحي خيالي، أم أنه تم الإبلاغ عن أنه سجين؟»

أجابت السيدة كنينجهام: «لقد اكتشفوا عدمَ وجوده مرتين؛ مرةً منهما لأكثر من أسبوع. هناك كل أنواع القصص حول كيفية عودته إلى الخطوط. إنه طائشٌ صغير، في رأيي. يجب أن أتحدث مع السيد دانييل بِضعَ دقائق وإلا فلن ينشر مذكراتي.»

ومن ثَم مالت نحو الرجل الجالس على الجانب الآخر، فتمكَّن الميجور طومسون من استئناف دور المراقب اليقظ، وهو الدور الذي بدا بطريقةٍ ما أنه مقدَّرٌ له أن يلعبه. واستمع دون اهتمام واضحٍ للمحادثة بين جيرالدين كونيرز والشابِّ الذي كان الميجور يُناقش أحواله مع السيدة كنينجهام.

قالت جيرالدين شاكيةً: «أعتقد، أنك تبالغ في تحفُّظِك الدبلوماسي بعض الشيء، يا كابتن جرانيت. فأنت لم تُخبرني بأي شيء. عجبًا، إن بعض الجنود الذين كنت أزورهم في المستشفيات أكثرُ إثارةً للاهتمام منك.»

فابتسم.

واحتجَّ قائلًا: «أؤكد لكِ أن هذا ليس خطَئي. لا يمكنكِ أن تتخيَّلي كيف سئم المرء من الأشياء الموجودة هناك، ويمكن للصحف أن تُخبركِ أكثر بكثيرٍ مما نستطيع. إذ إن الجندي يرى فقط القليلَ من زاوية القتال الخاصة به، كما تعلمين.»

قالت في إصرار: «لكن ألا يمكنك إخباري ببعض تَجارِبك الشخصية؟ إنها أكثرُ إثارةً للاهتمام مما يقرؤه المرء في الجرائد.»

أكَّد لها: «لم يكن لدي أيُّ تجارب شخصية. لقد مر علينا الوقت ببطءٍ مخيفٍ لمدة شهور.»

قالت وهي تضحك: «بالطبع، أنا لا أصدق كلمةً مما تقول.»

فسألها: «أنت لا تعتبرينني مراسلَ حرب، بأي حال من الأحوال، أليس كذلك؟»

هزت رأسها.

وقالت: «لغتك ليست تصويريةً بما فيه الكفاية! أخبرني، متى ستعود؟»

«بمجرد أن أتمكن من اجتياز كشف الأطباء — في غضون أيام قليلة، كما آمُل.»

كررت كلامَه قائلةً: «كما تأمل؟ هل تقصد ذلك حقًّا، أم أنك تقوله لأنه الشيء المناسب لقوله؟»

بدا عليه الاستياءُ من سؤالها إلى حدٍّ ما.

وقال ببرود: «حقيقة أنني أتمنَّى أن أعود، لا علاقة لها مطلقًا بإعجابي بعملي عندما أصل إلى هناك. في واقع الأمر، أنا أكرهه. وفي الوقت نفسه، يمكنكِ بالتأكيد تفهُّمُ أنه لا يوجد مكانٌ آخر لرجلٍ في سني ومهنتي.»

قالت بهدوء: «بالتأكيد، أنا حقًّا آسفةٌ لأنني أزعجتك. هناك شيءٌ واحدٌ أودُّ معرفته، رغم ذلك وهو كيف تمكنت من الهروب؟»

هز رأسه ولكن بدا أنه استعاد أسلوبه اللطيف بالكامل. وتلألأت عيناه وهو ينظر إليها.

وأجاب: «ها نحن أمام جدارٍ صُلب من المستحيل. كما ترين، قد يحاول بعض الزملاء الآخَرين تجرِبةَ الخدعة. وأنا أخبرتهم بالسر ولا أريد إفساد فرصهم.» وأضاف مع خَفْض صوته قليلًا: «بالمناسبة، هل تعرفين الرجل الجالس على بعد مكانَيْن على يسارك؟ إنه يبدو كأنه تمثالٌ شمعي، أليس كذلك؟»

قالت، بعد لحظة من التردد: «هل تقصد الميجور طومسون؟ أجل، أنا أعرفه. إنه هادئ جدًّا اليوم، لكنه رجل حسَن الصحبة للغاية.»

ثم نهضت مضيفتهم وتوجهت إليهم جميعًا بالحديث من طرَف المنضدة.

وقالت: «لقد قرَّرنا أن نأخذ قهوتنا في البهو.»

الفصل الثاني

خرَجت المجموعة الصغيرة من المطعم، وشقَّ أفرادها طريقهم إلى ركنٍ من البهو، حيث جُهِّزت الطاولات بالفعل بالقهوة والمشروبات. وجلست جيرالدين كونيرز والكابتن جرانيت، اللذان أتيَا على مهَل، إلى إحدى الطاولات. ووضعت الليدي أنسيلمان أصابعها على ذراع الميجور طومسون.

وترجَّتْه قائلة: «من فضلك تحدث بضعَ دقائق أخرى مع سيلارني. إن لغتك الفرنسية مصدرُ ارتياحٍ لها.»

فاستجاب لها على الفور، على الرغم من أنه استمرَّ في مراقبة الطاولة التي كان يجلس إليها الكابتن جرانيت ورفيقته. وقد كانت مدام سيلارني في حالةٍ مِزاجيةٍ راغبةٍ في الثرثرة؛ لذا وجدا العديدَ من الموضوعات المتبادَلة.

فقالت له: «إنه أمرٌ رائع، أن تتكلم لغةً أجنبية كما تفعل أنت. هل تُتقن الفرَنسية وحدها، يا سيدي، أم أنك، ربما، لُغوي عظيم؟»

أجاب: «لا أستطيع أن أُطلق على نفسي ذلك، لكني أتحدَّث عدةَ لغاتٍ أخرى. إذ إنني سافرتُ كثيرًا عندما كنت صغيرًا.»

سألَته وقد علَت ملامحَها تكشيرةٌ صغيرة: «هل تتحدث الألمانية أيضًا؟»

فقال: «لقد كنتُ أعمل بمستشفًى في برلين.»

ازداد جَمْع الليدي أنسيلمان فجأةً مع قدوم بعض المعارف من طاولةٍ مجاورة، وجميعهم يرغبون في تقديمهم إلى السيدة سيلارني. فاتجه الميجور طومسون، بعد أن تحرَّر من صُحبتها، على الفور نحو الطاولة الصغيرة التي كان يجلس عليها الكابتن جرانيت مع جيرالدين كونيرز. فرحَّبَت به بابتسامة.

وسألت: «هل جئتَ لتناول القهوة معنا؟»

فأجاب: «إذا سمحتما لي. إذ يجب أن أغادر في غضون بضعِ دقائق.»

توقَّف نادلٌ أمام طاولتهم وعرض عليهم صينيةَ تقديمٍ عليها عدةُ فناجين من القهوة وكئوس من المشروبات. فانحنى الكابتن جرانيت إلى الأمام وهو جالسٌ في مكانه ومدَّ يده لتقديم فنجان قهوةٍ لرفيقته. وقبل أن يتمكَّن من أَخْذ الفنجان، انزلقَت صينية التقديم بالكامل من أصابع النادل بطريقةٍ ما، واصطدمَت بزاوية الطاولة، وسقطَت بمحتوياتها على البساط. واستمرَّ النادل نفسه — وهو شخص صغير الحجم، ذو عيون سوداءَ مرتعبة، عند تلك اللحظة — في تحديقٍ ثابت وغير طبيعي، وبذل جهدًا يائسًا لإنقاذ نفسه ثم سقط إلى الوراء. فاستدار الجميع، بفعل ضجيج الفناجين المتساقطة والآهة الحادَّة شبه المخنوقة التي انطلقت من شفتَي الرجل. فقفز الكابتن جرانيت واقفًا على قدميه.

وصاح: «يا إلهي! لقد أُصيب الرجل بنوبة!»

فجاء رئيس النُّدُل وبعضُ النُدُل مسرعين نحوَ الجسد المغمى عليه، الذي كان الميجور طومسون مستندًا على ركبته بجانبه. وجاء المدير، الذي ظهر في المشهد بسرعةٍ شديدة كما لو كان بالسحر، والذي علا وجهَه تعبيرٌ عن الرعب من أن ينزعج الضيوف بسبب ذلك، وسرعان ما أعطى أوامرَه. فأمر بالتقاط الرجل وحملِه بعيدًا. وتبعه الميجور طومسون. ونجح اثنان أو ثلاثةُ نُدُلٍ خلال بضعِ ثوانٍ في إزالة حطام الحادث، وبدأت الأوركسترا عزف موسيقى فالس مميزة. واعتذر رئيس النُّدل للمجموعات القليلة من الناس عن الضجة — وقال إنه ربما يجب أن يُلام على توظيف شابٍّ رقيق للغاية — ليس لائقًا للخدمة.

قالت الليدي أنسيلمان، بينما يُوجه الرجل إليها تفسيراته: «يبدو أنه أجنبي.»

«إنه بلجيكي، يا سيدتي. وأصيب بجروحٍ خطيرة في بداية الحرب. لقد أخذناه مباشرة من المستشفى.»

قالت الليدي أنسيلمان: «آمُل أن يتعافى المسكين قريبًا. من فضلك لا تُفكر في أي شيء أكثرَ من هذا الأمر فنحن مهتمُّون للغاية. يجب أن تخبرني لاحقًا عن حالته.»

انصرف رئيس الندل مع انحناءة بسيطة. والتفتت جيرالدين إلى الكابتن جرانيت.

وقالت: «أعتقد أنك طيبُ القلب للغاية، بالنسبة إلى كونك جنديًّا.»

فالتفتَ ونظر إليها.

«لماذا؟»

«لا بد أنك شاهدتَ الكثير من المشاهد المروعة ... والكثير من الموتى، ومع ذلك ...»

سألها في إصرار: «ماذا؟»

«كان هناك شيءٌ في وجهك عندما ترنَّح الرجل للخلف، نوعٌ من الرعب تقريبًا. أنا متأكدة من أنك شعرت به تمامًا مثل أيٍّ منا.»

صمتَ لحظةً.

ثم قال ببطء: «في ساحة المعركة، يُصبح المرء قاسيًا بطبيعة الحال، لكن الأمر مختلف هنا. لقد بدا ذلك الرجل مريضًا بشكل مروع، أليس كذلك؟ وأنا أتساءل ما الذي أصابه بالفعل.»

قالت: «سنعرف عندما يعود الميجور طومسون.»

بدا جرانيت كما لو كان لا يسمعُ كلماتها. إذ استحوذتْ عليه نوبةٌ غريبة من الانشغال. حيث التفتَ نحو الممر، وبدا أنه ينتظر.

وقال على الفور: «إنه رجل غريب، طومسون هذا. هل هو صديقٌ مقرَّب لك، يا آنسة كونيرز؟»

تردَّدتْ لحظة.

«إني أعرفه منذ بعض الوقت.»

بدا أن شيئًا ما في لهجتها يُزعجه. فمال نحوها بسرعة. وقد فقد وجهُه اللامبالاة المرحة. وكان من الواضح أنه شديد الجدِّية.

وسأل باستعطاف: «من فضلك لا تعتبريني وقحًا، لكن ... هل هو صديق مقرب جدًّا لك؟»

لم تُجب. فقد كانت تنظر من فوق كتفه نحو المكان الذي يقف فيه الميجور طومسون، الذي عاد لتوه، وهو يُجيب عن فيضٍ من الأسئلة.

حيث قال: «إن الرجل في حالة ضعف بشكل صادم. إنه بلجيكي، وكان قد أُصيب بجروح ومن الواضح أنه قد تعرض لحرمانٍ شديد من المقومات الأساسية للحياة. مما أضعف قلبَه للغاية. وهو يعاني من نوبة إغماءٍ سيئة، لكنه قد يتعافى مع مدة راحة طويلة.»

ومن ثَم انقسمت الحفلة الصغيرة مرةً أخرى إلى مجموعات. والتفت جرانيت، الذي كان قد انسحب لحظةً وبدا أنه يضبط أربطة حمَّالة ذراعه، إلى طومسون.

وسأله: «هل استعاد وعيه؟»

كان الردُّ المقتضب: «بالكاد.»

«لم يكن هناك سببٌ خاص لإغمائه بهذه الطريقة، على ما أظن، أليس كذلك؟»

لم يكن صمتُ الجراح الميجور طومسون ترددًا. لقد كان يقف بثباتٍ تام، وعيناه مثبتتان على الجندي الشاب.

وقال: «في الوقت الحالي، لست متأكدًا تمامًا بشأن ذلك. إذا كنت مستعدَّة، يا جيرالدين هل نغادر؟»

فأومأت برأسها ومن ثَم ودَّعا الليدي أنسيلمان. ونظر جرانيت خلفهما بعبوسٍ خفيف. وانتحى بعمته جانبًا للحظة.

وسألها: «لماذا الآنسة كونيرز هنا بدون مرافق؟ ولماذا غادرَت مع طومسون؟»

ضحكت الليدي أنسيلمان.

«ألم تُخبرك؟»

سأل في إصرار: «تُخبرني بماذا؟»

نظرت الليدي أنسيلمان إلى ابن أخيها بفضول.

وقالت: «من الواضح أن تعرُّفك على الفتاة لم يكن سريعًا كما يبدو، وإلا كانت ستخبرك بسرها ... الذي هو، بالمناسبة، ليس سرًّا على الإطلاق. فهي والميجور طومسون مخطوبان وسيتزوجان.»

الفصل الثالث

كانت أشعَّة الشمس القليلة تُضيء ميدان بيكاديللي عندما غادرَت جيرالدين ومرافُقها فندقَ ريتز. وبدا أن الكآبة اللحظية الناجمةَ عن الحادثة الصغيرة الدرامية التي حدثَت قبل دقائق قليلة؛ قد انتهت بالفعل؛ وذلك من خلال طريقة الفتاة. حيث راحت تسير، وهي تُدندن لنفسها. وبينما توقَّفا لعبور الطريق، نظرَت كما لو كان عن غير قصدٍ إلى رفيقها. وقد صنعت ملابسُه الصباحية الداكنة والمظهر الشارد نوعًا ما جوًّا من الكآبة حوله، أصبحَت تُدركه فجأةً.

فسألته: «هيو، لماذا لا ترتدي الزيَّ العسكري في المدينة؟»

أجاب: «ولماذا أرتديه؟ في نهاية الأمر، أنا لستُ جنديًّا مقاتلًا في الواقع، كما تعلمين.»

تنهَّدَت قائلة: «لأنه جذَّابٌ للغاية.»

بدا وكأنه لمح بريقًا في عينَيْها وهي تنظر عبر الشارع، بينما غيَّم على عقله ظلٌّ تخوُّف.

«هل وجدتِ الكابتن جرانيت مثيرًا للاهتمام؟»

قالت بحماس: «جدًّا. أعتقد أنه مبهج، ألَا تظن ذلك؟»

قال طومسون معترفًا: «يبدو بالتأكيد أنه أكثرُ أنواع الشباب جاذبيةً.»

فتابعَت: «وكم هو رائع أن يكون لديك مثلُ هذه المغامرات! لقد أصبحت الحياة غريبةً جدًّا، مع ذلك، خلال الأشهر القليلة الماضية. أعتقد أن المرة الوحيدة التي رأيته فيها من قبلُ كانت في مباراة بولو، واليوم نجلس جنبًا إلى جنبٍ في مطعم، وعلى الرغم من أنه لن يتحدثَ عنها، يعرف المرء أنه كانت لديه مغامراتٌ رائعة. لقد كان أحد أولئك الذين ذهبوا مباشرةً من الملاعب ليبحثوا عن المجد، أليس كذلك، يا هيو؟ لقد ربح مائةً واثنين وثلاثين لصالح ميدلسكس في اليوم السابق لإعلان الحرب.»

وافق الميجور طومسون بمرح: «هذا هو نوعُ الجندي الشاب الذي سيُحقق لنا النصر، إذا كان بإمكان أيِّ شخص أن يفعل ذلك.»

فجأةً تمسكَت بذراعه.

وصاحت، وهي تُشير إلى لافتةٍ يحملها بائع الصحف: «هيو، هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يمكنني تحملُه، الشيء الوحيد الذي أعتقد أنني لو كنت رجلًا سيُحولني إلى شخص همجي!»

توقَّفا لقراءة العناوين ...

ضربُ سفينة ركاب بالطوربيدات دون سابقِ إنذارٍ في البحر الأيرلندي. مصرع اثنين وعشرين شخصًا.

تأوَّهت قائلةً: «إن الأشياء من هذا النوع تجعل المرء يتمنَّى أن يُصبح ليس رجلًا، بل إلهًا، ليتمكَّن من أن يُنزل الصواعق ويصبَّ الجحيم!»

صاح صوتٌ قويٌّ جديدٌ، خلفهم: «هنيئًا لك يا جيري. هذا هو عملي الآن. ألم تسمعينا نصيحُ خلفك، أنا وأوليف؟ انظري!»

ولوَّح شقيقها ببرقية.

سأله طومسون: «هل استُدعيتَ إلى سفينتك؟»

أجاب الشابُّ بحماس: «لقد حصَلتُ على ما أريد. لقد استُدعيتُ للعمل على متن سفينة مدمِّرة، واحدة من النوع الجديد — سرعتها أربعون عقدةً في الساعة، مع صفٍّ صغير مميز من مدافع عيار أربع بوصات»، وأضاف، وهو يهز قبضته باتجاه اللافتة: «يا إلهي! شيء آخر، آمُل، أن هذا سيُلقن هؤلاء القتَلة درسًا.»

وضعت جيرالدين يدَها على ذراع أخيها.

«متى ستنضم، يا رالف؟»

أجاب: «ليلة الغد في بورتسماوث. للأسف لن نبدأَ العمل قبل عدةِ أيام. سيمنحونني المدمِّرة سكوربيون يا جيرالد ... أو السفينة الغامضة، كما يُسمونها في البحرية.»

سألته: «لماذا؟»

وجهه الطفوليُّ إلى حدٍّ ما، مثل وجه أخته، تغيَّر فجأة.

«لأننا سنُلقِّن هؤلاء القراصنة الملاعين درسًا ...»

قاطعه طومسون: «كونيرز!»

توقف الشابُّ عن الكلام. بينما نظر طومسون إليه عابسًا.

وقال: «لا تظنَّ أنني امرأة عجوزٌ خائفة. أعلم أننا سئمنا جميعًا من هذه الحكايات عن الجواسيس وهذا النوع من الأشياء، لكن هل تعتقد أنه مِن الحكمة أن تفتح شفتَيك وتتحدَّث عن معلوماتٍ محددة؟»

سأله كونيرز في حدَّة: «ماذا تعرف عن ذلك؟»

أكَّد له طومسون على عجَل: «لا شيء، لا شيء على الإطلاق. أنا أُعلِّق فقط على ما قلته بنفسك. إذا كانت هناك أيُّ تجهيزات على المدمِّرة سكوربيون للتعامل مع تلك السفُن الجَهنمية، فلن أنطقَ بكلمة عنها أبدًا، لو كنت في مكانك. كنت سأخرج إلى البحر زامًّا شفتَيَّ، حتى أمام جيرالدين والآنسة مورتون هنا.»

احمرَّ خدَّا الشاب قليلًا.

وقال: «ربما أنت على حق. لقد كنتُ متحمِّسًا للغاية. فالعمل على متن المدمرة سكوربيون هو أكثر، حتى، ممَّا كنتُ أجرؤ على الأمل فيه. ومع ذلك، أمام الفتاتَيْن لم يبدُ الأمر مهمًّا للغاية.» وأضاف، بينما ينظر حوله: «ولا يوجد جواسيسُ، بأي حال من الأحوال، يختبئون في أشجار شارع بيركلي.»

رفع طومسون إصبعه وأوقف تاكسيًا.

ثم قال لكونيرز: «أنت لن تتضايقَ مني، أليس كذلك؟ إذا كنت قد سمعت نصف القصص التي سمعتها عن الأشياء التي أفشيناها ببراءةٍ تامة ...»

قال الشابُّ مقاطعًا: «لا لستُ متضايقًا، فقط يجب ألَّا تظنَّ أنني ثرثارٌ لمجرد أنني قلتُ كلمة أو كلمتَين هنا أمامك أنت وجيري وأوليف، أيها الرجل العجوز.»

سألت جيرالدين: «هل يجب أن تذهب، يا هيو؟»

فأجاب: «أنا آسفٌ للغاية، ولكن لا بد لي من ذلك. لديَّ بالفعل موعدٌ مهم هذا المساء.»

قالت في تذمُّر: «موعد! أنت موجود في لندن مدةً قصيرة جدًّا ويبدو أنك مشغولٌ بالمواعيد طَوال الوقت. لن أسمح لك بالرحيل ما لم تُخبرني عن ذلك الموعد.»

قال موضِّحًا بهدوء: «لا بد لي من فحص عيناتٍ جديدة من أسرَّة المعسكرات. وإذا تمكَّنت، فسأتصل بك مباشرةً عبر الهاتف بمجرد أن أنتهي وأرى ما إذا كنتِ غيرَ مشغولة.»

هزَّت كتفيها لكنها أعطتْه إيماءةً لطيفة عندما صعد إلى التاكسي.

قال شقيقها، بينما يواصلون السير: «شخصٌ رصين، طومسون. لم تُعجبني محاسبته لي هكذا لكني أظن أنه كان على حق.»

قالت أوليف: «لا أفهم ما شأنُه بذلك، وأعتقد أن تصرفه كان فظيعًا. كما لو كانت جيري أو أنا مهتمَّة!»

قال رالف كونيرز: «إن رجلًا مثل طومسون ليس لديه الكثيرُ من اللباقة، كما ترَين. سيتعيَّن عليكِ تدريبُه قليلًا، يا جيري، إذا كنتِ تنوين الحصول على أي متعةٍ من الحياة.»

بدا الانزعاج الطفيف على وجه جيرالدين. ومع ذلك، ظلت مخلصةً له بشدة.

وتنهَّدت قائلة: «بعضنا يأخذ الحياة على محمل الجِد أكثرَ من الآخرين. وهيو واحدٌ من هؤلاء. عندما يتذكر المرء كل الأشياء الفظيعة التي لا بد أنه قد رآها، بغض النظر عن ذلك، من الصعب للغاية العثورُ على عيب فيه.»

ثم انعطفوا إلى الميدان وتوقَّفوا قبل أن تستدير أوليف.

قالت وهي تدعوهما: «هل ستأتي معي، يا رالف، وأنت أيضًا يا جيرالدين؟»

هز كونيرز رأسه بأسف.

وقال: «يجب أن أُقدم نفسي في مقرِّ البحرية الملكية عند الساعة الرابعة لتلقِّي تعليماتي النهائية. يجب أن أتحرك على الفور.»

تلاشت الابتسامة فجأةً من على شفتيه. وبدا كأنه يستمع إلى نداء بائعي الصحف في الشارع. وتابع قائلًا، وهو يخفض صوتَه قليلًا: «لا أعرف ماذا ستكون تعليماتي، لكني سئمت من شنِّ الحرب بالطريقة التي يقوم بها رجالنا. إذا كنت محظوظًا بما يكفي للحصول على واحدة من تلك الغواصات القاتلة، يُمكنني أن أعدَك بشيء واحد ... لن يصبح هناك ناجون.»

لم تتكلم أيٌّ منهما لحظةً أو اثنتَيْن. بينما انبعثت من نوافذ المنزل الذي كانوا يقفون أمامه موسيقى فالس شهيرة. أشاحت أوليف بوجهها مع رجفةٍ بسيطة.

فتابع كونيرز، وهو يربتُ على يدها: «أنت تظنين أنني متوحش، يا عزيزتي. لكن تذكَّري، أنا رأيت رجالًا يُقتلون ... وهذا ما يصنع الفارق، يا أوليف. أجل، أنا مختلف! نحن جميعًا مختلفون، وأعني بنحن هنا مَن يخوضون أهوالَ الحرب. إن طومسون مختلف. والشاب الذي جلس بجوارك في مأدُبة الغداء، يا جيرالدين ... ما اسمه؟ جرانيت ... إنه مختلف. هناك شيء كبير وخطير نشأ بداخلنا، وهذا الوحش يُطل من داخلنا. يجب أن يفعل. سآتي لاحقًا، يا أوليف. أخبري أمِّي أنني سأعود إلى المنزل لتناول العشاء، يا جيرالدين. إن القائد ينتظرني في مقر البحرية الملكية. وداعًا، أيتها الفتيات!»

لوَّح بيده وسار نحو زاوية الميدان. فراقبته الفتاتان بِضع لحظات. كانت أكتافه عريضةً مثلما كانت دائمًا ولكن شيئًا ما قد اختفى من مُرونة مِشيته. لم يبقَ شيءٌ من التبختُر المتميز للبحَّارة.

فهمست جيرالدين: «لقد أصبحوا جميعًا على هذا النحو، بعد أن واجَهوا الموت في خِضمِّ الحرب. ونحن لسنا سوى نساء، يا أوليف.»

الفصل الرابع

يبدو أن الجرَّاح الميجور طومسون قد نسي موعده لفحص عينات أسرة المعسكرات؛ لأنه، بعد دقائق قليلة من تركه لجيرالدين وشقيقها، توقَّف به التاكسي أمام منزلٍ كئيب المظهر في أديلفي تيراس. ومن ثَم مرَّ عبر المدخل المفتوح، وصعد بسطتَي سُلم، وسحب مفتاحًا غريب الشكل إلى حدٍّ ما من جيبه وفتح بابًا أمامه. فوجد نفسه في قاعةٍ صغيرةٍ جدًّا، ليس هناك مخرجٌ منها إلا من خلال بابٍ آخر، فمر عبره ودخل إلى شقةٍ كبيرةٍ ولكن بسيطة المظهر. حيث وُضعت ثلاث خزائن كبيرة على طول أحد الجدران، وتناثرت أكوام من الصحف والخرائط على منضدة طويلة، كما وُضعت خريطة عتاد ضخمة للجبهتَيْن الفرنسية والبلجيكية على حامل. كان الساكن الوحيد في الشقة رجلًا يجلس أمام آلة كاتبة بمواجهة النافذة. فأدار رأسه ونهض عند دخول طومسون، وكان شابًّا قصيرًا إلى حدٍّ ما، يبدو عليه الذكاء، تعلو وجهَه بِضعُ ندوب نتيجةَ إصابته بالجدري، وله فمٌ صُلب وصارم، وعينان عميقتان ولامعتان.

«هل حدث شيء، يا أمبروز؟»

كان الردُّ المختصر: «برقية، يا سيدي.»

«هل هي من مكتب الحرب؟»

«لا يا سيدي، لقد جاءت مباشرة.»

سحب طومسون الورقة الرقيقة من ظرفها وأفرغ لنفسه مساحةً في زاوية المنضدة. ثم فتح إحدى الخزائن وأخرج من الدرج الداخلي كتابًا من ورق البرشمان ملفوفًا بجلدٍ بُني رقيق. وبسطَ البرقية وقرأها بعناية. لقد سُلِّمت في بلدة بالقرب من الحدود البلجيكية قبل نحو ثماني ساعات:

هناك حاجة ماسةٌ إلى خمسين ألفَ سرير معسكر في حي لاجير. يرجى بذلُ قُصارى جهدكم من أجلنا، الأمر عاجل. مراتب مزدوجة إن أمكن. لندن.

لمدة نحو عشر دقائق انشغل طومسون بقلمه الرصاص وكتاب الشفرات. وعندما انتهى، درس بتمعُّنٍ البرقية التي فك شفرتها:

وصلت أنباء بخطط للهجوم على لاجير. أحبط الهجوم. نعتقد أن سميث في لندن.

سأل الشابُّ الجالس أمام الآلة الكاتبة: «هل هناك شيءٌ مهم يا سيدي؟»

أومأ طومسون برأسه لكنه لم يردَّ على الفور. إذ أتلف بعنايةٍ البرقية التي تلقاها أولًا، والورقة التي فكَّ عليها الشفرة، وراقب قِطع الورق تحترق إلى رماد. ثم أعاد كتاب الشفرات إلى الخِزانة، التي أغلقها بعناية، وتوجَّه نحو النافذة. ووقف عدةَ دقائق ينظر نحو نهر التيمز.

وأخيرًا قال: «لقد حدث الشيء نفسُه مرةً أخرى في لاجير.»

«هل هناك أي معلومة؟»

«كلا. يقولون إنه في لندن الآن.»

نظر الرجلان أحدُهما إلى الآخَر لحظةً في صمتٍ مطبق. ورجع أمبروز إلى الخلف في كرسيه وعبس بشدة.

«من خلال خطوطنا، ومن خلال بولونيا، وعبر القناة، ومن خلال محطة دوفر، ومن تشيرينج كروس، ومن خلال رجالنا وأفضل ما يمكن أن تقدمه سكوتلاند يارد لنا. في لندن، هذا أمرٌ عجيب أليس كذلك؟»

ارتجف وجه طومسون متشنجًا. وصكَّ على أسنانه.

وقال بصوتٍ أجش: «أنت لست بحاجةٍ إلى لعبِ دور مقر القيادة، يا أمبروز. أنا أعلم أن الأمر يبدو كأنه معجزة ولكنَّ هناك سببًا لذلك.»

سأل أمبروز: «ما هو؟»

تابع طومسون متأملًا: «بعد أسابيع قليلةٍ فقط من بدءِ الحرب، اثنان من الجنرالات الفَرنسيِّين، وأربعة أو خمسة كولونيلات، وأكثر من عشرين ضابطًا وضابط صف، حُوكموا عسكريًّا بتهمة التجسُّس. كان الفرنسيُّون حَذِرين من هذا النوع من الأشياء. بينما لم نفعل نحن. إن أحدًا من هؤلاء الرجال الذين يحكموننا اليوم، يا أمبروز، ما كان ليستمع إليَّ ولو لحظةً واحدة إذا تجرَّأتُ وقلت إن الخائن الذي نسعى إليه هو واحدٌ منا.»

غمغم أمبروز: «أنت محق، لكن هل تُصدق ذلك؟»

أجاب طومسون مؤكدًا: «أجل. إن الأمر ليس فقط هو حقيقة أن الهجمات نفسَها قد فشلت، بل إنه معرفة الجانب الآخر بالضبط بأفضلِ السبل لمواجهة تلك الهجمات. إنه

المعرفة الدقيقة التي لديهم بشأن ترتيباتنا، والتغيير الأكثر سريةً ومفاجأةً للتكتيكات. لقد عانينا بما فيه الكفاية، يا أمبروز، في هذا البلد من الجواسيس المدنيين … والحكومة هي المسئولة عن ذلك. لكن هناك الكثير من الأشخاص الذين يُجعجعون، ويعلنون أنه يجب شنقُ اثنين من وزرائنا في مجلس الوزراء، والذين سوف يُناقضون أنفسهم ويُدافعون بحياتهم إذا ألمحت لحظةً أن الشيء نفسَه يُوجد بدرجةٍ أسوأَ بكثير بين رجالٍ ممن يرتدون الزيَّ الرسمي للملك.»

تمتم أمبروز: «إنه أمر قبيح، قبيح وملعون!»

تابع الميجور طومسون حديثه وهو يُفكر بتمعُّن: «انظر إليَّ، كل سرٍّ مرتبطٌ بخططنا الحاليَّة والمستقبلية يمرُّ عمَليًّا بين يدي، ومع ذلك لا أحد يُراقبني. وعندما تهمس بكلمة في مكتب الحرب أنه ربما يكون من الجيد — لمدة أسبوع فقط، على سبيل المثال — إجراء فحصٍ لبعض تقاريري، فإنهم يضحكون مما قلت ويظهرون بمظهر الكائنات المتفوقة الذين يستمعون إلى ثرثرةِ رجلٍ أحمق. ومع ذلك ما المستحيلُ في ذلك؟ قد يكون لديَّ رذيلةٌ سرية — مثل الجشع الشديد، ربما. إن ألمانيا ستُعطيني ثمن مملكة مقابل كلِّ ما أستطيع أن أخبرهم به. ومع ذلك لأنني ضابطٌ إنجليزي فأنا فوق مستوى الشبهات. وهذا تقديرٌ رائع، يا أمبروز، لكنه حماقة تستحقُّ اللعنة.»

راقب الشابُّ رئيسه عدةَ لحظات. حيث يقف طومسون أمام النافذة، بينما ضوء الربيع البارد يسقط على وجهه، ذي الخطوط العصبية والملامح الثابتة الحادة. وشعر بشعورٍ غريب من عدم التحمُّس للكلام، نوع من الرغبة في الانتظار لسماع المزيد.

ومن ثَم تابع طومسون: «عقَبة واحدة في عقلي، نقطة ضعف سرِّية، وربما حتى قدر ضئيل من الجنون، يحول دون أن أُصبح أهمَّ جاسوس في العالم. لقد كنت في برلين قبل ستة أسابيع، يا أمبروز. وهي معلومة لا يعرفها أحد مطلقًا. ولم أقدم أيَّ تقرير، عن قصد.»

اقترح أمبروز بهدوء: «ربما علموا ولم يقولوا شيئًا.»

ساد الصمت لحظةً. بدا أن طومسون يتأمل في الفكرة بتركيزٍ غريب. ثم هز رأسه.

وقال بحسم: «لا أعتقد ذلك. عندما يُكتب تاريخ هذه الحرب، يا أمبروز، بعباراتٍ رنَّانة وبلاغة وافرة، ستكون هناك فصولٌ غير مكتوبة، أكثر دراماتيكية، لها تأثير مباشر على النتيجة الأخيرة أكثر حتى من المعارك الكبرى التي بدَت أنها العوامل المهيمنة. اجلس بثباتٍ هنا، يا أمبروز، وانتظر. فقد أذهب إلى بولونيا في أي ساعة.»

أزاح طومسون جانبًا من الستائر المعلقة كان يُخفي غرفةً داخلية، ومر من خلالها. وبعد ربع ساعة ظهر مرة أخرى، مرتديًا الزيَّ العسكري. وقد تغيرت نبرته، ومشيته، وطريقتُه بالكامل. حيث مشى بخطوةٍ نشطة، وهو يحمل عصًا قصيرةً ويصفر بصوتٍ خفيض لنفسه.

وقال: «سأذهب إلى مكان أو مكانين في طريق توتنهام كورت، بالتحديد، لفحص بعضِ العينات الجديدة من أسرة المعسكرات. يمكنك إخبارُهم، إذا اتصلوا من وايتهول، أنني سأُقدم تقريرًا لاحقًا في المساء.»

من الغريب، أن الرجل الآخر قد تغيَّر أيضًا، كما لو كان متعاطفًا مع قائده في احترامٍ. إذ أصبح ببساطة السكرتير المطيع والمجتهد.

فقال بسلاسة: «حسنًا، يا سيدي. سأبذل قصارى جهدي لإنهاء المهامِّ المخصصة قبل أن تعود.»

الفصل الخامس

أمضى اللورد رومسي، بعد حضور حفل الغداء، ساعةً في مقرِّه الرسمي في وايتهول وأجرى زيارتَيْن أخريَيْن في طريقه إلى المنزل. وقابله سكرتيره في القاعة الفسيحة بمنزله في بورتلاند سكوير، بعد لحظاتٍ قليلة من خلعه لمعطفه وقبعته وإعطائهما للخادم.

وقال: «هناك رجلٌ يرغب في مقابلتك ويقول إنه قد حدَّد موعدًا عبر الهاتف، يا سيدي. اسمه سيدني — القس هوراشيو سيدني، حسبما قدم نفسه.»

وقف اللورد رومسي لحظةً دون رد. وزمَّ شفتَيه بحدةٍ وحَنق. كان من الواضح أن هذا لم يكن بأيِّ حال من الأحوال زائرًا مرحَّبًا به.

وقال: «أنا لم أحدِّد موعدًا، يا إنسلي. لقد قلت ببساطة إنني سأقابل الرجل عندما يصل إلى إنجلترا. من الأفضل أن تُحضره إلى مكتبي»، وتابع: «واحرص على ألَّا يُقاطعنا أحد.»

انسحب الشاب واتجه الوزير إلى مكتبه. غير أنَّ خطاه افتقدَت القليل من المرونة، وجلس أمام مكتبه مع مظهر رجل يُواجه ربع ساعة بغيضة. وأخذ يعبث لحظةً بحامل القلم.

وغمغم لنفسه بشكل كئيب: «الأسرار المخجِلة.» وأضاف، مع عودة لحظيةٍ لنفسه المتضخمة: «حتى أعظمنا، لديه بعضها.»

طرَق البابَ وعاد السكرتير إلى الظهور، ليُقدم الزائر غير المرغوب فيه.

أعلن بهدوء: «هذا هو السيد سيدني، يا سيدي.»

نهض الوزير في مكانه ومدَّ يده بأفضلِ أسلوبٍ رسمي له، وهو مَزيجٌ مميزٌ من التحفُّظ والتنازل. غير أن طريقته تغيَّرَت في اللحظة التي أُغْلِق فيها الباب. وسحب يده، التي لم يُحاول الآخَرُ الإمساك بها.

وقال مشيرًا إلى كرسي: «لقد منحتك المقابلة التي تُريدها، لكنني سأصبح سعيدًا إذا قمت بشرح الهدف من زيارتك بأقلِّ عددٍ ممكنٍ من الكلمات. وأنا آمُل، أن تُقدِّر حقيقة أن وجودك هنا هو أمرٌ محرجٌ للغاية بالنسبة إليَّ.»

انحنى السيد سيدني للتحية. كان رجلًا طويلَ القامة ويبدو كبيرًا في السن، ويتحلَّى بأقصى درجات الرَّصانة. وجلس على الكرسيِّ دون تسرعٍ لا داعي له، وضبَط نظارته وأخذ بعض الأوراق من جيبه.

ثم بدأ حديثه بتأنٍّ ولكن بدون أي لهجة أجنبية: «سيدي، أنا هنا كي أقدمَ لك بعض المقترحات نيابةً عن شخص، وبِناءً على طلبك لن أذكر اسمه.»

عبَس اللورد رومسي في ضجر وطرق على المكتب الذي بجانبه بسبَّابته الغليظة.

وقال: «لا يمكنني منع حديثك، بالطبع، لكنني أُريدك أن تفهم من البداية أنني لستُ في وضعٍ يسمح لي بالتعامل مع أي رسائل أو اتصالات من سيدك، أيًّا مَن كان هو، أو أي شخص آخر في بلدك.»

قال الآخر بجفاء: «ومع ذلك، يجب أن أُبلغك رسالتي.»

ظهر دافعٌ من الفضول بصعوبةٍ من بين الكآبة والتخوف اللذَين غلَبا على طريقة اللورد رومسي. وحدق في زائره بحاجبَيْن منعقدَيْن.

ويسأله بحدَّة: «من أنت؟ هل أنت رجلٌ إنجليزي؟»

كان الردُّ الباهت: «ليس لهذا علاقة بموضوعنا.»

قال اللورد رومسي في إصرار: «بل له علاقة. لقد تجرَّأت على إعلان نفسك سفيرًا إليَّ من بلد في حالة حرب مع إنجلترا. إن مجرد النقاش بيننا يرقى إلى حدِّ الخيانة. وبعد مزيدٍ من التفكير في الأمر أنا أرفض استقبالك.»

ومن ثَم مد يده نحو الجرس الكهربائيِّ الموضوع على مكتبه. فهز زائره رأسه.

وقال بهدوء: «لو كنت في مكانك، لَما تصرَّفت هكذا. تعرف لماذا. إذا كنت مهتمًّا حقًّا بجنسيتي، فلا ضرر من إخبارك أنني مواطنٌ أمريكي، وقد شغلت منصبَ قسٍّ أمريكي في بروكسل مدة ثلاث سنوات. ومن الأفضل أن تدَعَني أقول ما جئتُ لأقوله.»

تردَّد اللورد رومسي. حيث طغَتْ عليه نزعتُه الطبيعية للتكيُّف مع الظروف، فترك إصبعُه الجرس. وتابع الآخر حديثه.

«إنك في وضعٍ مؤسف، يا لورد رومسي، حيث فشلتَ تمامًا في أداء واجبك تجاه بلدك، وخدَعتَ بشكلٍ صارخٍ وخائنٍ شخصيةً هامَّة كانت تُعاملك دائمًا بأكبر قدرٍ من اللطف. وأنا هنا لأرى ما إذا كان من الممكن لك التعويضُ عن ذلك.»

قال الوزير بانفعال: «أنا أُنكر كل كلمة تقولها، وأرفض الاستماع إلى اقتراحك.»

تغيرَت طريقة السيد سيدني فجأةً. وانحنى إلى الأمام في كرسيه.

وقال ناصحًا: «لا تكن أحمقَ. إن رسالتك الأخيرة إلى شخصيةٍ معينةٍ مؤرَّخةٌ في الثاني من يونيو. لديَّ نسخةٌ منها معي. هل أقرؤها لك، كلمةً كلمة؟»

قال اللورد رومسي بصوت خفيض: «شكرًا لك، أتذكر ما يكفي منها.»

تابع المبعوث: «سوف تستمع إذن إلى ما يجب أن أقوله، وإلا فستُنشر تلك الرسالة في صحيفة «التايمز» صباح الغد. وأنت تعرف ما الذي سيعنيه ذلك ... دمارك السياسي، وعارك الأبدي. ما الفائدة التي ستعود على هذا البلد، الذي أعماه التعصبُ في الوقت الحالي، من رجلِ دولةٍ، بدون أن يحصلَ على تفويضٍ من شعبه، ألزمَ حكومتَه بالتحالف مع ألمانيا، وبتوقيعه الخاص ...»

قاطعه اللورد رومسي: «توقف! لا داعيَ لذلك. ما الذي تُريده؟»

«نُفوذك في مجلس الوزراء. أنت مسئول عن هذه الحرب. عليك أن تضع حدًّا لها.»

صاح الآخر بصوتٍ متحشرج: «كلام فارغ! أنت تحاول تحميلي مسئوليةً مثل هذه؛ ببساطةٍ لأن تعاطفي الشخصي كان دائمًا إلى جانب البلد الذي تُمثله.»

رد السيد سيدني بسرعة: «إنها ليست مسألةَ تعاطفك الشخصي. لقد تعهدتَ كتابةً بأن تُحجم حكومتك عن الحرب ضد ألمانيا.»

احتجَّ رجل الدولة قائلًا: «كيف كان من الممكن تخمينُ أن ألمانيا تُفكر في التنصُّل من المعاهدات، والدخول في حملة عدوانٍ خالص وفاضح؟»

كان الردُّ الهادئ: «أنت لم تضع شروطًا أو استثناءاتٍ في ما كتبتَه. لقد تعهَّدت وأكدت أن حكومتك لن تُعلن الحرب على ألمانيا أبدًا. لقد ألمحت إلى أن الوِفاق الفرنسي وفاقٌ غير طبيعي. وتحدَّثت ببلاغةٍ عن قرابة الدم والروح بين إنجلترا وألمانيا.»

تحرَّك اللورد رومسي بشكلٍ مضطرب في كرسيِّه. لقد كان يتوقع أن يجد هذه المقابلةَ غيرَ سارة، وبالتأكيد لم يَخِب توقعه.

أقرَّ قائلًا: «حسنًا، لقد كنت مخطئًا. ما قلته كان صحيحًا بدرجةٍ كافية. لم أكن أعتقد قطُّ أن الحكومة التي كنت أحدَ وزرائها ستُعلن الحرب على ألمانيا. حتى الآن، دَعْني أخبرْك

أنه لا يوجد أحدٌ على وجه الأرض يعرف كم كان الأمر قريبًا. لو كان شعبك قد اختار فقط أيَّ خطٍّ تقدُّمٍ آخر!»

قال السيد سيدني: «لم آتِ إلى هنا لتبادل الاتهامات. هذه ليست مهمَّتي. أنا هنا لأوضِّح شروطنا الخاصةَ من أجل الامتناع عن إرسال رسائلك — رسائلك الشخصية إلى القيصر — إلى الصحافة الإنجليزية.»

نهض اللورد رومسي واقفًا على قدميه.

وصاح: «يا إلهي، يا رجل! هل تعرف ما تقوله؟»

أجاب الآخر: «تمامًا. لقد أخبرتُك أن مهمتي جادة. هل عليَّ المُضيُّ قُدمًا؟»

عاد الوزير للجلوس على مقعده ببطء. ومن خلف المصباح الكهربائي كان وجهُه قد ابيضَّ بشكلٍ مروِّع وهرب منه الدم. وخلال مدة التوقف القصيرة التي تلَت ذلك، بدا كأنه ينظر عبر جدرانِ الغرفة إلى فصلٍ قبيح من مستقبله. إذ رأى العناوين الرئيسية في الصحف، والمقالات الافتتاحية، وذروة النميمة والثرثرة في الأشهر القليلة الماضية، ونهاية حياته السياسية — نهايةً مُخزية وغير مشرِّفة! من المؤكد أنه لم يوضع أيُّ إنسان في مثل هذا المأزق المؤلم. إن التفاوض مع هذا الرجل يعني الخيانة. وطرده يعني العار.

تابع ضيفُه بهدوء: «ألمانيا تريد السلام. وهي ربما لم تُنجز كل ما كانت تتمنَّى إنجازه من خلال هذه الحرب، ولا تزال قويةً كما كانت دائمًا من وجهة نظر عسكرية، لكنها تريد السلام. لا أحتاج إلى قول أكثرَ من ذلك.»

هز اللورد رومسي رأسه.

وقال: «حتى لو كان لديَّ النفوذ، وهو ما ليس لدي، فإن المشكلة ليست في الحكومة على الإطلاق. إن البلد لن يقبل الأمرَ أبدًا.»

كان الرد السريع: «إذن من الأفضل أن تُغير رأي البلد، اعتبر هذا الأمرَ هو مهمتك. وتذكَّر هذا ... أنت الرجل الوحيد في العالم، وليس القيصرَ، المسئولُ عن هذه الحرب. ولولا كلماتُك الرسمية التي تعهَّدتَ فيها بأن يظل بلدك على الحياد، لما كانت ألمانيا لتفرضَ الأمر كما فعلَت. والآن عليك أن تُصلح خطيئتك. وأنا أقول لك إننا نريد السلام. قد تأتي المبادرات الأولى ظاهريًّا من خلال واشنطن، إذا جاز التعبير، لكنها يجب أن تأتيَ منك في الواقع.»

أسند الوزير ظهرَه على كرسيه. كان هدوءه هدوءًا يائسًا.

وقال ببساطة: «ربما تطلب مني أيضًا أن آمُرَ أسطولنا بالخروج من بحر الشمال.»

نهض السيد سيدني على قدميه.

ونصحه قائلًا: «أعتقد أنه من الأفضل لك أن تُحاول فِعل ما يمكنك فعلُه، يا لورد رومسي. سنمنحك القليل من الوقت. وقد نمدُّ الوقت، إذا وجدنا آثارًا لنفوذك. لديك اثنان من الزملاء، على الأقل، من دُعاة السلام. خذهما في صفك، وتحدَّث إليهما سرًّا في البداية. ازرع بذرةً صغيرةً فقط واحرص على أن تنموَ. نحن لا نتوقَّع المستحيلات، فقط ... تذكَّر ماذا سيعني لك الفشل.»

نظر اللورد رومسي بثباتٍ إلى زائره. كان السيد سيدني طويلَ القامة ونحيفًا، وبالتأكيد لم يكن هناك شيءٌ في مظهره أو لهجته يدلُّ على أنه ألماني أو أمريكي. كان صوته بلا سمة مميزة، وتحفُّظه غير طبيعي. وبعد أن تخلص الوزيرُ من مَخاوفه الفورية، أصبح مدركًا لغريزة الفضول القوي.

وسأل: «كيف يمكنني التواصلُ معك، يا سيد ... سيدني؟»

فأجاب الآخر: «لا يمكنك التواصلُ معي مطلقًا. عندما أعتقد أن الأمر يتطلَّب ذلك سآتي لمقابلتك مرة أخرى.»

«هل أنت أمريكي أم ألماني أم إنجليزي؟»

كان الرد الجاف: «أنا أختار الجنسية التي أريدها حسبما تقتضي الضرورةُ الحاليَّة. إذا كنت تشكُّ في أوراق اعتمادي، فربما يمكنني أن أحوز ثقتك بتَكرار المحادثة التي جرت بينك وبين القيصر في شُرفة القصر الإمبراطوري في بوتسدام بين الساعة الثالثة والرابعة بعد ظهر يوم السابع من أبريل. لقد أعطيت القيصر وصفًا بسيطًا لزملائك في مجلس الوزراء، وسخرت من الفكرة المجردة أن واحدًا أو اثنين منهم، بأي حالٍ من الأحوال، سيُوافق أبدًا على ...»

قاطعه الوزير بصوتٍ متحشرج: «هذا سيفي بالغرض.»

قال الآخر: «كما تشاء. أتمنى لك يومًا سعيدًا، يا سيدي. إن الأمر مطروحٌ أمامك الآن بوضوحٍ تامٍّ. دعنا قريبًا نُقيِّم تأثيرَ التغيُّر في توجهاتك.»

لمس اللورد رومسي جرسه في صمتٍ وغادر زائرُه في رصانةٍ وتهذيب. وسار مع السكرتير عبر البهو.

وقال بلطف: «هذه أيامٌ حزينة لنا جميعًا. لقد أخبرت اللورد رومسي عن بعض تجارِبي في بروكسل. فقد كنتُ قسًّا أمريكيًّا في الكنيسة الجديدة هناك عندما اندلعت الحرب. ورأيت مشاهدَ لن أنساها أبدًا، أهوال لن تُفارقني ذكراها مطلقًا.»

أومأ السكرتير متعاطفًا. وكان يحاول الانصراف مبكرًا، وبغضِّ النظر عن ذلك، فقد سمع الكثير بالفعل عن بلجيكا.

ومن ثَم قال: «هل تسمح لأحد الخدم بإحضار سيارة أجرة لك؟»

أجاب السيد سيدني: «أنا أُفضِّل السير مسافة قصيرة. أنا أشعر أني في وطني تمامًا وأنا في لندن. لقد دُعيت ذات مرة، في الواقع، للعمل كقسٍّ هنا. أتمنى لك يومًا سعيدًا، يا سيدي. لقد أجريت محادثةً جيدةً للغاية مع رئيسك، وهي محادثةٌ ستبقى مدةً طويلة في ذاكرتي.»

انحنى السكرتير لتحيته وسار السيد سيدني ببطءٍ إلى زاوية الميدان. وعند وصولِه إلى هناك، أشار إلى سيارة أجرة توقَّفَت على الفور بجانب الرصيف. وبينما يخطو لركوب السيارة، احتكَّ برفقٍ بكتف رجلٍ توقَّف لإشعال سيجارة. فتباطأ لحظةً للاعتذار.

وقال: «أستميحك عذرًا ...»

للحظةٍ واحدة بدا أنه قد فقد رِباطةَ جأشه. إذ نظر إلى الوجه البارد، غير المبالي للرجل المرتدي زيَّ ضابطٍ الذي كان يبتعد بالفعل، كما لو أنه رأى شبحًا. لكن تردُّده لم يَدُم إلا لمجرد ثوانٍ، رغم ذلك.

اختتم حديثه قائلًا: «كان تصرفًا أخرقَ مني.»

لمس الميجور طومسون قبعته لتحيته وهو يُغادر.

وقال بهدوء: «لا بأس.»

الفصل السادس

كانت الغرفة عبارةً عن مكتب يتَّسم بفخامةٍ ذكورية. حيث عُلقت على الجدران البُنية مجموعةٌ مختارة من المطبوعات الرياضية، متنوعة هنا وهناك مع نقوشٍ فِضية محفورة لنساءٍ جميلات في أوضاعٍ مختلفة. كما وُضع عددٌ كبيرٌ من الصور الفوتوغرافية، معظمها موقَّعة، فوق رف المدفأة؛ وكذلك علبة سيجار، وحقيبة بنادق صيدٍ ومسدسات رماية، وبعض أدوات صيد الأسماك، وصندوق كتب، موزَّعة بشكلٍ مناسب حول الغرفة. وهناك أيضًا بعض الجوائز الحربية معروضة بدون تفاخُر، ومنضدة كتابة جذَّابة وُضع عليها هاتف. وفوق بساطٍ أخضر سميكٍ ممتدٍّ أمام المدفأة، يرقد كلبُ صيد وهو ينظر باسترخاءٍ نحو نار المدفأة. كانت الغرفة خاليةً وساكنة، باستثناء الدقات البطيئة لساعةٍ عتيقةٍ موضوعةٍ تحت شعار النبالة المزخرف في الزاوية البعيدة. وقد انكسر طرَفُ جذعٍ من الحطب وسقط على أرضية المدفأة مُحدِثًا صريرًا. فنهض كلبُ الصيد على قدمَيه متكاسلًا، وهز نفسه ووقف ينظر في ضيقٍ إلى كسرة الحطب التي انبعث منها الدخان. ولِرضاه عن عدم وقوع أيِّ ضررٍ شخصي له، كوَّم نفسه ورقَد مرة أخرى. ومن ثَم بدَت الشقة ثانيةً وكأنها أصبحت تجسيدًا للراحة. ثم أشارت الساعة، بعد تنبيهٍ بصفير حاد، إلى السابعة. ففتح الكلب إحدى عينَيه ونظر إلى أعلى نحوَها. وبعد بضع دقائق، انكسر هدوءُ المكان بطريقةٍ مختلفة. إذ انبعث صوتُ مِفتاحٍ يوضع بشكلٍ متعجِّل في قُفل الباب الخارجي. فوقف الكلب على قدمَيْه في ترقُّب. وفُتح الباب المؤدِّي إلى الغرفة وأُغلق بسرعة. ووقف رجل، يتنفَّس بصعوبة، لحظةً على العتبة، وانحنى رأسُه قليلًا كما لو كان يستمع. وبعد ذلك، دون أن يُلقيَ نظرةً، حتى، على الكلب الذي قفز لتحيَّته، عبَر الغرفة بخطًى سريعة، وحذرة. وقبل أن يتمكن من الوصول إلى الجانب الآخر، فُتح الباب المواجه له. ونظر خادمٌ عبره مستفسرًا.

«جهِّز لي حمامي وملابسي، يا جارفيس، بسرعة!»

انصرف الرجل بسرعة، وتبعه سيِّده عن قرب. ومن مكانٍ أبعدَ داخل الشقة، سُمع صوت الماء المتدفق داخل الحمام. ومن ثَم أغلق الباب، وساد الصمت مرةً أخرى. وعاد كلب الصيد، بعد لحظات قليلة من حكِّه الباب، إلى مكانه على البِساط وكوم نفسه ليستكمل نومه.

كانت المقاطعة التالية ذاتَ طبيعة مختلفة. حيث رنَّ صوت الجرس الكهربائي من الخارج عبر الغرفة؛ ليستدعيَ في حدةٍ وإصرارٍ مَن يفتح باب الشقة. وخلال لحظةٍ أو اثنتَين ظهر الخادم من الغرفة الداخلية، وعبر الغرفة وعاد بعد قليل، وهو بصحبة زائر.

وقال موضِّحًا: «الكابتن جرانيت يستبدل ملابسه من أجل تناول العشاء في الوقت الحاضر، يا سيدي. تفضَّل بالجلوس، على أي حال، وسيخرج بعد قليل. ما الاسم الذي يجب أن أُبلغه به؟»

«الجرَّاح الميجور طومسون.»

أدار الخادم كرسيًّا مريحًا في اتجاه المدفأة ووضع بجانبه منضدةً صغيرة عليها بعض الأوراق المرسومة. وبعد ذلك، حيَّاه بانحناءةٍ بسيطة، واختفى عبر الباب الداخلي. وضع الميجور طومسون، الذي كان يتصفَّح الرسومات، الأوراق على المنضدة لحظة إغلاق الباب. وانحنى إلى الأمام، ووجهُه متوتر قليلًا. وبدا عليه الإصغاء باهتمام. وبعد غيابٍ قصير عاد الرجل.

وقال: «الكابتن جرانيت سيُقابلك في غضون لحظات قليلة، يا سيدي.»

قال الميجور طومسون راجيًا: «من فضلك أبلِغْه أن لا داعيَ للتعجُّل.»

«بكل تأكيد، يا سيدي.»

انسحب الرجل وظل طومسون والكلبُ بمفردهما مرةً أخرى. وبعد أن تقدم هذا الأخير، ببعض مبادرات الصداقة التي مرَّت دون أن يُلاحظها أحد، استأنف نومه. وجلس الميجور طومسون معتدلًا على كرسيِّه المريح، ممسكًا في يده بورقة مرسومة. بينما طوال الوقت، رغم ذلك، بدا وكأنَّ عينَيه تُفتِّشان في الغرفة. وقد تزايدت حاسة الإصغاء لديه على نحوٍ واضح؛ كما بدا عليه، حتى، علامات التفكير السريع. ومن ثَم مرَّت من خمس إلى عشر دقائق. وبعد ذلك سُمِعت أصواتٌ من الداخل وفُتح الباب فجأةً. وظهر الكابتن جرانيت وعبر الغرفة، وهو يعرج قليلًا باتجاه زائره.

وقال بسرور: «أنا آسف بشدةٍ لتأخري عليك. الحقيقة هي أنني كنت قد دخلتُ حمامي للتو.»

أجاب زائرُه: «أنا مَن يجب أن يعتذر؛ لزيارتك في مثلِ هذا الوقت.»

قال الآخر، وهو يقف أمام الدولاب الذي يحتفظ داخلَه بالسجائر ويُخرج بعضًا منها: «أنا سعيدٌ لمقابلتك، على أي حال. هلا جرَّبت واحدة من هذه؟»

«ليس الآن، شكرًا.»

ومِن ثَم ساد الصمت للحظة. وبدا الميجور طومسون غيرَ متعجلٍ لتوضيح سبب الزيارة.

قال جرانيت، وهو يُشعل سيجارةً لنفسه ببعض الصعوبة: «لقد كانت حفلة غداء مبهجة، أليس كذلك؟ إن هذه الأربطة تجعل المرء يشعر بأنه أحمق.»

أجاب الآخر: «مما يقرؤه المرء عن المعارك حول إيبر، فأنت محظوظٌ لأنك خرَجت منها سالمًا. اسمح لي أن أوضِّح، إذا جاز لي، لماذا جئت لزيارتك دون موعد.»

أومأ الكابتن جرانيت برأسه في ود. وكان قد جلس في ارتياحٍ على كرسيٍّ مريح وهو يلعب مع الكلب، الذي قفز على ركبته.

بدأ الميجور طومسون حديثه قائلًا: «لقد أجريتُ محادثةً يوم الخميس الماضي، مع مدير وحدة الشرطة العسكرية في بولونيا. وكما تعلم، بالطبع، لقد عانينا للغاية، خاصة في إيبر، من النجاح الباهر لإدارة المخابرات الألمانية. وقد أخبرني مديرُ الوحدة، وهو صديق لي، أنَّ هناك تحذيرًا خاصًّا ضد شخص يزعم أنه قسٌّ أمريكي هرَب من بلجيكا. لم يتصادف أنك سمعتَ عنه، حسبما أظن، أليس كذلك؟»

بدا الكابتن جرانيت غير واثق.

وأجاب: «لا أستطيع تذكر ذلك. لقد كانوا أذكياءَ للغاية، هؤلاء الرجال، رغم ذلك. في الليالي القليلة التي سبقَت معركتنا الصغيرة كانوا يعرفون بالضبط متى تأتي مجموعاتُ الإغاثة الخاصة بنا. وقد غيَّرنا الموعد عدةَ مرات. لكن بدون فائدة! لقد كانوا يكتشفون الأمر بالطريقة نفسِها.»

أومأ الميجور طومسون برأسه.

وتابع: «حسنًا، لقد تصادف أنْ لمحت، قبل بضع دقائق فقط، رجلًا يُشبه تمامًا الصورةَ التي عرَضها عليَّ صديقي مديرُ الوحدة، وعلى الرغم من أنني لم أكن متأكدًا من ذلك، فقد تخيلت أنه دخل هذا المبنى. وخطر لي أنه ربما يكون قد زارك.»

كرَّر متسائلًا: «زارني أنا؟»

قال طومسون موضحًا: «إنه رجلٌ مقنع للغاية، وبما أنك قد عُدت للتو من الجبهة، وأحضرتَ رسائل، فمن المحتمل جدًّا أنه يعتبرك ضحية محتملة.»

ضحك جرانيت قائلًا: «أنا لا أستطيع صنع الطوب بدون القش، ولا أعرف عن الحملة أكثرَ مما رأته عيناي. لقد كنت أقول أمسِ فقط إنه ما لم يكن لدى الجنديِّ العادي أمرٌ رسمي من قيادة الأركان، فمن المدهش مدى قلةِ ما يعرفه عن مجريات الأحداث. في واقع الأمر، على الرغم من ذلك»، تابع، وهو يَلْوي أذن كلب الصيد قليلًا: «لم يزرني أحدٌ هنا على الإطلاق باستثنائك، خلال آخر ساعةٍ أو ساعتين. والكثير من أصدقائي لا يعرفون أنني قد عدتُ بعد.»

سأل الميجور طومسون: «هل يعيش العديدُ من الأشخاص الآخرين في هذا المبنى؟»

أجاب الآخَر: «الطابَق الأرضي هنا، يخصُّ صاحب مصنع سجائر ثريًّا، ويعيش هو نفسُه في الطابق الأول. وهذا هو الطابق الثاني وبالأعلى توجد مساكنُ الخدم.» واختتم قوله بعد تفكير: «حسبما أظن لا بد أنك مخطئ بشأن دخول الرجل إلى هنا من الأساس.»

أومأ طومسون برأسه.

وقال: «محتمل جدًّا. لقد كانت مجردَ صدفة، بأي حال من الأحوال.»

استفسر جرانيت بفضول، وهو ينظر إليه بعد أن كان ينظر إلى الكلب: «بالمناسبة، كيف عرَفت أنني أسكن هنا؟»

أجاب الميجور طومسون: «تصادف أَن رأيتُك تدخل المبنى، أو ربما تخرج، قبل أيام — لا أستطيع تذكُّرَ أيِّ يوم بالتحديد.»

رنَّ الهاتف الموضوعُ على المنضدة. فعبَر جرانيت الغرفةَ ووضع السماعة على أذنه.

وقال: «هذا الكابتن جرانيت يتحدث. مَن أنت، من فضلك؟»

بدا أن الرد فاجَأه. فنظر نحو زائره.

وأجاب عبر الهاتف: «يُسعدني ذلك بالطبع. إنه حقًّا لطف منك ... نحو الساعة الثامنة والربع؟ ... بالتأكيد! ستعذرني لعدم تمكُّني من ارتداء زيٍّ مدني، أليس كذلك؟ ... شكرًا جزيلًا ... إلى اللقاء!»

وضع السماعة واستدار إلى طومسون.

وقال: «يا لها من مصادفة. يبدو أنني سأراك الليلة على العشاء. كانت هذه هي الآنسة جيرالدين كونيرز التي اتصلَت للتو — وقد سألتني إذا كنت أرغب في مقابلة شقيقها مرةً أخرى قبل أن يُغادر. إنه يقضي وقتَ ما بعد الظهر في مقر البحرية المَلكية، وهي تظن أنني قد أكون مهتمًّا.»

كان وجه الميجور طومسون خاليًا من التعبيرات، وغمغم بكلمةٍ غير مفهومة. اقترب جرانيت من خِزانة جانبية من خشب الماهوجني القاتم وتحسَّس بعض الزجاجات بأصابعه.

وقال: «اسمح لي أن أخلط لك كوكتيلًا. أُقسم لك إن ذلك الرجل كونيرز سيُصبح هدفًا لذلك القس الأمريكي الذي تسعى وراءه. إذا كان يقضي وقتَ ما بعد الظهر في مقر البحرية الملكية، فسيحصل على أحدث المعلومات حول خُطتهم في التعامل مع الغواصات. وقد سمعت أن هناك ما لا يقلُّ عن ثلاثة أو أربعة اختراعات جديدة يحتفظون بها سرًّا. أنت تحبُّ مشروبك بلا إضافات، على ما أظن؟»

نهض طومسون على قدمَيْه، ومال إلى الأمام قليلًا نحو المرآة لحظةً لتعديل ربطة عنقه. وعندما استدار، نظر إلى مجموعة الزجاجات التي يتعامل جرانيت معها.

وقال: «أنا حقًّا آسفٌ جدًّا. لم أقصد أن أُتعبك. أنا لا أشرب الكوكتيل أبدًا.»

توقَّف جرانيت عن هز الوعاء الفضي، ووضعه على الطاولة.

«هل تتناول ويسكي مع الصودا بدلًا من ذلك؟»

هز طومسون رأسه.

وقال: «إذا سمحتَ لي، فسأشرب نخبك في وقت العشاء. ليس لديَّ شك في أن الكوكتيلات الخاصة بك ممتازة، ولكن يبدو أنني لم أكتسب عادة تناول الكوكتيل أبدًا. ماذا تضع فيه؟»

قال جرانيت بلا مبالاة: «أوه! مجرد نوعين من المشروبات، وقليل من شيءٍ ما؛ لإضفاء النكهة عليه.»

لمس طومسون زجاجة سوداء صغيرة، ثم شمها ووضعها جانبًا.

وسأل: «ما هذا؟»

أجاب جرانيت: «مزيجٌ من عُشب أبسينث وبعض أعشاب بيترز من جُزر الهند الغربية. أحضرها لي رجلٌ يُسافر كثيرًا إلى الولايات المتحدة. إنه يُعطي الكوكتيل نكهة اليانكي النيويوركية الحقيقية، حسبما يقول الرجل.»

أومأ طومسون برأسه ببطء.

وقال: «إن رائحته غريبة نوعًا ما. سوف نلتقي مرةً أخرى، إذن، يا كابتن جرانيت.»

سارا نحو الباب. وفتحه جرانيت، بينما يتَّكئ على عصاه.

وقال بأدب: «مرات عديدة، بكل تأكيد.»

ومن ثَم ساد الصمت ثانيةً. كانت يده اليمنى شِبه ممدودةٍ لكن بدا أن ضيفه الذي يوشك على المغادرة لم يَلْحظ ذلك. إذ أومأ برأسه ولبس قبعته.

وقال: «إنه عالمٌ صغير، خصوصًا في الأماكن الكبيرة، على الرغم من أن هذا يبدو متناقضًا.»

ومن ثَم غادر المكان. واستمع جرانيت إلى صوتِ خُطواته المبتعدة مع عُبوسٍ على جبينه. ثم عاد ووقف لحظةً على البساط أمام المدفأة، وهو يُفكر بعمق. وراح كلب الصيد يلعب حول قدميه دون أن يُلاحظه. إذ بدا وجهه فجأةً كأنه أصبح أكبرَ سنًّا وأكثرَ تأملًا. ونظر إلى البطاقة التي تركها طومسون على الخزانة الجانبية.

وكرَّر لنفسه بهدوء: «الجرَّاح الميجور طومسون. عجبًا!»

سار طومسون ببطء حتى نهاية شارع ساكفيل، وعبَر الطريق واتجه نحو فندق ريتز. وقدَّم نفسه إلى كبير موظفي مكتب الاستقبال.

قائلًا: «أنا الجراح الميجور طومسون.»

وتابع: «لقد كنت أتناول الغداء هنا اليوم، وعالجتُ أحدَ النُّدُل الذي أُصيب بإغماء بعد ذلك. سأُصبح ممتنًّا إذا كان بإمكاني رؤيته لبضع لحظات.»

انحنى الرجل بأدب لتحيته.

وقال: «أنا أتذكرك جيدًا يا سيدي. كان نادلًا بلجيكيًّا، أليس كذلك؟ لقد أخذَته إحدى السيدات بعد ظهر اليوم.»

رد طومسون في حيرة: «ماذا؟»

قال الرجل موضحًا: «إن السيدة التي أقامت مأدبة الغداء — الليدي أنسيلمان — جاءت وقابلَت المدير منذ نحو ساعة، إنها تهتمُّ كثيرًا بمسألة اللاجئين البلجيكيين وهي تستضيف الكثيرَ منهم في منزلها بالقرب من شاطئ البحر. والرجل غير لائقٍ حقًّا للعمل؛ لذلك كنا سعداءَ حقًّا لتسليمه إليها.»

استفسر طومسون: «لقد استعاد وعيه قبل نقله، أليس كذلك؟»

«أظن ذلك، يا سيدي. ومع ذلك، بدا ضعيفًا وواهنًا للغاية. في الواقع كان لا بد من حمله إلى السيارة.»

«هل أوضح أي سببٍ لنوبته المفاجئة؟»

«ليس حسبما أعرف، يا سيدي.»

وقف طومسون لحظة يُفكر بعمق، ثم ابتعد عن المكتب.

وقال للموظف: «شكرًا جزيلًا لك. إن حالة الرجل كانت تُثير اهتمامي نوعًا ما. أعتقد أنني سأطلب من الليدي أنسيلمان السماحَ لي بزيارته. قلتَ أين يقعُ المنزل؟»

أجاب الرجل: «لم تذكر سيادتها المكانَ بالتحديد. ومع ذلك، أظن، أنه يقع بالقرب من جزيرة وايت.»

غمغم الميجور طومسون، وهو يغادر الفندق: «حيٌّ مناسب للغاية.»

الفصل السابع

سألت جيرالدين خطيبها، وهما يقفان في قاعة الاستقبال بانتظار العشاء: «إني أتساءل لماذا لا يُعجبك الكابتن جرانيت؟»

كرَّر طومسون: «لا يعجبني؟ هل أعطيتكِ هذا الانطباع حقًّا، يا جيرالدين؟»

أومأت الفتاة برأسها.

وقالت: «مع ذلك، ربما يجب ألَّا أقولَ ما أقوله الآن. أنت لست متحمسًا للناس أبدًا، أليس كذلك؟»

غيرَت إحدى ابتساماته النادرة من ملامح وجهه. ومال نحوها قليلًا.

وهمس: «لكنني متحمسٌ لواحدة منهم، يا جيرالدين.»

ابتسمت ابتسامةً صغيرة ساحرة، ولكن بعد ذلك ببرهة استعادت جدِّيتها مرةً أخرى.

وتابعَت: «لكن حقيقةً، يبدو لي أن الكابتن جرانيت هو بالفعل نموذج الشابِّ الإنجليزي الذي سيُنقذ البلاد. إنه ضابط ماهر، وذكي، ومتواضع، ورياضيٌّ رائع. لا أستطيع أن أفكر في أيِّ شيء يجعل المرءَ لا يُعجب به.»

نظر الميجور طومسون عبر القاعة. وإلى حدٍّ ما، كان الرجل الآخر الذي شعر طومسون بشكل غريزي بأنه منافس له، على الرغم من أنها منافسةٌ غير معلنة، يبدو من نوع مختلف تمامًا عن طومسون. إذ كان جرانيت مَرْكزًا لمجموعة صغيرة من الأشخاص الذين بدَوْا جميعًا مستمتعين بمحادثته. كان مفعمًا بالحماسة والبهجة، رجل جذاب، يمتلك كل المظاهر الواضحة التي تدعو الجميعَ إلى الإعجاب به. وعلى الجانب الآخر، كان طومسون، على الرغم من حُسن مظهره، وتميزه، نحيفًا جدًّا وباهتًا. كان وجهه وجهَ عالمٍ أكثرَ منه وجهَ شخص مهتمٍّ أو متشوقٍ للتألق في الجانب الاجتماعي من الحياة. كان حديثه مثله مثل أخلاقه متحفظًا، وكان مهذبًا بشكل واضح، لكنه لم يكن يتمتَّع بالطلاقة أو السحر

الطبيعي الذي كان يجعل جرانيت، حتى في تلك الدقائق القليلة، شخصيةً مرغوبة مع والدة جيرالدين وجمعٍ صغير من الضيوف الذين وصلوا للتو.

أقرَّ الميجور طومسون، مع تنهيدة خافتة: «على الأقل أنا أُقدِّر وجهة نظرك.»

ضحكت جيرالدين وهي تقول: «لا تكن مجاملًا. أريدك أن تُعجب به لأنني أجده مثيرًا للإعجاب. كما ترى، عندما يتعرف على أحدهم بشكلٍ أفضل قليلًا يبدو أنه لا يمانع في الحديث عن الحرب. أما أنتم الآخرون فلن تقولوا كلمة واحدة عمَّا رأيتموه أو عمَّا يجري هناك. أحب أن أعرف الأحداث من الأشخاص الذين رأَوها بالفعل. لقد تصادف أن حضر مبكرًا عشر دقائق هذا المساءَ وقد قدَّم لي وصفًا رائعًا للغاية لبعض المناوشات بالقرب من لا باسي.»

قال لها طومسون: «يجب أن تتذكَّري أنني شخصيًّا لا أرى، بطبيعة الحال، قدرًا كبيرًا من القتال إلا بعد أن ينتهيَ الأمر بأكمله. قد تكون بانوراما رائعةً بما يكفي عندما يكون القتال دائرًا بالفعل، ولكن لا يوجد شيء ملهِمٌ للغاية في ساحة المعركة الحديثة بعد ما يُقتل من فيها من الأحياء.»

ارتجفت جيرالدين للحظة.

وقالت: «في الواقع، كم أتمنَّى لو أنك لستَ جنديًّا، أيضًا. يبدو لي عملك مروعًا للغاية. تعالَ معي، أنت تعلم أنك ستصحبني لتناول العشاء. فكِّر في شيءٍ لطيفٍ لتقوله. أريد حقًّا أن أستمتع.»

قال بينما يجلسون في أماكنهم: «سأقدم اقتراحًا، إذن. لا أعرف ما إذا كنتِ ستجدينه ممتعًا، أم لا. لماذا لا نفعل مثل الكثير من أصدقائنا، ونتزوَّج؟»

حدَّقت إليه للحظة. ثم ضحكت بشدة.

وصاحت: «هيو، لقد فهمت نواياك! لقد أدركتُ فجأةً أن هذه هي فرصتك للهروب من مراسم الزواج وحفل الاستقبال، وما إلى ذلك من الأشياء. وأنا أعتبره اقتراحًا يفتقد الشجاعة للغاية.»

قال في إصرار: «بل إنه يروق لي حقًّا.» ثم أضاف وهو يخفض صوته قليلًا: «ربما، لأنك تبدينَ ساحرة بشكل خاص هذا المساء، أو ربما ...»

نظرَت إليه بفضول.

وتمتمَت: «استمِرَّ، من فضلك.»

فكرَّر: «أو ربما كانت رغبةَ رجلٍ في التأكد تمامًا من الشيء الذي يريده أكثر من أي شيء آخر في العالم.»

ساد الصمت لحظة. وكما لو كان من خلال غريزة غريبة تشاركا فيها، ألقَيا نظرةً خاطفة عبر المائدة إلى حيث أصبح جرانيت مَرْكزًا لثرثرةٍ ومحادثة تتَّسم بالحيوية. أشاحت جيرالدين عينيها في الحال، ونظرت إلى طبقها. كان هناك ظِلٌّ من عدم الارتياح في أسلوبها.

قالت: «تبدو جادًّا جدًّا، يا هيو.»

فأجاب: «هذا عيب في شخصيتي نوعًا ما، أليس كذلك؟ على أي حال، أنا جادٌّ للغاية.»

ساد صمت قصيرٌ آخر، تبادل خلالَه الضيفُ الجالس بجوار جيرالدين من الناحية الأخرى الحوارَ معها. فتخيل طومسون، الذي كان يراقبها عن كثب، أنها قبلَت هذا الحوار بصبرٍ نافدٍ كفرصةٍ للهرب من الرد على طلبه. وظلَّت منخرطةً في الحوار الذي أقبلَت عليه بحماسٍ حتى قاربَ العَشاءُ على الانتهاء تقريبًا.

فقال طومسون ليذكرها: «إن اقتراحي الصغير، لا يزال دون إجابة.»

فنظرت إلى طبقها.

وقالت: «لا أعتقد أنك جادٌّ بالفعل.»

أجاب: «هل أنا معتاد على الهَزْل؟ أعتقد أنني دائمًا ما أميل إلى الحديث الجاد. أنا جادٌّ بالفعل في طلبي، يا جيرالدين. هل يمكن أن نتحدَّث في هذا الأمر لاحقًا هذا المساء؟»

وافقَت ببساطة: «إذا أردتَ، لكنني أعتقد أنني أُفضل الانتظار. انظر إلى عيني أمي، تتجول حول المائدة. أعطني قفازاتي، من فضلك يا هيو. لا تكن مملًّا.»

نقل طومسون كرسيه بجوار مضيفه والد جيرالدين، الأدميرال السير سيمور كونيرز، وهو رجل عجوزٌ ثري للغاية، لديه أفكار ثابتة حول كل شيء، وسمعه ضعيف بعض الشيء، لكنه مولَعٌ جدًّا بالمحادثة. ومن ثم شرع في إلقاء محاضرة تفصيلية على زوج ابنته المرتقَبِ بشأن سوء إدارة المستشفيات الميدانية على الجبهة، وبعد الانتهاء من هذا الموضوع، فتح هجومًا واسع النطاق على البحرية الملكية. أما بقية الرجال في الحفل فقد انقسموا إلى مجموعاتٍ صغيرة. حيث جلس رالف كونيرز وجرانيت جنبًا إلى جنب، منغمسَين في المحادثة. وقد نظر طومسون نحوهما أكثرَ من مرة.

حيث قال جرانيت: «أتمنَّى لو فهمت المزيد عن أمور القوات البحرية. فأنا لا أفهم في أيِّ وظيفة ما عدا وظيفتي. ولا أستطيع أن أُدرك على الإطلاق كيف يمكنك التعاملُ مع الغواصات. إن هؤلاء الحقراء يمكن أن يظلُّوا تحت الماء ما دام يحلو لهم، ثم يَطْفون ويُظهرون رءوسهم، وإذا لم يعجبهم مظهر أي شيءٍ بالقرب منهم، فإنهم يغوصون مرةً أخرى. لا أدرك كيف يمكنك الوصولُ إليهم، بأي شكل من الأشكال.»

ابتسم البحار الشابُّ بطريقة متعالية إلى حدٍّ ما.

وقال: «ما زالت لدينا بعض الأفكار التي لم يكتشفها الألمان بعد.»

قال الأدميرال، وهو يشارك في المحادثة: «أنا شخصيًّا، أعتبر أن خطر الغواصات هو أعظم خطر يتعرض له هذا البلد حتى الآن. لا أحد سوى أمَّة من القراصنة، من قبائل الهون البربرية المنعدمة الضمير، يمكن أن تُطلق مثل هذه الحملة.»

صاح ابنه: «رأي سديد، يا أبي! إنهم جماعة من الحقراء الفاسدين، بالطبع، على الرغم من أن بعضهم قد تصرف بشكلٍ لائق إلى حدٍّ ما.» وأضاف وهو يحتسي مشروبه: «هناك شيء واحد، لا توجد مهمة في العالم أرغب في القيام بها عاجلًا أكثرَ من صيد تلك الغواصات.»

قال جرانيت بخفة دمٍ: «كل شخص حسب ذوقه. ادعمني برفاق السلاح، ومدفعيتي مثبَّتة جيدًا، واحتياطيَّاتي في مواقعها، والعدوُّ ليس محصَّنًا بقوة، وصوت قائدنا الكولونيل العجوز العزيز يصرخ «انقضُّوا عليهم يا رجال!» هذه هي فكرتي عن الحرب.»

سرَت همهمةُ تعاطفٍ بسيطة. لكن رالف كونيرز، مع ذلك، ابتسم بهدوء، بينما سيجاره في زاويةِ فمه.

وقال: «يبدو هذا جيدًا، ولكن من أجل الإثارة المطلقة أعطني صباحًا ضبابيًّا، على متن مدمِّرةٍ تسير بسرعة أربعين عُقْدة تقطع البحر إلى ماسات، وأسطحًا خالية من أجل العمل، وديك العجوز مرتديًا المعطف الواقي من المطر يؤدي التحية وهو يقول: «غواصة العدو عند مقدمة السفينة، يا سيدي».»

سأله جرانيت: «وماذا ستفعل عندئذٍ؟»

أجاب الآخر، مبتسمًا: «انظر الصفحةَ السابعة من كتيب تعليمات البحرية الملكية الذي صدَر بعد ظهر اليوم. سندمرها، أؤكد لك ذلك.»

نهض الأدميرال ودفع كرسيَّه للخلف.

وقال: «أعتقد إذا كنتم جميعًا متأكدين تمامًا من أنكم لن تشربوا المزيد من المشروب، فلنذهب إذن لنجالس السيدات.»

ومن ثَم خرجوا من الغرفة معًا. وظل طومسون قريبًا من رالف كونيرز والكابتن جرانيت، اللذين توقفا عن الحديث عن الغواصات، ولكن، شرَعا في الحديث عن آخر باليه في إمباير. واتجهت جيرالدين نحوَهم عندما دخلوا غرفة الاستقبال.

وقالت مترجية، وهي تتأبَّط ذراعه: «هيو، هل تُمانع في لعب البريدج؟ آل مولينر سيُواصلون اللعب، وأمي تفتقد مجموعة اللعب أيضًا.» ثم أضافت: «ويمكننا التحدث بعد ذلك، إذا أردت.»

نظر طومسون عبر الغرفة إلى حيث كان جرانيت يتحدث مع بعض الضيوف الآخرين. لكنه لم يرَ الشاب كونيرز في الوقت الحالي.

فوافق قائلًا: «سألعب، بكل سرورٍ يا جيرالدين، لكني أريد أن أتحدث مع رالف أولًا.»

فقالت: «إنه يتحدث عبر الهاتف. لقد اتصل به شخصٌ من مقر البحرية الملكية حول أمرٍ ما وهو يتحدث إليه. سأخبره، إذا أردت، عندما يأتي.»

وعدها طومسون قائلًا: «إذا فعلت ذلك، فأعِدُك ألَّا يستغرق حديثي معه سوى دقيقةٍ واحدة.»

جلست المجموعة الصغيرة وبدَءوا لعبتهم — الليدي كونيرز، والسير تشارلز هانكينز — وهو محامٍ مشهور — ورجل آخر وطومسون. وعثرت جيرالدين، مع أوليف مورتون وكابتن جرانيت، على أريكة في زاوية بعيدة من القاعة، وكان الثلاثةُ يتحدَّثون على ما يبدو في أمورٍ تافهةٍ بنجاحٍ كبير. ثم ظهر رالف مرةً أخرى وانضمَّ إليهم.

فقالت له جيرالدين: «هيو يريد التحدث معك.»

نظر رالف إلى طاولة البريدج الصغيرة وابتسم.

وقال، وهو يتأبط ذراعَ أوليف: «هيو يمكن أن ينتظر. هذه ليلتي الأخيرة على البرِّ ولا أحد يعلم متى سأعود إليه مرة أخرى وأنا سأصحب أوليف لأُريَها صور سفينتي سكوربيون. لقد حصلت عليها من ويلكوك العجوز بعد ظهر هذا اليوم.»

اختفى الشاب والفتاة. بينما ظلَّ الكابتن جرانيت وجيرالدين على الأريكة، يتحدثان بأصوات خافتة. وبمجرد أن عبر طومسون القاعة، حينما سمحَت له قواعد لعبة البريدج بذلك، واقترب منهما. توقفا عن محادثتِهما فجأة.

وقالت جيرالدين وهي تنظر إلى الأعلى: «لقد أخبرت رالف، أنك تريد التحدث إليه، لكنه ذهب وأوليف إلى مكانٍ ما.» ثم واصلت بفضول: «بالمناسبة يا هيو، أنت لم تُخبرني أنك زرتَ الكابتن جرانيت هذا المساء.»

أجاب مبتسمًا: «حسنًا، إنه ليس أمرًا ذا أهمية حيوية، أليس كذلك؟ إن زيارتي، على أي حال، جاءت بالصدفة.»

جاء صوتٌ عبر الجانب الآخر للقاعة: «أيها الميجور طومسون، إنه دورك في اللعب.»

عاد طومسون إلى طاولة البريدج. وانتهت مجموعة اللعب بعد بضع دقائق وانفضَّ التجمع الصغير. ونظر طومسون حوله لكن القاعة كانت خالية.

فقال: «أعتقد، إذا جاز لي، أنني سأذهب إلى البهو وأتناول كأسًا من الويسكي بالصودا. في رأيي أنني سأجد الأدميرال هناك.»

استأذن من الآخرين وشقَّ طريقه إلى الغرف المفردة في الجزء الخلفي من المنزل. ونظر أولًا في الجناح الصغير الذي يخص جيرالدين، لكنه وجده خاليًا. ومر على قاعة التدخين فوجد الشباب الأربعةَ متجمعين حول الطاولة.

وكانوا مستغرقين فيما يفعلونه لدرجة أنهم لم يُلاحظوا دخوله. إذ يبدو أن رالف، مع ورقة مبسوطةٍ أمامه وقلم رصاص في يده، كان يرسم شيئًا ما. وكان بجواره جرانيت. بينما شبكت الفتاتان ذراعَيهما، وهما تُشاهدان باهتمام.

قال رالف كونيرز موضحًا، بينما يتراجع للخلف للحظةٍ لإلقاء نظرةٍ على نتيجة عمله: «هذا المخطَّط، إذا نُفِّذ بشكلٍ صحيح، يمكن أن يحافظ على مسار قناةٍ مثل فولكستون إلى بولونيا، على سبيل المثال، آمنًا تمامًا. تلك العلامات السوداء هي عوامات، والشباك ...»

قاطعه طومسون من الخلفية: «لحظةً واحدة، يا رالف.»

انتفضوا جميعًا وأداروا رءوسهم. فاقترب طومسون خطوةً ووضع يده على الورقة. كانت هناك نظرةٌ غريبةٌ على وجهه وقد بدَأَت جيرالدين تُميزها.

وقال: «رالف، يا صديقي القديم، أنت لا تظنني متطفلًا، أليس كذلك؟ أعتقد أنك يجب ألَّا تشرح هذا المخطط وترسمه حتى لأعزِّ صديق لك، أو للفتاة التي ستتزوجها، أو لي، أو لأمك، وأنا لو كنت مكانك لما أكملته أبدًا.»

حدَّقوا فيه جميعًا. وكان وجه جرانيت خاليًا من التعبير، بينما ارتبكت الفتاتان، وعبَس وجهُ رالف.

وقال معترضًا: «اللعنة، يا هيو، تحلَّ ببعض الإدراك والمنطق. هاك زميلًا مثل جرانيت، ضابط متحمِّس وواحد من أفضل الضباط، يفعل كل ما في وُسعِه من أجلنا على الأرض ولكنه قلِقٌ بعض الشيء بشأن خطر الغواصات علينا. لماذا لا أحاول طمْأنتَه، ها؟ ... دعه يُدرك أن لدينا بعضَ الأشياء الصغيرة في جعبتنا؟»

وافق طومسون على ذلك قائلًا: «يبدو هذا جيدًا، يا رالف، لكنك تخالف مبدأً متفَقًا عليه، ولم أكن لأفعلَ ذلك. إنها ليست مخاطرة شخصية تتعرَّض لها وحدك، أو سرًّا شخصيًّا تشاركه مع الآخرين. قد يبدو الأمر سخيفًا في ظل الظروف الحاليَّة، أعلم ذلك، ولكن ...»

ضحك جرانيت بخفة. وربت على كتف البحار الشاب.

وقال: «ربما كان طومسون على حق، يا كونيرز. احتفظ بمخطَّطك القديم في ذهنك. سنعرف كل شيء عنه عندما يُكتَب تاريخ الحرب. هناك دائمًا احتمال واحد في الألف، كما تعلم. فربما أُصابُ بحُمى دماغية في مستشفًى ألماني وأبدأ بالثرثرة. فمزِّقها، أيها الصديق القديم.»

ساد الصمتُ لحظة. ثم التفتت جيرالدين إلى طومسون.

وقالت محتجَّة: «هيو، ألا تعتقد أنك تحافظ على المبادئ بطريقة مبالغٍ فيها؟ إنه أمرٌ مثيرٌ للخوف للغاية بالنسبة إلينا عندما يكون رالف في البحر، وننتظر يومًا بعد يوم أخبارًا منه، لنفهم قليلًا ما يفعله.»

تذمرت أوليف قائلةً: «أعتقد أنك مصدر إزعاج مروع، أيها الميجور طومسون. لقد وصلنا للتو إلى الجزء المثير.»

قال طومسون: «أنا آسف، لكنني أعتقد، يا رالف، أن من الأفضل لك فِعلَ ما اقترحه الكابتن جرانيت.»

هز الشاب كتفَيه، وكان وجهه متجهمًا بعض الشيء. ثم أخذ المخطط ومزَّقه إلى قطع صغيرة.

وصاح: «إذا لم تكن صِهري المحتمل، كما تعلم، يا طومسون، كنت سأعتبر تدخُّلك وقاحةً لعينة! وفي نهاية الأمر، كما تعلم، أنت مجرد رجل مدني، ولا يُتوقَّع منك فَهْم هذه الأمور.»

ظل طومسون صامتًا للحظة. وقرأ في وجوه الآخرين تعاطفَهم مع شكوى البحَّار الشاب. فتحرَّك نحو الباب.

وقال ببساطة: «أنا آسف. طابت ليلتكم، جميعًا!»

تمنَّوْا له جميعًا ليلة سعيدة ... ولم يتحرَّك أحدٌ منهم. مشى متباطئًا إلى القاعة الأمامية، وانتظر لحظة ثم أخذ معطفه وقُبَّعته من الخادم المختص بتلقِّيهم عند الدخول. ولوحت له الليدي كونيرز من أعلى السلم.

وسألتْه: «أين جيرالدين؟»

التفت طومسون كي يُغادر.

وقال: «إنهم جميعًا في قاعة التدخين، يا ليدي كونيرز. طابت ليلتك!»

الفصل الثامن

بطريقةٍ ما، كانت مقابلتهما في صباح اليوم التالي مصادَفةً، ومع ذلك كانت لها أيضًا أهميتها لكِليهما. كانت التحية التي ألقَتْها جيرالدين تحيةً رسمية متحفظة تقريبًا.

فسألها الكابتن جرانيت، وهو ينظر إليها مع رفع الحاجبَين بطريقةٍ مرحة: «أنت لن توبخيني بسبب ذاكرتي، أليس كذلك؟ يجب أن أُمارس الرياضة، كما تعلمين.»

ردَّت جيرالدين: «أنا حتى لا أتذكر إخبارك بأني آتي إلى الحديقة كلَّ صباح.»

قال: «أنت لم تفعلي — وهذا يعني أنكِ لم تذكري الحديقة على وجه التحديد. لقد أخبرتِني أنكِ دائمًا ما تأخذين هذه الكلاب الخمسة في نزهةٍ بعد الإفطار مباشرة، وبالنسبة للباقي فقد استخدمتُ ذكائي.»

قالت: «ربما كنتُ أذهب إلى ريجنت بارك أو سانت جيمس بارك.»

قال: «في تلك الحالة، كنت سأسير ذَهابًا وإيابًا حتى أكتفي، ثم أغادر في حالةٍ مزاجيةٍ سيئة.»

ضحكت قائلة: «لا تكن أحمقَ. أرفض تمامًا تصديق أنك جئت إلى هنا من أجلي. هل تُمانع إذا قلتُ إنني أُفضل عدم تصديق ذلك؟»

فتقبل التأنيب بروحٍ طيبة.

وقال: «حسنًا، بما أننا قد التقينا بالفعل، هل يمكنني أن أتنزَّه معكِ قليلًا؟» وتابع قائلًا: «كما ترين، إنه أمر مملٌّ أن يتجولَ المرء هنا بمفرده.»

وافقَت، وهي تنظر بتعاطف إلى عصاه وتقول: «بالطبع يمكنك، إذا أردت. كيف حال ساقك الآن؟»

«إنها أفضل — تتعافى بشكل جيد. بالنسبة إلى ساقي، أعتقد أنني سأصبح لائقًا للعودة إلى عملي مرةً أخرى في غضون عَشَرة أيام. إنها ذراعي التي أنا منزعج بشأنها

قليلًا. قال الطبيب: إن أحد الأعصاب قد تلف. أستطيع رفعها بصعوبة.» وتابع: «ليس لديكِ أي فكرة، كيف تتعارض ساقٌ مجبورة وذراع معلَّقة مع الاحتياجات البسيطة في الحياة اليومية للفرد. لا أستطيع ركوب الخيل، ولا أستطيع لعب الجولف أو البلياردو»، وختم كلامه بتنهيدةٍ قائلًا: «وبالنسبة إلى شخصٍ غير ذكيٍّ مثلي لا توجد طرقٌ أخرى كثيرة لتمضية الوقت.»

احتجَّت قائلة: «لماذا تقول إنك غير ذكي؟ لم يكن من الممكن أن تنجح في العسكرية لو أنك كذلك.»

فقال: «أوه! أنا أعرف كل الأمور العسكرية، بمعنًى آخر، أعرف وظيفتي جيدًا، وبالطبع أنا جيدٌ إلى حدٍّ ما في اللغات، لكن هذه هي كل مهاراتي. ليس لدي أيُّ ذكاء مثل صديقك طومسون، على سبيل المثال.»

قالت ببرود قليلًا: «الميجور طومسون ذكي للغاية، على ما أعتقد.»

أضاف جرانيت مع تجهُّم طفيف: «وميال لفرض رقابته قليلًا، مع الأسف. أفترض أنه يظنُّني شخصًا ثرثارًا، لكنني لا أستطيع أن أفهم حقًّا سبب انتقاده لأخيكِ في الليلة الماضية لمجرد أنه كان يُرضي فضولًا معقولًا للغاية من جانبي. ليس الأمر كما لو أنني لستُ ضابطًا. فالجيش والبحرية هما الشيء نفسُه، بأي حال من الأحوال، ويسعدنا دائمًا أن نُعطي أحدَ أفراد البحرية معلومة حول كيفية تقدمنا.»

وافقت على ذلك قائلة: «لم أستطع حقًّا فَهْم الميجور طومسون أنا نفسي.»

فقال: «هل لي أن أسأل — إن كنتِ لا تُمانعين؟ هل أنت مخطوبة له منذ مدة طويلة؟»

نظرَت بعيدًا للحظة. وأبْدَت نبرتُها، عندما أجابت، بعضَ الانزعاج الطفيف من السؤال. «نحو ثلاثة أشهر.»

ركل الكابتن جرانيت حَصاةً بعيدًا عن المسار أمامه بقدمه السليمة.

وقال بنبرةٍ محسوبة: «لا بد أنه جرَّاحٌ بارعٌ حسبما أظن. ويبدو أيضًا أن أعصابه فولاذية، ويتميَّز بمهارات الجراحين. لأقول لكِ الحقيقة، رغم ذلك، إنه يُخيفني نوعًا ما. لا أعتقد أن لديه الكثير من التعاطف مع شخصٍ من نوعي.»

أصبحت أكثر تساهلًا وابتسمَت ابتسامة طفيفة وهي تنظر إليه.

وسألت بتأمل: «أتساءل ما هو نوعك؟»

قال معترفًا، مع تنهيدة: «واضحٌ للغاية، مع الأسف. فأنا أحب وظيفتي العسكرية في الجيش، بالطبع، وأخجل من التفكير في مدى حرصي السابق على اللعب، وكنت سأظل

كذلك إذا سنحَت لي الفرصة. بخلاف ذلك، أنا لا أقرأ كثيرًا، ولا أهوى الموسيقى، ولا أشغل نفسي بما سيحدث في المستقبل. وهناك الآلافُ مثلي». وتابع بتفكيرٍ عميق: «نحن لا نُلحق أي ضرر بالعالم، ولكني لا أفترض أننا نفعل الكثير من الأشياء الجيدة.»

احتجَّت قائلة: «لا تكن سخيفًا. لسبب واحد، إنه لأمرٌ رائع أنك جندي متميز. أنت بالضبط ما يحتاج إليه البلد اليوم. لكن بصرف النظر عن ذلك أنا متأكدة تمامًا من أنك شخص ذكي.»

غمغم قائلًا: «حقًّا؟ ربما كان ما أفتقده هو الحافز.»

ظلا صامتَين لبضع لحظات. ثم شرعا في التحدث بخفَّةٍ أكثر. حيث تحدثا عن الكلاب والخيول، وعن أصدقائهما المشتركين، وارتباطاتهما في الأيام القليلة المقبلة. ولم يذكرا طومسون ولو مرةً واحدة. ثم توقفت جيرالدين للتحدث إلى بعض الأصدقاء. ومال جرانيت على عصاه في الخلفية وهو يراقبها. كانت ترتدي تاييرًا مفصَّلًا حسب الطلب، وقبعة صغيرة، تهدَّلَت من تحتها خصلات صغيرة من الشعر الذهبي وانفصلَت بطريقةٍ غير مرتبة لكنها جذابة. وكسا خدَّيها لونٌ وردي رقيق، وكانت حركات وخطوط جسدها كلها حرة ورشيقةً بشكل رائع. وبينما كانت تتحدث إلى أصدقائها، بدَت عيناها وكأنهما قد فقدتا جديتهما. كان شبابها قد أعاد تأكيدَ نفسه — شبابها وصحتها البدنية الرائعة. أخذ يُراقبها بحماس، وبدا بعضُ الظل وكأنه يمرُّ من فوق وجهه — ظِلُّ معاناته أو ألمه. بدا هو، أيضًا، كما لو أنه أصبح أصغرَ سنًّا. أبسط وأروع فرحة في الحياة كانت تُثير إعجابه. وأخيرًا ودعت صديقاتها وأتت تبتسم له.

وصاحت: «أنا آسفة للغاية لأنني استبقيتُك كلَّ هذا الوقت! لقد أخبرتني الليدي آن بالوقت للتو ففوجئت. فقد قصدت السَّير هنا لمدة ساعةٍ ونحن هنا منذ ساعتَيْن. أَوْقِف هذه السيارة الأجرة من أجلي، إذا سمحت. ليس لديَّ وقتٌ حتى للسير عائدة إلى المنزل.»

أركَبَها السيارة الأجرة ثم أطلق صفيرًا للكلاب، التي سارعت جميعًا وراءها.

قال بسرور، وهما يتصافحان: «شكرًا جزيلًا لرعاية شخصٍ عاجز يعرج. يجب ألَّا تتذمري من الوقت. فأنت تقومين بواجبكِ تجاه البلد، كما تعلمين.»

وقد تجنَّب بلباقةٍ أي ذكر لمقابلة تجمعهما مستقبلًا، وكافَأتْه هي بتحيةٍ صغيرة من يدها عبر نافذة السيارة. ثم غادر هو نفسُه الحديقةَ في الوقت ذاتِه، وتمشَّى عبر بيكاديللي حتى شارع ساكفيل وصعد إلى شقته. فتقدَّم خادمُه من الغرفة الداخلية لمقابلته، وأخذ قبعته وعصاه.

«هل من رسائل هاتفية، يا جارفيس؟»

«لا شيء يا سيدي.»

تحرك جرانيت نحو الكرسي المريح. لكنه توقَّف قبل أن يصل إليه. إذ كان باب إحدى الخزائن في الدولاب الجانبيِّ نصفَ مفتوح. فقطب جبينه.

وسأل باقتضابٍ قليلًا: «ألم أخبرك، يا جارفيس، أنني أريد أن تظل تلك الخزائنُ مغلقة؟»

حدق الرجل في الدولاب باندهاش.

وقال: «أنا آسفٌ جدًّا يا سيدي. أعتقد بالتأكيد أنني قد أغلقته الليلة الماضية.»

وفتحها جرانيت على مِصراعَيها ونظر إلى الداخل. كانت نظرته الأولى غير مبالية بما فيه الكفاية، ثم تغير تعبيره. إذ حدق وهو غير مصدقٍ في مجموعةٍ صغيرةٍ من الزجاجات واستدار بسرعة.

«هل نقلت أيَّ شيءٍ من هنا؟»

جاءه الرد السريع: «كلا بالتأكيد، يا سيدي.»

أغلق جرانيت الخِزانة ببطء. ثم سار إلى النافذة للحظة، ويداه خلف ظهره.

وسأل: «هل جاء أي شخص إلى هنا هذا الصباح، يا جارفيس؟»

«رجلٌ من أجل الغسيل، يا سيدي، وشخص ليختبر المصابيح الكهربائية.»

«هل تركتَ أيًّا منهما وحده في الغرفة على الإطلاق؟»

«لقد ظل رجل المصابيح هنا لبضع دقائق، يا سيدي.»

تبادل السيد والخادم نظراتٍ سريعة. وبدا الأخير شاحبًا ومتوترًا.

وسأل: «هل هناك شيءٌ مفقود يا سيدي؟»

رد جرانيت: «أجل! هل لاحظتَ السيد الذي زارنا مساء أمس ... الجراح الميجور طومسون؟»

«أجل، يا سيدي!»

«ألم ترَه منذ ذلك الحين؟ ألم يأتِ إلى هنا؟»

«بلى، يا سيدي!»

وقف جرانيت، للحظة، وهو يُفكر. بينما ظل الخادم بلا حَراك. كان الصمت في الغرفة يُنذِر بالسوء؛ وكذلك، أيضًا، كانت نظرة القلق الغريبة في وجهَي الرجلين.

وفي النهاية قال سيده: «يا جارفيس، تذكر هذا. أنا لا أتصيد الأخطاء. وأنا أعلم أنك حريصٌ بشكل دائم. ولكن بدءًا من هذه الليلة كن يقظًا أكثر من أيِّ وقت مضى. هناك لاعب جديد في اللعبة. ربما هو لم يشكَّ فينا بعدُ لكنه سيفعل. هل تفهم، يا جارفيس؟»

«بكل وضوح، يا سيدي.»

انسحب الرجل بهدوء. وسار جرانيت مرةً أخرى إلى النافذة. ونظر نحو المارة بالأسفل بضع دقائق لكنه لم يرَ شيئًا. وراحت أفكارٌ تُنذر بالخطر تتجمَّع في ذهنه. كان يسير على طول طريق الرعب، وفي نهايته وقف رجل ينتظر. لقد رأى نفسه يقترب أكثر فأكثرَ من المقابلة ويكاد اسمه ينطلق عبر شفتيه، اسم الرجل الذي يكرهه.

الفصل التاسع

بالنظر إلى حالة الازدحام في غرفة الانتظار وعدد الأشخاص المهمين للغاية الذين كانوا هناك للغرض نفسِه، بدا أن الجراح الميجور طومسون يواجه صعوبةً بسيطة للغاية في إجراء المقابلة التي يرغب فيها. ولكن أرشدَه صبيٌّ كشافة إلى غرفة في الطابق الثاني من مكتب الحرب، في غضونِ بضع دقائق من وصوله. وبمجرد إغلاق الباب، رفع رجلٌ طويل، ذو شعر رمادي يرتدي زي جنرال، نظرَه إلى أعلى، وأومأ إليه بشكل ودِّي.

«اجلس يا طومسون. لقد كنا نتوقع حضورك. هل لديك أخبار جديدة؟»

فأجاب الآخر: «لقد جئت إليك من أجل ذلك، يا سيدي.»

تنهَّد الجنرال.

وقال: «أخشى أن تُصاب بخيبة أمل. لقد تلقيت تقريرك وذهبت بنفسي إلى مسئولٍ معين — وقابلته في منزله قبل الإفطار هذا الصباح. وتلقَّيت تقاريرَ عن ثلاثة رجال آخرين يَشغَلون مناصبَ مسئولة في المدينة، يا طومسون، وكان هناك دليلٌ ملموسٌ وخطيرٌ ضدهم. إن لدى صديقنا الوقاحةَ لدرجة أنه كاد يسخر مني.»

ظهر بريقٌ طفيفٌ في عينَي طومسون.

وتمتم: «يا لهؤلاء المدنيِّين الملاعين! لقد بذلوا قصارى جهدهم لتدمير بريطانيا العُظمى من خلال إفساد كل نوع من أنواع الخدمة الوطنية خلال السنوات العشر الماضية. إنهم يُطعمون ويُدللون الحشرات التي تنخر أسس البلد، اللعنة عليهم، عندما نعرض عليهم قضيةً واضحة، وعندما نكشف لهم رجالًا نعرف أنهم خَطِرون، فإنهم يسخرون منا ويُخبروننا أن هذا ليس تخصُّصَنا! إنهم ينظرون إلينا على أننا هُواةٌ ويتحدثون عن سكوتلاند يارد بكل حماس. يا إلهي! إذا منحوني حرية التصرف مدةَ عشر دقائق، فسألقي القبض على وزيرَيْن وأُلقيهما في السجن؛ ليأكلا الخبز والماء بدلًا من عَشائهما الليلة.»

رفع الجنرال حاجبيه. لقد كان يعرف طومسون جيدًا بما يكفي ليُدرك مدى غرابة هذا الاندفاع في الشعور من جانبه.

وعلَّق قائلًا: «لقد أفرطتَ في انفعالك بعض الشيء، يا ميجور.»

رد الآخر: «أليس هذا كافيًا لجعل الدماء تغلي في عروق أي رجل؟ إن البلاد تتطلَّع اليوم إلى جيشها وقواتها البحرية؛ لإنقاذها من الإذلال الذي شجعتْه هذه الطفيليات السوداء، ومع ذلك حتى الآن فإن أيديَنا لا تزال مغلولة. أنت وأنا، اللَّذان نُدير المخابرات في الجيش، نُدين رجالًا معيَّنين، بموجب أدلة دامغة، كجواسيس، ومع ذلك نواجَه بالسخرية منا! واحد من هؤلاء البلهاء بشكلٍ صارخ الذين كلَّف تخبطُهم البلادَ الملايينَ من المال وآلاف الرجال الشجعان، لا يزال لديه ما يكفي من السلطة للتعامل مع تقاريرنا على أنها مَضْيعةٌ للأوراق التي كُتبت عليها.»

قال الجنرال، بطريقة بها بعضُ اليأس: «لا بد لي من القول إنني أتفق معك، يا طومسون. إنها أضعفُ نقطة في منظمتنا بأكملها، الاعتماد على السلطات المدنية. إن اثنتَين من قضاياي كانتا دامغتَين للغاية. وبالنسبة إلى قضيتك، يا طومسون، أرى أنه ينبغي لنا أن نحصل على المزيد من الأدلة قبل أن نُصعِّد الأمر.»

رد طومسون بمرارة: «وفي غضون ذلك، أتركُ له الحرية لفعل كل الأذى الذي يمكن أن يفعله. إنه لولا المصادفةُ البحتة، لكان قد علم في الليلة قبل الماضية مخططَنا الجديد للحفاظ على مجرى القناة خاليًا من الغواصات.»

عبس الجنرال.

وسأل في حدة: «من الذي كان يتحدَّث؟»

أجاب طومسون: «ليس شخصًا يجبُ لومُه. ألا يمكنك أن تدرك الموقف؟ هناك زميل سلاح في الجيش، جندي، حاصل على وسام الخدمة المتميزة، وُصف بالشجاعة والإقدام ويكاد يحصل على وسام فيكتوريا كروس، جاء إلى هنا مع هالةٍ رائعة من الهروب الرائع من الألمان، بعد أن أصيب في المعركة، وهو شابٌّ من عائلة جيدة ومتحمس للغاية من أجل العودة مرةً أخرى إلى خط القتال. يا إلهي! لقد كاد أكثرُ البحارة حذرًا في العالم أن يُقدم معلومات إلى هذا النوع من الرجال. ما كاد يحدثُ الليلةَ الماضية قد يحدث عشر مرات خلال الأسبوع المقبل. حتى سِرنا الكبير، أيها الجنرال»، تابع طومسون، وهو يخفض صوته قليلًا: «حتى هذا قد يصل إلى أذنيه.»

أصبح الجنرال منزعجًا بلا شك. وأخذ يُفتش بين الأوراق الموجودة على مكتبه، وأخرج أخيرًا نصف ورقة واهية من الأوراق التي درسها بعناية.

«فقط اقرأ هذه، يا طومسون.»

نهض طومسون ونظر من فوق كتفه. كانت الرسالة مكتوبةً بخط اليد ومن بضعة أسطر فقط، ومرسَلةً من قرية في شمال فرنسا ...

عزيزي برايس

هذا رجاء خاص أتوجه به إليك. رتِّب الأمر بالطريقة التي تريدها، ولكن لا تُرسل لي الكابتن جرانيت مرة أخرى بأي صفة. أبقِه في الوطن. وتذكر، أنا لا أنتقده كجندي. فقد قام ببعض الأعمال الرائعة في أكثرَ من مناسبة، لكن على الرغم من ذلك أنا لا أرغب في رؤيته مرةً أخرى مع أيٍّ من القوات تحت إمرتي.

المخلص دائمًا،

إف

سأل طومسون: «هل عرضتَ هذه على صديقنا؟»

أجاب الجنرال: «لقد أعطيتُه ملخصًا لمحتوياتها. فابتسم بطريقة متعجرفة، وقال إنه من الأفضل أن أفعل ما طلب مني.»

لم يقل طومسون شيئًا للحظة. وظل وجهه ثابتًا وبدا عليه الغضب اليائس، ولكن الهادئ.

تابع الجنرال برايس، وهو يُلقي نظرة خاطفة على الساعة فوق مكتبه: «في واقع الأمر، إن جرانيت في غرفة انتظاري في الوقت الحالي، حسبما أتوقع. لقد طلَب مقابلة بعد ظهر اليوم.»

قال الآخر: «دعه يدخل، إذا كنتَ لا تُمانع. يمكنني الجلوس على المكتب الخالي هناك. يمكننا القول إني أُجري بعض الحسابات ذات الصلة بعدد أسرَّة المستشفيات لكل عملية نقل. فأنا أريد أن أسمعه يتحدث معك.»

أومأ الجنرال برأسه ولمس الجرس.

وقال لفتى الكشافة الذي أجاب الاستدعاء: «يمكنك دعوةُ الكابتن جرانيت للدخول.»

أخذ طومسون مكانه في الزاوية البعيدة من الغرفة، وانحنى على حُزمة من الأوراق. وسرعان ما سمح لجرانيت بالدخول. كان يميل بدرجةٍ أقل على عصاه وقد أخرج ذراعَه من الحمالة للحظة. ومن ثَم حيَّا الجنرال باحترام ونظر عبر الغرفة إلى حيث جلس طومسون ليَعمل. وإذا كان قد تعرف عليه، فهو رغم ذلك، لم يُبدِ أي إشارة.

فسأله الجنرال: «حسنًا، يا جرانيت، كيف تجري مرحلة تعافيك؟»

كان الرد السريع: «على نحوٍ رائع، يا سيدي. لقد قابلت طبيبي هذا الصباح وهو يعتقد أنني أستطيع أن أَمثُل أمام المجلس يوم السبت.»

«وماذا يعني ذلك؟»

أجاب جرانيت بلهفة: «أريد أن أعود للجبهة مرةً أخرى، يا سيدي.»

لمس الجنرال شاربه الرمادي ونظر بتمعُّن إلى الضابط الشاب. كان يقف بكامل هيئته في ضوء شعاع الشمس الذي يتدفَّق عبر النوافذ العالية، غير المغطَّاة بستائر. على الرغم من أنه كان لا يزال مجهدًا بعضَ الشيء، إلا أن عينَيْه لامعتان، وشفَتَيْه منفرجتان بابتسامة طموحة، وكانت تعابيره كلُّها جذَّابة. فشعر الجنرال برايس، الذي تفحصه عن كثب، بأنه مضطرٌّ إلى الاعتراف بعدم احتمالية شكوكه الغامضة.

وذكَّره بهدوء: «هذا جيد للغاية، كما تعلم، لكنك لن تصبح لائقًا بما يكفي للخدمة النشطة بعضَ الوقت مستقبلًا.»

فتجهَّم وجه الشاب.

وقال بسذاجة: «أنا متأكد من أنهم يريدونني أن أعود للجبهة، يا سيدي.»

هز الجنرال رأسه.

وتابع: «لا أريد أن أُخيِّب ظنك، أيها الشاب، لكن لقد وصلتني رسالة من قائدك العميد أمس فقط. حيث اضطُرَّ إلى تعيين شخص آخرَ في مكانك ولا أعتقد أن لديه مكانًا لأي شخص في فريقه.»

بدا جرانيت متألمًا بعض الشيء.

وقال في حزن: «ظننتُ أنه ربما أجرى تعيينًا مؤقتًا.»

قال الجنرال بحدَّة: «هذا ليس الوقت المناسب لوضع الأفراد نُصب أعيننا. ماذا عن إيجاد تسكين لك في الوطن لبعض الوقت، ها؟ لقد رأيتَ بالفعل بعضًا من الجانب القاسي للحرب، كما تعلم.»

«سأخرج عاجلًا وأحفر الخنادق!»

نهض طومسون ببطءٍ من مكانه، ومعه ورقة كبيرة في يده، مغطاة بالكتابة، وعبر الغرفة.

وقال بلهجة جافة: «قد تُسجَن مرة أخرى، يا كابتن جرانيت.»

سادت لحظة صمت متوترةٌ إلى حدٍّ ما. حيث زمَّ الشاب شفتيه، ولمعت عيناه.

وقال بهدوء: «لم أتعرَّف عليك، أيها الميجور طومسون. هل وجدت تسكينًا جديدًا؟»

أجاب الآخر وهو يضع حساباته على مكتب الجنرال: «إن التسكين القديم الخاصَّ بي يَشغلني بشكل كافٍ في الوقت الحاضر. اعذرني لمقاطعتك يا سيدي، لكنك طلبت مني تقديم هذا التقرير بمجرد انتهائي. هذا هو تقديري لعدد الأسرَّة التي يمكننا تخزينها في الأقدام المكعبة التي تُقدمها لنا.»

نظر الجنرال إلى الورقة وأومأ.

وقال: «لا تغادر يا طومسون. سأتحدث إليك عن هذا لاحقًا.» وأضاف: «حسنًا، يا كابتن جرانيت، من الأفضل أن تترك الأمر بين يدي. سأبذل قُصارى جهدي من أجلك.»

قال الشاب ببساطة: «سأُصاب بخيبة أمل كبيرة إذا لم أخرج إلى الجبهة مرة أخرى قريبًا، يا سيدي.»

كرر الجنرال، وهو يلمس جرسه: «سأبذل قصارى جهدي.»

أُرشد جرانيت إلى طريق الخروج وأُغلق الباب. فاستدار الجنرال برايس نحو رفيقه.

وقال: «بصراحة، يا طومسون، لا أستطيع تصديق الأمر. ومع ذلك، سنجد له تسكينًا حيث لا يمكن أن يفعل أي ضرر.»

قال الجراح الميجور طومسون بمرارة: «إذا وجدت له تسكينًا حيث أضعه تحت عيني، فلن يفعل أيَّ ضرر آخر في هذا العالم! هل هناك أي إرسالات من الجبهة، يا سيدي؟»

رفع الجنرال برايس حاجبَيه.

وسأل: «هل ستغادر مرةً أخرى؟»

أجاب طومسون: «سأقابل الجنرال قائدَ ذلك الشاب. سأغادر اليوم وأعود مساء غدٍ أو صباحَ السبت.»

أومأ الجنرال برايس برأسه وهو يفكر.

وقال موافقًا: «ربما أنت على حق. أجل، سيكون لديَّ بعضُ التقارير. من الأفضل أن تُخبرهم في مقر البحرية الملكية، وتحدِّد الوقت الذي تريد الذَّهاب فيه.»

صافح الجرَّاح الميجور طومسون يدَ الجنرال واستدار نحو الباب.

وقال: «عندما أعود، آمُل أن أصبح قادرًا على إقناعك، يا سيدي.»

الفصل العاشر

استيقظ الجراح الميجور طومسون بعد نحو اثنتَي عشرة ساعة منتفضًا. إذ نام نومًا عميقًا لدرجة أنه لم يتمكَّن في البداية من تذكُّرِ مكان وجوده. وتحرك عقله ببطء عبر البانوراما القصيرة لرحلته السريعة — القطار الخاص من فيكتوريا إلى فولكستون؛ والمدمِّرة التي جلَبتْه مع عدد قليل من الجنود الآخرين عبر القناة، في الظلام الحالك، بسرعةٍ جعلت الصعودَ على السطح مستحيلًا؛ الهبوط في بولونيا، وهي خليةُ عمل على الرغم من الظلام؛ قعقعة العربات، وصفير القاطرات، وتصادم الحشود، مع وميض مِصباح كهربائي من حينٍ لآخر. ثم الركوب في السيارة الكبيرة خلال الليل الضبابي. فرك عينَيه ونظر حوله. بدأ صباحٌ رمادي ينبلج. وتوقفَت السيارة أمام بوابة بيضاء، تمركز أمامها جنديٌّ بريطاني، شاهرًا سونكي البندقية. فاستجمع الجراح الميجور طومسون نفسه وأجاب على التحدي.

حيث قال: «صديق ... الجراح الميجور طومسون، في خدمة جلالته.»

ثم مال من السيارة للحظة وهو يُمسك بشيء في راحة يده. فأدَّى الرجل التحية وتراجع. ومِن ثَم سارت السيارة على طريق وعرة تؤدي إلى مساحةٍ شاسعة من المراعي. وعلى سفوح التلال على يمينه، كانت مجموعاتٌ صغيرة من الرجال يعملون على تفكيك المدافع. وقد مرَّت قذيفة، مرةً أو مرتين، مع صوت صرير، غريب، مثل نفخةٍ صغيرة من الدخان الأبيض، عاليًا فوق السيارة وسقطت في مكانٍ ما في الوادي الرمادي بالأسفل. واستطاع أن يرى من بعيدٍ تحركات مجموعة من القوات عبر الأشجار، والجنود في طريقهم لإراحة رفاقهم في الخنادق. وبينما ينبلج الصباح، ظهرت الخنادق نفسها — كخطوط طويلة متعرجة، صامتة، وبدون أي علامة على الرجال الذين زحفوا إلى الداخل مثل النمل. كما مر بمصنع مشروبات كبير تحول إلى مقصف، حيث يمر عبره خطٌّ من العربات، ذَهابًا

وإيابًا، طوال الوقت إلى الوادي. وبين الحين والآخر من خلال السكون يأتي صوتٌ حاد لبندقية من القناصين الرابضين في مساحات صغيرة من الغابات والمستنقعات على اليمين. كما أتت حافلةٌ كبيرة، لا تزال اللافتات الإعلانية معروضةً عليها، ولكن وُضِعت فوقها علامة صليب أحمر كبير، تتأرجح على الطريق في طريقها إلى المستشفى الميداني البعيد. وحتى الآن، رغم ذلك، يبدو أن المعارك القتالية لم تبدأ بعد.

مرُّوا بعدة منازل ومزارع صغيرة، تمركز أمام كلٍّ منها حارس. وفجأة، من فوق التلال في الخلف، حلقت طائرة كبيرة بيضاء الجَناحين فوق رأسه في طريقها لعمل استطلاع. وكان أغرب المشاهد، هو مشهد الفلاحين هنا وهناك وهم يعملون في الحقول. حيث انحنى رجلٌ عجوز على فأسه وشاهد السيارة وهي تمر. وعلى مسافةٍ أقلَّ من عشر ياردات بالقرب منه حفرة كبيرة في الأرض حيث انفجرَت قذيفة، وعلى مسافةٍ أبعد بقليل تقع حظيرة مدمَّرة. وقد أُجبِرت السيارة على التوقُّف هنا للسماح بمرور موكبٍ من عربات الذخيرة. فمال الجراح الميجور طومسون من مقعده وتحدَّث إلى الرجل العجوز.

وسأله: «إذن أنت لست خائفًا من القذائف الألمانية، أليس كذلك؟»

فأجاب الرجل العجوز: «يا سيدي، يجب على المرء أن يعيش أو يموت — لا يهمُّ أيُّهما سيحدث. لكن إذا كان على المرء أن يعيش، فيجب أن يأكل. لذلك أنا أعمل.» وأضاف، وهو يُلوح بيده جنوبًا: «إن أولادي الأربعة وابن أخي هناك في المعارك. هذا هو السبب في أنني أحفر وحدي. لماذا لا ترسل لنا المزيدَ من الجنود، أيها السيد الإنجليزي؟»

أجاب طومسون بمرح: «انتظر قليلًا وسأفعل.»

نظر الرجل العجوز بحزنٍ إلى حظيرته المدمَّرة.

وراح يتمتم: «إن الرد دائمًا هو «انتظر»، ويكبر المرء ويتعب. عِمْت صباحًا يا سيدي!»

واصلَت السيارة طريقها مرة أخرى وانحدرت فجأةً في وادٍ صغير محمي. ثم توقفت أمام قصر صغير، تمتد أمامه ما كانت ربما ذات يومٍ حديقةً منسقة، ولكن مزَّقتْها الآن عربات المدافع، وعربات القوافل، وكل أنواع المركبات. كما تمتد من الجزء العلوي من المنزل العديد من الأسلاك. وقد سمح حارس البوابات الحديدية للميجور طومسون بالمرور بعد سؤال روتيني. حيث وقف ضابطٌ يرتدي حذاءً ملطَّخًا بالطين وشعره أشعثُ بفعل الرياح، وقد بدا كما لو أنه كان بالخارج طوال الليل، على درجات سلَّم المنزل ليستقبل طومسون.

وقال: «مرحبًا، أيها الميجور، وصلت للتو، أليس كذلك؟»

أجاب طومسون: «هذه اللحظة. هل من شيء جديد؟»

أجاب الآخر: «لا شيء يستحقُّ الذكر. لقد تلقَّيْنا للتو رسالةً مفادها أن الفرنسيين قد وجَّهوا لهم ضربة. لقد أمضينا وقتًا هادئًا في اليومَيْن الماضيَين. إنهم يجلبون المزيد من البافاريِّين، على ما نعتقد.»

فسأل الميجور طومسون: «هل تعتقد أنه يمكنني التحدُّث ببضع كلماتٍ مع الجنرال؟»

«تفضل بالدخول وتناول بعض القهوة. أجل، سوف يُقابلك، بالتأكيد. إنه في غرفته الخاصة مع اثنين من الطيارين، في هذه اللحظة. سأبلغك متى يُمكنك الدخول.»

ومن ثَم توجَّها إلى غرفة كانت ذات يوم غرفة الطعام في القصر، التي وُضِعت فيها منضدة طويلة. وقدَّم واحدٌ أو اثنان من ضباط الأركان التحية لطومسون، وسأله الرجل الذي أحضره عما يرغب في تناوله.

قال الأخير: «لقد تناول الجنرال إفطارَه قبل ساعة. إننا نتقدم بشكل جيد هنا وعلينا أن نظلَّ منتبِهين. لقد سقطت علينا بعض القذائف أمس على مسافة ربع ميل منا. أعتقد أننا سنحاول دفعهم للخلف على الجهة اليسرى. سأدخل وأطلب منهم إعداد ما تريد، يا طومسون.»

«يا لك من زميلٍ جيد! من فضلك اطلب منهم أن يُعِدوا شيئًا للسائق الخاصِّ بي. إن المدمرة التي أحضرتني تنتظر في بولونيا، وأريد أن أعود إلى لندن هذه الليلة.»

ابتسم أحد الضباط من الجانب الآخر للطاولة، بشكل غريب.

وتمتم: «لندن! يا إلهي! لا يزال هناك لندن، أليس كذلك؟ لا يزال هناك سافوي وكارلتون؟ بال مول أين كانت؟»

قال طومسون مؤكدًا: «مثلما كانت دائمًا. إن لندن لم تتغير قطُّ وهذا رائع. هل أنت بعيدٌ عنها منذ مدة طويلة؟»

كان الرد المرح: «منذ الثاني من سبتمبر. ما زلتُ أتلقَّى وعودًا بالحصول على إجازة لأسبوع، ولكن لم أحصل عليها.»

أوضح الرجل الذي يقف بجانبه، وهو يتناول مربى البرتقال: «إنه خبير في الهواتف. والجنرال لا يُمكنه أن يتخلَّى عنه مطلقًا.»

صاح الآخر في اشمئزاز: «أوه، توقَّفْ عن ذلك! وماذا عنك؟ — الرجل الوحيد الذي لديه عينٌ مسلَّطة على مدفع موجَّه نحو السماء، كما قال واتلز العجوز في أحد الأيام. نحن جميعًا عباقرة، يا ميجور»، وتابع، وهو يلتفت نحو طومسون: «ولكن إذا لم أحصل على مشروب سول كولبرت ولحمٍ مشوي في سافوي، ومقعد أمامي في ألهامبرا، قبل مرور عدة أسابيع، فسيُصيبني العفن — هذا ما سيحدث لي.»

قال رجلٌ من الطرَفِ الآخر للمنضدة: «آمُل أن تقصَّ شعرك قبل أن تعود. إن والدتك لن تتعرف عليك هكذا ... فضلًا عن حبيبتك.»

تحسَّس الشاب خصلات شعره بأصابعه وهو يفكر.

ثم قال في تذمُّر: «إن الشاب الذي كان سيقصه لي أُصيب بالرصاص أمس. هل لاحظتَ أي نشاط عندما جئت عبر قمة التل، يا ميجور؟»

هز طومسون رأسه.

«طائرة واحدة وبضعُ قذائف.»

علَّق أحدهم قائلًا: «لا بد أن هذا جوني أوتس يقوم بطلعةٍ استكشافيةٍ بطائرته من طراز بليريوت. وسرعان ما سيعود إلى هنا مع تقرير.»

عاد الضابط الذي قابل طومسون في الحديقة إلى الغرفة.

وقال: «يقول الجنرال إنه سوف يُقابلك في الحال.»

تبع طومسون دليله إلى غرفةٍ خلفيةٍ صغيرة. كان ثمة ضابطٌ يجلس أمامَ مكتب، وهو يكتب، وآخَرُ يصرخ عبر الهاتف، وثالثٌ يُجري بعض القياسات على خريطة أوردنانس كبيرة مثبتة على أحد الجدران. بينما يقف الجنرال وظهرُه إلى المدفأة وفي فمه غليون. أومأ برأسه مبتهجًا إلى طومسون.

وسأله: «متى غادرتَ لندن؟»

أجاب طومسون: «في الساعة التاسعة من مساء أمس، يا سيدي. رحلة قياسية نوعًا ما. عبر قطارٍ خاصٍّ ومدمرةٍ عبَرتْ بنا القناة.»

واصل الجنرال إلقاء نظرةٍ خاطفةٍ على وثيقةٍ في يده وهو يقول: «وأنا سأخبرك بما تريد أن تعرفه. حسنًا، أغلق الباب، يا هاروود. أفصح عمَّا تريد.»

قال طومسون: «إن الأمر يخصُّ الكابتن جرانيت من طاقم هاريسون.»

عبس الجنرال وطرق الرمادَ من غليونه.

وسأل: «حسنًا، ما الأمر؟»

أجاب طومسون: «لدينا أسبابٌ خاصة بنا لرغبتنا في معرفةِ ما قصدتَه بالضبط من مطالبة مكتب الحرب بعدم إعادته مرةً أخرى.»

تردَّد الجنرال.

«حسنًا، ما هي تلك الأسباب؟»

قال طومسون: «إنها غير ملموسةٍ بعض الشيء، يا سيدي، لكنها مهمَّة للغاية. إذ بدون أي دليلٍ مباشر، توصَّلت إلى استنتاجٍ مفاده أن الكابتن جرانيت شخصٌ غامضٌ

يحتاج إلى المراقبة. وكالمعتاد، نحن في مشكلةٍ مع السلطات المدنية، ولكي أكون صريحًا معك، أنا أحاول تعزيز قضيتي.»

هز الجنرال كتفيه.

وقال: «حسنًا، في ظل هذه الظروف يحقُّ لك معرفةُ ما تعنيه رسالتي. لقد أعدنا جرانيت إلى الوطن بسبب اشتباهٍ قد يكون غيرَ مبرَّرٍ تمامًا. ومع ذلك، كان الشك موجودًا، وكان قويًّا بما يكفي بالنسبة إليَّ لاتخاذ قرارٍ بشأن أنني أفضِّل عدم عودته للجبهة مرة أخرى. الآن عليك أن تعرف الحقائق بإيجازٍ شديد. لقد أُسر جرانيت مرتَين. لم يرَه أحدٌ وهو يقع في الأسر؛ في واقع الأمر، كلتا الواقعتَين كانتا هجماتٍ ليلية. بدا أنه اختفى فجأة — لأنه ابتعد للغاية عن رجاله، كان هذا هو تفسيره. كل ما يمكنني قوله هو أنه كان محظوظًا أكثرَ من معظمهم. فأي شيء يتجوَّل بحُريةٍ بزيٍّ بريطاني ... لكن ما علينا، لن أستمر في ذلك. وكان يعود في كل مرة بمعلومات عما رآه. في كل مرة خطَّطنا لهجوم بِناءً على تلك المعلومات. في كل مرة أثبتت هذه المعلومات أنها مُضللة وفشل هجومنا، وكلَّفتنا خسائرَ فادحة. بالطبع، ربما تكون الترتيبات قد تغيرت منذ أن رأى ما رآه، ولكن تبقى الحقيقة.» واصل الجنرال، وهو يملأ غليونه ببطءٍ ويضغط التبغ فيه: «علاوة على ذلك، في المرة الثانية، دفعنا أربعَمائة رجل إلى الأمام في قرية أوسراي. تحركوا في الظلام الدامس بصمت. كان من المستحيل أن تكون أي كلمة عن وجودهم في أوسراي معروفةً للألمان. ومع ذلك قُصفت القرية في ليلة القبض على جرانيت، وحوصر أولئك الذين نجَوا ووقعوا في الأسر. هل تُتابعني، أيها الميجور؟»

أجاب طومسون: «أجل، يا سيدي!»

ختم الجنرال حديثه قائلًا: «هذه هي الحقائق فقط. الآن من ناحية أخرى، فإن جرانيت يتعاملُ مع رجاله بشكل جيد، وقد أظهر شجاعةً شخصية كبيرة، وله مظهر الجندي المتحمس. وأنا أكره أن أرتكب خطأً في الحكم عليه حتى في أفكاري، لكنْ هناك آخَرون غيري ممن بدت لهم هذه الصدف محيرة. لذا قررنا ببساطة أنه من الأفضل تسكينُ جرانيت في موقع آخر في الوطن. وهذا هو سبب رسالتي.»

قال طومسون ببطء: «أنا ممتنٌّ جدًّا لك، يا سيدي. لقد أعطيتني بالضبط المعلومات التي نريدها.»

استُدعِيَ الجنرال للحظةٍ لإعطاء بعض التعليمات للضابط الشاب الذي كان جالسًا في زاويةٍ بعيدةٍ من الغرفة مع سماعة هاتف حول رأسه. ومع ذلك، أشار لطومسون كي يبقى.

ومن ثم قال، عندما عاد: «الآن بما أني قد أرضيتُ فضولك، فهل ستُرضي فضولي؟ هل ستُخبرني كيف أصبحَت لديك شكوكٌ في هذا الرجل وأنت هناك في إنجلترا؟»

أوضح طومسون قائلًا: «إن هذا، يكاد يكون أمرًا شخصيًّا بالنسبة إليَّ. قبل ثلاثة أشهر قضيت الليل مع الفيلق الثالث بالقرب من نيمن. كنت هناك في مهمةٍ أخرى، كما قد تتخيَّل، ولكن اشتعل هناك بعض القتال الساخن وخرجتُ للمساعدة. كنتُ أعالج بعض زملائنا واقتربت جدًّا من الخطوط الألمانية. وانفصلت قليلًا عن الآخرين وكنتُ أتلمَّس طريقي عندما سمعت أصواتًا تتحدَّث الألمانية على بُعد أقدامٍ قليلة مني. لم أستطع سماع ما قالوه لكن استطعتُ فقط تمييز شخصَيْن. انطلق أحدهما نحو الخطوط الألمانية. أما الآخر، فبعد أن وقف ساكنًا للحظة، جاء في اتجاهي. فأخرجتُ مسدسي، ولأخبرك بالحقيقة كِدتُ أُطلق النار عليه، لأنه كان سيصبح أمرًا محرجًا للغاية بالنسبة إليَّ أن أقع في الأسر في ذلك الوقت. وبينما كان إصبعي على الزناد، أدركتُ أن الرجل الذي يقترب كان يدندن «تيبيراري». فسلطت مصباحي على وجهه ورأيت على الفور أنه ضابطٌ بريطاني. وخاطبَني بسرعةٍ باللغة الألمانية. فأجبته بالإنجليزية. وتخيَّلت للحظةٍ أنه بدا منزعجًا. وقد همس قائلًا: «من الأفضل أن نبتعد عن هنا. نحن على بعد مائة ياردةٍ من الخنادق الألمانية وهم يُسلِّطون الكشافات». فسألته، بينما نتسلَّل: «مع من كنت تتحدث الآن؟» فأجاب: «لا أحد على الإطلاق». لم آخُذ الأمر على محمل الجِدِّ في ذلك الوقت، على الرغم من أنه بدا لي غريبًا. بعدها شعرتُ بالأسف، رغم ذلك، لأنني لم أُصرَّ على اكتشاف معنى ما بدا أنه كذبة متعمَّدة. في المرة التالية التي قابلت فيها جرانيت كان في حفل غداء في فندق ريتز، قبل بضعة أيام. فتعرفتُ على وجهه في الحال، رغم أنني لم أرَه إلا من خلال وميض المصباح الكهربائي. منذ تلك اللحظة راودتني شكوكي.»

أومأ الجنرال برأسه. وبدا عليه الحزن.

وقال: «إنه لشيءٌ بغيض أن نُصدقَ أن أي شخصٍ يرتدي الزي العسكري في خدمة جلالته يُمكن أن يلعب مثل هذا الدور الذي يوصَم بالخيانة. ومع ذلك، بشكلٍ عامٍّ أنا سعيدٌ لأنني قدمتُ ذلك الطلب إلى مكتب الحرب. هل يمكننا تقديمُ المزيد من المساعدة لك، أيها الميجور؟»

أخذ طومسون المعلومة وغادر. وبعد بضع دقائق استقل سيارتَه في طريق عودته إلى بولونيا.

الفصل الحادي عشر

وَجَفَت أوليف مورتون قليلًا عندما توقَّفَت سيارة السباق الطويلة، الرمادية، بلا ضجيجٍ بجانب حجر الرصيف. ورفع الكابتن جرانيت قبعته، وانحنى من مقعد القيادة نحوها.

«آمُل أني لم أفزعكِ يا آنسة مورتون؟»

أجابَت: «على الإطلاق. يا لها من سيارةٍ جميلة للغاية!»

وافقها بحماس.

«أليسَت كذلك! إنها هدية لي من عمي كي أقضيَ الوقت إلى أن أتمكَّن من العودة إلى خدمتي في الجيش. لقد أحضروها إليَّ في وقتٍ مبكرٍ من هذا الصباح فقط. هل يمكنني اصطحابكِ إلى أي مكان؟»

أجابَت: «لقد كنت ذاهبةً لمقابلة جيرالدين كونيرز.»

قال، وهو يميل على جانبٍ واحدٍ ويفتح الباب: «هل تعلمين، لقد خمَّنت ذلك. اسمحي لي أن أصحبك. فأنت أول راكبٍ أصحبه في سيارتي.»

فركبَت في الحال.

وقالت: «في واقع الأمر، لقد كنت أبحث عن سيارة أجرة. لقد تلقَّيت برقية من رالف. وهو يُريدنا أن نسافر إلى بورتسماوث في أول قطار يُمكننا اللَّحاق به هذا الصباح. ويقول إنه إذا تمكَّنا من الوصول إلى هناك في الوقت المناسب لتناوُل الغداء في الساعة الثانية، فيُمكنه أن يصحبنا في جولةٍ على متن المدمِّرة سكوربيون. إذ بعد اليوم ستُصبح مغلقةً أمام الزوَّار، حتى أقاربه. وأنا كنت ذاهبةً فقط لأرى ما إذا كان بإمكان جيرالدين الحضور.»

فكَّر جرانيت للحظة. ونظر إلى الساعة الصغيرة على لوحة القيادة المقابلة له.

ثم قال: «لديَّ اقتراح، لماذا لا تسمحان لي بتوصيلكما بالسيارة أنت والآنسة كونيرز؟ لا أظن أنَّ هناك قطارًا سريعًا قبل الساعة الواحدة، بينما يمكنني توصيلكما في غضون ساعتَين بسهولة. إنه بالضبط ما أتوق إليه، نزهة جميلة في الريف.»

صاحَت الفتاة: «يُعجبني هذا الاقتراح، وأظن أنه سيُعجب جيرالدين أيضًا. هل ستنتظر بينما أدخل لمقابلتها على عجَل؟»

أجاب جرانيت: «بالطبع. ها نحن قد وصلنا، وها هي الآنسة كونيرز عند النافذة. اذهَبي وأخبِريها وسأتأكَّد فقط أن لدينا ما يكفينا من الوقود. سأُوصلكما إلى هناك في غضون ساعتَيْن بسهولة، إذا تمكَّنا من الانطلاق قبل أن تصبح الطرق مزدحمة.»

ومِن ثَم أسرعَت إلى داخل المنزل. فقابلتها جيرالدين على العتبة وتحدَّثتا معًا بضعَ لحظات. ثم عادت أوليف مرةً أخرى، ووجهها مبتهج.

وقالت: «لقد أعجبت جيرالدين بالفكرة جدًّا. وستأتي في غضون خمسِ دقائق. هل يُمكننا التوقف عند منزلي كي أحضر مِعطفًا جلديًّا؟»

قال جرانيت، وهو يُلقي نظرةً خاطفة على ساعته: «بالتأكيد! هذا ممتعٌ للغاية! سنصل هناك عند الساعة الواحدة. لماذا هذا هو آخر يومٍ لدى كونيرز من أجل استقبال أحد؟»

أجابَت بلامبالاة: «لا أعرف. إنها بعض لوائح البحرية الملَكيَّة، حسبما أظن.»

فتنهَّد.

وقال: «في نهاية الأمر، لست متأكدًا مما إذا كنت قد اخترت المهنة الصحيحة. هناك الكثير من التشويق في مهنة ضابط البحرية. إنهم دائمًا ما يخترعون شيئًا أو يُجربون شيئًا جديدًا.»

نزلَت جيرالدين على السلَّم، وهي تُلوح بيدها.

وصاحت، بينما أبقى جرانيت البابَ مفتوحًا: «إنها فكرة مبهِجة للغاية! هل تعني حقًّا أنك ستأخذنا إلى بورتسماوث وتُقابل رالف معنا؟»

أجاب مبتسمًا: «أنا لن أزعج أخاك، لكنني سأصطحبكما إلى بورتسماوث، إذا سمحتما لي. سنصل هناك قبل القطار بوقتٍ طويل، و... حسنًا، ما رأيكِ في سيارتي الجديدة؟»

قالت جيرالدين: «بكل بساطة رائعة. أخبرتني أوليف أن عمَّك قد أعطاك إياها للتو. يا لك من شخص محظوظ، يا كابتن جرانيت!»

ضحك ضحكةً قصيرة بينما ينطلقون بخفَّة.

وأجاب: «هل تعتقدين ذلك؟ حسنًا، أنا محظوظٌ بعمي، على أي حال. إنه أحد هؤلاء الأشخاص القلائلِ الذين لديهم قدرٌ كبير من المال ولا يُمانعون في إنفاقه. لقد كنت أشعر بالملل حتى الموتِ بسبب ساقي وذراعي المصابتَين، وبالتأكيد هذه تجعل المرء ينسى كِلَيهما. إنها مزوَّدة بمحرك ذي ستِّ أسطوانات، كما ترَين، يا آنسة كونيرز، ولا أود أن أخبركِ بمدى السرعة التي قد نبلغها إذا كنا متعجِّلين.»

أكدت له جيرالدين: «أنت لن تُخيفنا.»

نظر جرانيت مرةً أخرى إلى الساعة أمامه.

وقال: «لبعض الوقت، أنا سائقُكِ الخاص. أريد فقط أن أرى إمكانياتها ... للتجرِبة قليلًا.»

من تلك النقطة توقَّفَت المحادثة بينهم تقريبًا. وأراحت الفتاتان ظهرَيْهما على مقعدَيْهما. بينما جلس جرانيت منتصبًا، وعيناه مثبَّتتان على الطريق. ومن ثم قبل الساعة الواحدة بقليلٍ دخلوا بورتسماوث.

قالت جيرالدين: «إنها أروع رحلةٍ قمت بها في حياتي!»

ردَّدت أوليف: «إنها رائعة! يا كابتن جرانيت، لقد وعد رالف بأن ينتظرَنا زورقٌ صغير على الرصيف رقم سبعة من الواحدة حتى الثالثة.»

أشار جرانيت بإصبعه.

وقال: «الرصيف رقم سبعة هناك، وها هو الزَّورق. سأعود إلى الفندق لتناوُل طعام الغداء وأنتظركما هناك.»

قالت جيرالدين في إصرار: «أنت لن تفعلَ شيئًا من هذا القبيل. سيغضب رالف إذا لم تأتِ معنا.»

تدخَّلت أوليف قائلةً: «بالطبع! كيف يمكنك التفكيرُ في شيءٍ سخيفٍ كهذا! يرجع الفضل إليك بالكامل في قدرتنا على الوصول إلى هنا.»

بدا الكابتن جرانيت متشككًا للحظة.

وأوضح قائلًا: «اسمعا، الآن، أنا أعرف أن اللوائح الخاصة بزيارة السفن في الخدمة صارمةٌ للغاية. وربما يُحرج أخاكِ وجودُ زائرٍ إضافي.»

احتجَّت جيرالدين قائلة: «كيف يُمكنك أن تصبح غيرَ منطقي هكذا! أنت ... جندي! عجبًا، بالطبع سيُصبح سعيدًا بوجودك.»

وضع جرانيت السيارة داخلَ الممر المغطَّى لفندقٍ يقع أمام الرصيف تمامًا.

ووافق قائلًا: «حسنًا. سنترك السيارة هنا. بالطبع، أود أن آتيَ معكما.»

ومن ثَم عبَروا الشارع المرصوف بالحصى واتجَهوا نحو الرصيف. حيث ينتظرهم الزورق، وفي غضون دقائق قليلة، شقُّوا طريقهم عبر الميناء. وقد رسَت المدمِّرة سكوربيون بعيدًا عن سفينةٍ أخرى، بينما تنبعث من مَداخنها الأربَع الضخمة ألسِنةٌ صغيرة من الدخان. وهي تطفو على ارتفاعٍ منخفضٍ جدًّا في الماء وكان مظهرها مهيبًا للغاية.

قالت جيرالدين، وهي تميل قليلًا إلى الأمام للنظر إليها: «أنا شخصيًّا، أعتقد أن المدمِّرة هي واحدة من أفظع الأشياء التي رأيتُها على الإطلاق. آمُل أن يكون رالف سريعًا ويحصل على سفينة سريعة.»

سأل جرانيت: «هل هذه هي المدمِّرة سكوربيون التي أمامنا؟»

أومأت جيرالدين برأسها.

«هل رأيت شيئًا أكثرَ قبحًا منها؟ إنها تبدو وكأنها ستبصق الموتَ من كل شِقٍّ صغير.»

تمتم جرانيت: «إنها قارب جميل. ماذا قال أخوكِ إنها تستطيعُ أن تفعل؟»

أجابت جيرالدين: «تسعٌ وثلاثون عُقْدة. يبدو هذا جيدًا، أليس كذلك؟»

ابتسم الضابط المسئول عن الزورق.

وقال: «إن سرعاتنا تقديريةٌ فقط، على أي حال. إذا كان لدى كبير مهندسينا هناك الرسالةُ المناسبة، فلا أحدَ منا يودُّ أن يقول ما يمكنه الحصول عليه من تلك المحركات الجديدة.»

ومن ثَم استدار وأصدر أمرًا بصوت عالٍ. وفي غضون لحظة أو اثنتَيْن، تأرجحوا ورسَوْا بجانب المدمرة. وأخذ رالف يلوح بيده من أعلى سُلَّم الصعود.

وصاح: «حسنًا فعلتم، جميعًا! مرحبًا جرانيت! هل أنت مَن أوصلَ الفتياتِ إلى هنا؟»

أخبرَته جيرالدين، وهم يصعدون السلم: «في أروع سيارةِ سباقٍ رأيتُها على الإطلاق! ما كنا لنصل إلى هنا إلا بعد ساعاتٍ لو أننا انتظرنا القطار.»

قالت أوليف موضحة، وهي تقف على متن المدمرة: «لقد قابلت الكابتن جرانيت هذا الصباح عن طريق الصدفة، وأصرَّ على توصيلنا.»

سأل جرانيت في قلق: «آمُل ألَّا يُمثل وجودي أيَّ مشكلة. إذا كان الأمر كذلك، فما عليك سوى أن تقول لي وتُرسلني إلى الشاطئ، وسأنتظر، بكل سرور، حتى تعود الآنستان. إن لديَّ الكثيرَ من الأصدقاء هنا أيضًا، يمكنني البحث عنهم.»

أجاب كونيرز: «لا تكن سخيفًا. صديقتنا العجوز العزيزة طومسون ليست هنا كي تقلق؛ لذا أعتقد أنه يُمكننا منحُك جولةً على السفينة. تعالَ معي لنتناولَ كوكتيلًا. انتبهوا لرءوسكم. نحن لسنا على متن سفينة حربية، كما تعلمون. سوف تجدون مقر إقامتي ضيقًا بعضَ الشيء، للأسف.»

ومن ثم شربوا الكوكتيل بمرح. وبعد ذلك صاحت جيرالدين، وهي تأخذ نفسًا طويلًا: «إذا لم تكن أوليف مغرمةً بشكل مرعب، لشعرَت بالاختناق.»

توقف جرانيت ونظر أمامه بعبوس مرْتبِك.

«ما هذا بحق السماء؟»

كان أمامهم تمامًا هيكلٌ خفيف، من الواضح أنه مبنيٌّ حول شيء مخبَّأ، بغرض الإخفاء. وقد وقف أحد أفراد مُشاة البحرية أمامه للحراسة، شاهرًا سيفَه. كان جرانيت يُخاطبه عندما تقدَّم ضابطٌ بخفةٍ عبر الجزء الأمامي من المدمِّرة، وألقى التحية.

وقال: «أنا آسفٌ للغاية يا سيدي، ولكن هل تُمانع في البقاء على الجانب الآخَر؟ هذا الجزء مغلق، في الوقت الحاضر.»

سأل جرانيت بخفةِ ظل: «ماذا لديكم بحقِّ السماء خلف هذا الهيكل؟ ... هذا إذا كان شيئًا يمكن لرجلٍ يعمل على البرِّ أن يعرفه؟»

قادهم الضابط الشابُّ إلى الجانب الآخر.

وقال: «إنه مجرد شيءٍ صغيرٍ لا يُسمح لنا بالتحدُّث عنه الآن. لم أكن أعرف أن القائد ينتظر أي زوارٍ اليوم، وإلا كنا عزلنا ذلك الجانب ومنعنا تجوُّل الزوار.» ثم استفسر بأدب: «هل يمكنني أن أُريَكم أي شيء في هذا الجزء؟»

قالت له جيرالدين: «لا شيء على الإطلاق، شكرًا. سوف نتجوَّل وقتًا قصيرًا فحَسْب.»

ومن ثم انحنَوْا على حاجز المدمرة معًا. بينما حيَّاهم الضابط الشاب وانسحب. فهبَّ نسيمٌ منعشٌ في وجوههم، وتراقصت أشعة الشمس على البحر المكسوِّ بالزبَد. وضج المرفأ بالحيوية عبر حركة المراكب الصغيرة، مع تحليق طائرة في السماء فوق الرءوس، وبالخارج في رودز كانت هناك عدةُ سفن حربية راسية.

قال جرانيت: «لقد كنت محظوظًا هذا الصباح.»

ردَّت جيرالدين: «ونحن كذلك. فأنا لم أستمتع قطُّ بركوب السيارات أكثرَ مما فعلت اليوم. إن سيارتك الجديدة رائعة.»

وافقها جرانيت بحماس: «إنها جميلة، أليس كذلك؟ ما يمكن أن تفعله عند السرعة الرابعة لن أجرؤَ على قوله. لقد تجاوزنا الستين عدة مرات هذا الصباح، ومع ذلك نادرًا ما لاحظنا ذلك. كما ترين، إن نظام التعليق فيها رائع.»

فقالت: «أنت محظوظ؛ لأن لديك عمًّا يُقدِّرك للغاية.»

قال جرانيت معترفًا: «إنه سندٌ لي. لقد ظلَّ يدعمني دعمًا هائلًا طَوال حياتي.»

أومأَتْ برأسها.

وقالت: «أظن حقًّا أنك يمكن أن تُحسَد على هذا، أليس كذلك، يا كابتن جرانيت؟ إذ إن لديك معظمَ الأشياء التي يُريدها رجلٌ. وقد أُتيحَت لك الفرصة أيضًا لفعل أفضل الأشياء التي يمكن لرجلٍ القيامُ بها، وبالفعل قمتَ بها.»

فنظر باتجاه البحر في حزن.

واعترف قائلًا: «أنا محظوظٌ في شيء. أما في بقية الأشياء فلست متأكدًا.»

ظلَّت ملتفتةً بعيدًا عنه. إذ بطريقةٍ أو بأخرى، استشفَّت بشكلٍ جيد ما كان يدور في ذهنه. وحاولت أن تفكر في شيء لتقوله، شيء لتبديد سحابة الحزن التي شعرَت بها في الجو، لكن الكلمات خذلتها. وكان هو مَن كسرَ حاجز الصمت.

«هل لي أن أطرح عليك سؤالًا، يا آنسة كونيرز؟»

«سؤال؟ لمَ لا؟»

«هل أنت مخطوبة حقًّا للميجور طومسون؟»

لم تُجِبْه في الحال. كانت لا تزال تُبقي عينَيْها متعمدةً بعيدًا عن عينَيْه. وعندما تحدَّثَت أخيرًا، كان صوتها لا يكاد يرتفع فوق الهمس.

وقالت: «بالتأكيد أنا كذلك.»

فانحنى قليلًا نحوها. وبدا صوته لها عميقًا وحازمًا. إذ كان صوتَ رجلٍ شديد الجدية.

وقال: «سأصبح مزعجًا بشكلٍ فظيع. أعتقد أن من المفترض أن أعتبر إجابتكِ عن سؤالي نهائية. لكن لن أتقبَّل ذلك. لقد تقدَّم إليكِ أولًا ولكن هذا ليس كلَّ شيء. إنها معركةٌ عادلةٌ بيني وبينه. إنه يكرهني ولا يبذل أقلَّ جهدٍ لإخفاء ذلك. إنه يكرهني لأنني أهتمُّ بكِ ... وأنت تعرفين ذلك. لا يمكنني الاحتفاظ بهذا السرِّ لنفسي حتى لو كنت قادرًا على ذلك.»

أشاحَت بوجهها قليلًا، لكنه أجبرها على النظر إليه. كان هناك شيءٌ آخر بخلاف الجاذبية في عينَيْها.

قال في إصرار، وهو يُمسك بيدها: «لقد كنت ضحيةً لخطأ. لا أعتقد أنكِ تهتمِّين به بالفعل مطلقًا. إنه لا يبدو من النوع المناسب لك، فهو أكبر منكِ سنًّا بكثيرٍ ويفتقد الحيويةَ والمرح. يجب ألَّا تغضبي. يجب أن تعذريني، من فضلك، إذا قلت أكثر مما هو مسموحٌ لي — إذا قلت المزيد الآن — لأنني سأخبرك، الآن بعد أن أصبحنا وحدنا معًا للحظة، أنني أُحبك.»

التفتت نحوَه مع بعض الانزعاج، كما أن الضيق على وجهها كان لا يزال واضحًا.

وصاحت: «كابتن جرانيت! لا ينبغي أن تقول ذلك! ليس لديك حق ... ليس لديك حقٌّ على الإطلاق.»

أجاب بإصرار: «على العكس من ذلك، إن لديَّ كلَّ الحق. ليس الأمر كما لو أن طومسون هو صديقي. إنه يكرهني وأنا لستُ معجبًا به. لكل رجل الحقُّ في بذل قصارى جهده للفوز بالفتاة التي يُحبها. إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بأي شيءٍ من هذا القبيل. أنا لم يسبق لي أن رغبتُ في الأشياء الكبيرة من أي امرأة. والآن ...»

أشاحت بوجهها عنه بشكلٍ تلقائي سريع. وفجأةً ومضَت فوق رأسَيهما رسالةٌ كهربائية وهي تُصدر صوت طقطقة. فوقفت تنظر لأعلى، ويدها ممدودة كما لو كانت لإبقائه بعيدًا.

وقالت: «لا يُمكنني الاستماعُ أكثرَ من هذا. إذا قلت كلمة أخرى فسأذهب للأسفل.»

ظل صامتًا للحظة في عبوس. بينما خرج ضابطٌ شابٌّ من غرفة اللاسلكي وحيَّا جيرالدين.

وقال: «أنا آسف جدًّا لكم، يا آنسة كونيرز، لكنني أخشى أننا سنُضطرُّ إلى إعادتكم إلى الشاطئ. إذ ورَدَتنا رسالةٌ عاجلةٌ هنا من سفينة القيادة بإخلاء السفينة من جميع الضيوف.»

احتجَّت جيرالدين قائلة: «لكننا لم نتناوَل الغداء بعد!»

ظهر كونيرز فجأةً على سُلَّم السفينة، وتبعَتْه أوليف.

واستفسر قائلًا: «ما هي الرسالة، يا هوارد؟»

أدَّى الضابط التحية وسلَّم له ورقةً مطوية. قرأها كونيرز بعبوسٍ وخطا على الفور إلى متن السفينة. وأعطى بعضَ الأوامر، ثم عاد إلى ضيوفه.

وقال موضِّحًا: «يا فتيات، وأنت يا جرانيت، أنا آسفٌ للغاية ولكن لا يُمكنني أن أُبقيَكم هنا لثانيةٍ أخرى. لقد طلبت الزَّورق ليُعيدَكم. يجب أن تعودوا إلى الشاطئ وتتناوَلوا الغداء في «شيب». سآتي إليكم في أقربِ وقتٍ ممكن. أنا آسفٌ للغاية يا جرانيت، لكني لستُ بحاجةٍ إلى الاعتذار إليك، أليس كذلك؟ فالحرب هي الحرب، كما تعلم وهذه مسألة طارئة.»

سألت جيرالدين بلهفة: «هل ستُبحر مع هذا المد؟»

هز كونيرز رأسه.

أجاب: «ليس هذا هو السبب. لدينا بعض المهندسين القادمين للقيام ببعض الأعمال على متن السفينة، وقد تلقَّيت تعليماتٍ خاصةً من قائدي بإعادة أيِّ ضيوفٍ لديَّ على متن السفينة.»

سألت أوليف وهي تسير نحو الشيء المغطَّى بالهيكل: «هل للأمر علاقةٌ بهذا الشيء الرائع المخفي؟»

هز كونيرز كتفَيه.

«لا يمكن إفشاء أسرار الحكومة! بيننا نحن الأربعة فقط ...» وأضاف مبتسمًا: «فصديقُنا طومسون ليس هنا، أليس كذلك؟ ... نحن نُخطط لتدمير الغواصات.»

فنظروا بفضولٍ إلى الهيكل الغامض. وتنهَّد جرانيت.

وقال: «أنتم رجال متكتِّمون، أيها البحَّارة. لا تهتم، إن لديَّ صديقًا في مقر البحرية الملكية يُعطيني بعض المعلومات بين الحين والآخر. سأذهب وأستقي منه المعلومات.»

ترجَّاه كونيرز بسرعة قائلًا: «لا تُخبر أحدًا شيئًا عن صعودك على متن سكوربيون. إنهم يتغاضَون عن الأمر هنا، ما دام يتمُّ ذلك بتكتُّم، لكنه يتعارض مع القواعد بشدة، كما تعلم.»

قال جرانيت: «هذا صحيح! لن أُخبر أحدًا بزيارتنا هذه مطلقًا.»

وعد كونيرز قائلًا: «سآتي إلى «شيب» بمجرد أن أستطيع إنهاء عملي.»

ومن ثَم شقُّوا طريقهم عبر ميلٍ من الموج المتكسر حتى وصلوا إلى الشاطئ. وهم جميعًا صامتون. حيث شعرَت أوليف بخيبة أملٍ واضحة، وانشغلت جيرالدين بأفكارها. وبدَت نظرةُ جرانيت مثبَّتة على سكوربيون. سار زورقٌ آخَر بجوارهم وعلى متنه مجموعةٌ صغيرة من الرجال.

وقال، وهم يشقُّون طريقهم عبر الرصيف: «آمُل فقط أن يكونوا قد توصَّلوا إلى جهازٍ لتخليص البحر من هذه الغواصات الملعونة! أرى أن هؤلاء المتوحِّشين قد أقدَموا على إغراق قوارب الصيد الآن.»

قالت أوليف في حماس: «يعتقد رالف أنهم توصَّلوا إلى شيء ما. إنه ببساطة متلهِّفٌ لمباشرة مهامِّه القتالية.»

ذكَّرها جرانيت قائلًا: «إن البحارة جميعهم متفائلون بشكلٍ مبهج للغاية. إنهم يفعلون شيئًا مفيدًا جدًّا باستخدام الشباك، بالطبع، بالطريقة التي كان أخوكِ قد بدأ يشرحها لي عندما قاطعَنا الميجور طومسون، لكنهم لن يتمكَّنوا من الحفاظ على القناة خاليةً إلا بهذه الطريقة. إن ما يحتاجون إليه حقًّا هو طريقةٌ ما للتعامل معها وهي تحت الماء. ها قد وصلنا أخيرًا. أتمنى أن تكونا جائعتَين مثلي.»

تناولوا الغداء برويَّة، وظلَّت أوليف على وجه الخصوص تُلقي نظراتٍ خاطفةً على الباب، وبعد ذلك جلسوا في الردهة وتناولوا قهوتهم. وقد بدا أن جرانيت كان في حالةٍ معنويةٍ عاليةٍ طوال الوجبة، وأخبر الفتياتِ بالعديد من الحكايات عن مغامراته على الجبهة. ومع ذلك، توقَّف عن الحديث بعد بُرهة، وفي النهاية، خرج ليتمشَّى وحيدًا بعد أن استأذن منهما. ونظرَت أوليف مرةً أخرى إلى الساعة.

وقالت وهي تتنهَّد: «يبدو أن رالف لن يأتي، أليس كذلك؟ دَعينا نَسِر قليلًا نحو رصيف الميناء.»

ذهبت الفتاتان للتنزُّه واتجهَتا نحو الميناء. وتمكَّنتا من رؤية سكوربيون لكن لم يكن هناك ما يُشير إلى مغادرة أي زورقٍ منها. فعادتا على مضضٍ نحو الفندق.

سألت أوليف: «ترى ما الذي حدث للكابتن جرانيت؟»

توقَّفت جيرالدين لبرهة. مع بعض العبوس الذي بدا على وجهها. وأشارَت إلى سطح الفندق، حيث رأَتْ رجلًا يجلس القُرْفُصاء مع منظارٍ ملتصقٍ بعينَيه. وقد أنزله بمجرد أن توقفتا، ولوَّح لهما بيده.

وصاح: «لا أستطيع رؤية أيِّ أثر لكونيرز. أنا في انتظار الزورق. اصعدا إلى هنا. إن المنظر من هنا رائع.»

فدخلتا إلى الفندق في صمت.

وقالت جيرالدين في انزعاج: «لا أظن، أن رالف سيعجبه ذلك.»

ومن ثم صعدتا إلى سطح الفندق ورافقَتهما خادمةُ غرفٍ ممتلئةُ الجسم إلى سلَّمٍ صغيرٍ ينفتح على كوَّة. ومن هنا زحَفتا إلى السطح، حيث وجَدتا جرانيت جالسًا بشكلٍ مريحٍ وظهره مسندٌ إلى مِدخنة، وهو يدخن سيجارة.

قال بضحكةٍ مكتومة: «هذه ستُحتسب على أخيك.»

سألته جيرالدين: «أين وجدت هذا المنظار؟»

فأجاب: «لقد استعرته من الطابق السفلي. تعالَي وألقي نظرة. يمكنكِ رؤية سكوربيون بوضوحٍ تام. يبدو أن جميع الضبَّاط مجتمعون حول ذلك الهيكل الغامض على سطح السفينة. لقد اعتقدت في البداية أنه منصَّةٌ لمدفع، ولكنه ليس كذلك.»

مدَّت أوليف يدَها لتأخذ المنظار، لكن جيرالدين هزَّت رأسها. وقد ظهر تعبيرٌ مضطربٌ في عينَيْها.

وقالت: «أظن أنه أمرٌ سخيف للغاية، يا كابتن جرانيت، لكن بصراحة، أعتقد أن رالف لن يتقبَّله على أنه مزحةٌ مطلقًا إذا علم أننا صعدنا هنا، لنُحاول معرفة ما يجري.»

وضعَت أوليف المنظارَ جانبًا على الفور.

وغمغمت: «لم أفكِّر في ذلك.»

ضحك جرانيت ببساطة.

وقال: «ربما أنت على حق. ورغم ذلك، نحن في وضعٍ استثنائي قليلًا، أليس كذلك؟ ... أخته، وخطيبته، و...»

وتوقَّف عن الكلام على نحوٍ مفاجئ. عندما ربتت يدٌ على كتفه. وهي لرجلٍ ضئيل الجسم، داكن اللون، اقترب من خلف زاوية المدخنة دون أن يُلاحظه أحد، ووقف خلفه مباشرة.

وقال بهدوء: «يجب أن أُزعجكم جميعًا وأطلب منكم أسماءكم وعناوينكم، إذا سمحتم.»

حدَّقت الفتاتان في وجهه، وهما مذهولتان. ومع ذلك، ظل جرانيت هادئًا. وهو يضع المنظار جانبًا وتفحَّص الوافد الجديد.

وقال بدماثة: «أنا حقًّا لا أفهم مطلقًا، لماذا يجب عليَّ أن أُعطي اسمي وعُنواني لشخصٍ غريب تمامًا لمجرد أنه طلب ذلك.»

فتح الرجل معطفه وعرض شارة.

«أنا في الخدمة الحكومية، يا سيدي.»

قال له جرانيت: «حسنًا، أنا الكابتن جرانيت، وقد عُدت من الجبهة مع تقرير الشجاعة قبل بضعة أيام. وهذه الآنسة كونيرز، شقيقة القبطان كونيرز قائد سكوربيون، والآنسة أوليف مورتون هي خطيبته. ونحن ننتظر القبطان كونيرز في الوقت الحالي، وكنا ننظر فقط لنرى ما إذا كان الزورق قد تحرَّك. هل استخدامُ المنظار في بورتسماوث مخالفٌ للقانون؟»

دوَّن الرجل بعضَ الملاحظات في دفتره الصغير. ثم فتح الكوَّة ووقف على جانب واحد.

وقال: «لا يُسمح لأحدٍ بالصعود إلى هنا يا سيدي. يقع اللوم على موظَّفي الفندق لعدم إغلاق الكوة. يجب أن أُقدِّم تقريرًا ولكن ليس لديَّ أدنى شكٍّ في أن تفسيرك سيُقبَل. هل يمكن أن تتفضَّل بالنزول، من فضلك؟»

نهض جرانيت على قدمَيْه والتفتَ نحو رفيقتَيه.

وقال: «إن الرجل على حقٍّ تمامًا. أنا سعيد فقط لأن الحكومة تهتمُّ بالأمور على هذا النحو. إن قيادة البحرية الملكية لها السبق بهذه الطريقة أكثر منَّا نحن. أنا أقترح أن نخرج بالسيارة ونذهبَ إلى المقدمة في ساوثسي» ... وأضاف بمرح، وهو يلتفت نحو الرجل الذي اقترب منهم: «إلا إذا كنا قيد الاعتقال؟»

كان الرد المهذب: «لك الحرية في أن تفعلَ ما يحلو لك، يا سيدي. على أي حال، أعتقد أنه من غير المُجدي أن تنتظر القائد كونيرز.»

سألت أوليف بسرعة: «لماذا؟»

قال الرجل: «لقد تلقَّت المدمرة سكوربيون للتو أوامرَ بالمغادرة عند المد هذا المساء، يا سيدتي. يمكنكِ حتى رؤية أنها تتحرَّكُ الآن.»

نظروا عبر الميناء. حيث يتصاعد الدخان من مداخن المدمرة. وقد التفَّت بالفعل، وتتَّجه ببطءٍ نحو القناة.

صاح جرانيت: «إنها تُبحر، هذا صحيح بالفعل! لم يتبقَّ لنا شيء، إذن، سوى العودة إلى لندن.»

الفصل الثاني عشر

بعد مرور بِضع ساعات، وضعَت جيرالدين سماعةَ الهاتف مع تنهيدة استسلامٍ طفيفة. فرفعت الليدي كونيرز عينَيها عن كتابها ونظرَت نحوها مستفسرة.

سألتها: «هل كان ذلك الشخص يريد أن يأتيَ ويُقابلكِ في هذا الوقت من الليل، يا جيرالدين؟»

تثاءبَت جيرالدين.

وأوضحت: «إنه هيو. لقد اتصل من مكتب الحرب أو من مكانٍ ما — ويقول إنه قد عاد لتوِّه من فرنسا، ويريد رؤيتي في الحال. أظن أن بإمكانه الانتظارَ حتى صباح الغد. أنا غير قادرةٍ على إبقاء عينَيَّ مفتوحتَين، فأنا ناعسةٌ للغاية.»

نظرت الليدي كونيرز إلى الساعة.

وقالت: «إن الوقت ليس متأخرًا للغاية، وفي رأيي، إذا كان الرجل المسكينُ مسافرًا طوال اليوم، فإنه يودُّ أن يقول لكِ طابت ليلتُك.»

كشَّرت جيرالدين بعضَ الشيء.

وقالت: «سأذهب إلى قاعة الاستقبال وأنتظره. سيجدني نائمةً على الأرجح.»

نظر إليها الأدميرال من خلف صحيفة «التايمز».

وسألها: «أين ذلك الشابُّ اللطيف جرانيت؟ لماذا لم تُحضريه لتناول العشاء؟»

ذكَّرَت جيرالدين والدها قائلة: «حسنًا، لم نعد إلا عند الساعة الثامنة تقريبًا. لم أظن أنه سيجد الوقت الكافيَ لتغيير ثيابه والعودة إلى هنا بشكل مريح.»

قال السير سيمور: «إنه لطيف، ذلك الشاب. أفضل نوع من الجنود الإنجليز الشباب. يُمكننا أن ننتصر مع الكثير من أمثاله.»

غادرت جيرالدين الغرفة دون أن تُعلق. وكان بإمكانها سماعُ حفيف أوراق صحيفة والدها وهو يُقلبها بينما تبتعد.

وقال والدها متذمرًا: «أنا لا أفهم سبب عدم اختيار جيرالدين لشاب ذكي مثل جرانيت بدلًا من رجلٍ عجوز مثل طومسون. أنا أكره هؤلاء الأطباء العسكريِّين، على أي حال.»

قالت الليدي كونيرز بحماس: «إن الميجور طومسون لديه عقلية ساحرة. وعلاوةً على ذلك، سيصل إلى مكانة متميزة في يوم من الأيام ... حتى إنه قد يصبح بارونًا.»

أصدر زوجها صوتًا من حلقه وهو يقول: «من يهتم بذلك؟ إن جيرالدين لديها الأصل العريق، وكذلك المال. كيف اختارت طومسون من بين جميع أحبائها، لا أستطيع أن أتخيل.»

بعد بضع دقائق، استقبلَت جيرالدين، بالرغم من إجهادها، حبيبَها ببهجةٍ شديدة عندما وصل. كان الميجور طومسون لا يزال يرتدي ملابسَ السفر، وبدا بمظهر رجل كان يعمل تحت ضغط قاسٍ لبعض الوقت. ومن ثَم أمسك أصابعها بإحكام للحظة دون أن يتكلم. ثم قادها إلى الأريكة وجلس بجانبها.

وسألها في جدية: «جيرالدين، هل تُقيمين لما أقوله أيَّ وزن على الإطلاق؟»

أكدَت قائلة: «للغاية.»

«أنتِ تعلمين أنني غيرُ معجب بالكابتن جرانيت، ومع ذلك أخذتِه معكِ إلى بورتسماوث اليوم وحتى إنكِ سمحتِ له بمرافَقتكِ على متن المدمرة سكوربيون.»

انتفضَت جيرالدين قليلًا.

وسألت بفضول: «كيف علمت ذلك؟»

هز رأسه بدون صبر.

«لا يهم. لقد سمعت. لماذا فعلت ذلك، يا جيرالدين؟»

«في المقام الأول، لأنه عرَض علينا توصيلنا بالسيارة بعد أن فاتنا القطار. وهناك العديد من الأسباب الأخرى.»

«مثل ماذا، على سبيل المثال؟»

«حسنًا، لقد فضَّلنا أنا وأوليف وجودَ مُرافق وكان الكابتن جرانيت أكثرَ قَبولًا. لقد سافرنا في سيارة أعطاها له عمه لتوه، ذات محرِّك بقوة ستين حِصانًا من طراز بانهارد. لم أستمتع مطلقًا بركوب سيارةٍ أكثرَ من ذلك في حياتي.»

قال طومسون ببطءٍ: «أنتم جميعًا حَمْقى للغاية. سأخبركِ بشيءٍ الآن، يا عزيزتي، قد لا تُصدِّقينه، لكنه من أجل مصلحتك، ومن الضروري بالنسبة إليَّ أن يُصبح لديَّ بعضُ العذر للطلب الذي سأطلبه. إن جرانيت قيد الاشتباه في مكتب الحرب.»

كرَّرَت جيرالدين بهدوء: «قيد الاشتباه؟»

تابع طومسون قائلًا: «لم يثبت أي شيء ضده، وأنا أقول لكِ بصراحةٍ إن بعض القيادات يعتبرون هذه الفكرة سخيفة. لكن من ناحيةٍ أخرى، هو تحت المراقبة باعتباره جاسوسًا ألمانيًّا محتملًا.»

ظلَّت جيرالدين ثابتةً للحظة. ثم أخذَت تضحك بشدة. وجلسَت، بعد لحظة، تمسح عينَيْها.

وسألَتْه بجدِّية: «هل أنت جادٌّ حقًّا، يا هيو؟»

أكَّد لها، في برودٍ بعض الشيء: «بالتأكيد.»

فمسحَت عينَيها مرةً أخرى.

وتنهدت، وهي تربتُ على يده وتقول: «هيو، يا عزيزي، إنك تعتني بمستشفياتك ومُصابيك بشكلٍ أفضل بكثيرٍ من السعي خلفَ الاكتشافات الوهمية كهذه. لا أعتقد أنك ستُحقِّق نجاحًا باهرًا في إدارة المخابرات. وبالنسبة إلى مكتب الحرب، فأنت تعلم رأيي فيهم. الكابتن جرانيت جاسوس ألماني، يا للعجب!»

تابع طومسون قائلًا: «لم نتوصَّل أنا ومكتب الحرب إلى هذه الشكوك دون سبب. ربما ستنظرين إلى الأمر بمزيدٍ من الجدِّية عندما أُخبركِ أنه لن يُسمَح للكابتن جرانيت بالعودة إلى الجبهة.»

كرَّرت قائلة: «هل قلت لن يُسمَح له؟ هيو، أنت لست جادًّا!»

قال في إصرار: «أنا لم أكن أكثرَ جديةً في حياتي من قبل. ولست في وضع يسمح لي بإخبارِكِ أكثرَ من الحقائق المجردة، وإلا فقد أُفصح عن بعض الأدلة التي حتى أنت ربما تُقرِّين أنها تُلقي ضوءًا غريبًا إلى حدٍّ ما على بعض أفعال هذا الشاب. ونظرًا إلى هذا، رغم ذلك، لا يمكنني فعل أكثر من أن أحذرك، وأتوسلَ إليكِ»، تابع قائلًا: «أن تستجيبي لإرادتي بخصوص التوقف عن المزيد من التعارف معه.»

سادت لحظةُ صمتٍ غريب. إذ بدا أن جيرالدين تُحدق في جدران الغرفة. بينما تقبض يدُها على الأخرى، وأصابعها متشابكة بعصبية.

ثم قالت في حسم: «أول شيء سأفعله في صباح الغد أني سأرسل في استدعائه ليأتيَ ويُقابلني.»

اعترض طومسون بشدة: «لن تفعلي شيئًا من هذا القبيل.»

أدارت رأسها ونظرت إليه. كان يُدرك العداء الذي نشأ مثل جدارٍ بينهما. ولم يُظهر وجهُه، مع ذلك، أي علامة.

سألَت بهدوءٍ يُنذر بالسوء: «كيف ستمنعني؟»

فأجاب: «بتذكيركِ بواجبكِ تجاه بلدك. جيرالدين، يا عزيزتي، لم أتوقَّع أن أُضطر إلى التحدُّث معكِ بهذه الطريقة. وعندما أخبركِ أن الأشخاص المسئولين في مكتب الحرب، وهم مسئولون متخصِّصون ومهنتهم هي تشمُّم رائحة الجواسيس، قد أعلنوا أن هذا الشابَّ مشتبَهٌ به، فأنا بالتأكيد أشعر بخيبة أملٍ لأني وجدتكِ تتبنَّين قضيتَه بكل حماس. إنها ليست مسألة شخصية. صدقيني»، ثم أضاف، بعد لحظة توقُّف: «مهما كان تحيُّزي الشخصي، فإن ما أقوله لكِ الآن لا يتأثَّر على الإطلاق بأي شعورٍ بالغيرة. لقد أخبرتُكِ بما أعرفه وعليكِ أن تُقرري إلى أي مدًى ستتعاملين مع هذا الشاب في المستقبل. لكنني أمنعكِ، ليس باسمي ولكن من أجل بلدنا أن تُخبريه بكلمةٍ واحدةٍ مما قلته لك.»

فقالت: «هل وصلَت الأمور إلى هذا الحد، إذن، أنت توجه اتهامات ضد رجلٍ وتحرمه من حقِّ الاستماع إليه؟»

قال موافقًا: «إذا اخترت أن تُفسري الأمور على هذا النحو، أجل. أنا فقط تخيلت أنه بالنظر ... بالنظر إلى الأشياء المفترَضة بيننا، ربما ستقتنعين بكلامي.»

ثم مال قليلًا نحوها. ولو أنها كانت تنظر إليه، لكانت قد تأثَّرت بالنعومة المفاجئة لعينَيه الداكنتين، والجاذبية الطفيفة التي بدَت على وجهه الخالي من التعبير عادة. لكنَّ عينَيها، بغضِّ النظر عن ذلك، كانتا مثبتتَين على الخاتم الماسيِّ الذي يلمع في إصبَعِها الثالث. ومن ثَم شدَّته ببطء وسلمته له.

وقالَت: «هيو، إن الأشياء التي تتحدَّث عنها لم تَعُد موجودة بيننا. أنا آسفة، لكنني أعتقد أنك ضيِّقُ الأفق ومتشكِّك. إن لديك مهامَّك الخاصة للقيام بها. يبدو لي أنه من الشائن قضاءُ وقتك في الاشتباه بالجنود الذين قاتلوا من أجل مَلِكهم وبلدهم، واتهامهم بمثلِ هذه الجريمة النكراء.»

سألها بحزن: «ألا يُمكنكِ أن تثقي بي أكثرَ من ذلك بقليل، يا جيرالدين؟»

قالت بحدَّة: «كيف؟ أنا أحكم فقط من خلال الحقائق، والأشياء التي قلتَها لي، واتهاماتك ضد الكابتن جرانيت. لماذا تترك مهنتك الأساسية كي تُحقق في قضايا التجسس المشتبه بها؟»

«لا يمكنكِ تصديقُ أنني سأفعل ذلك إلا إذا كنت مقتنعًا أنه من واجبي، أليس كذلك؟»

قالَت له باختصار: «لا أستطيع تفهُّم أن هذه هي مهمتك على الإطلاق.»

فنهض مِن مكانه.

وقال: «أنا آسفٌ جدًّا، يا جيرالدين. سأحتفظ بهذا الخاتَم. فأنت حرةٌ تمامًا. لكن ... انظري إليَّ.»

اضطُرَّت إلى أن تفعل ما أمرَها به رغمًا عنها. إذ بدا موقفها الخاص، الذي ظنَّته محترمًا وصحيحًا، على نحوٍ مفاجئ ضعيفًا. وتولَّد لديها شعورُ طفل غاضب.

ومن ثم ترجَّاها قائلًا: «جيرالدين، خُذي على الأقل نصيحةَ رجل يُحبك. تريَّثي.»

وحتى عندما فتح الباب شعرت برغبة مفاجئة في مناداته ليعود. لكنها سَمِعته يعبر الردهة، وسمعت الباب الأماميَّ يُفتح ويُغلَق. فجلسَت ونظرت بنوعٍ من الذهول إلى الحيِّز الفارغ على إصبعها. ثم نهضَت وذهبت إلى غرفة المعيشة، حيث كان والدُها ووالدتها لا يزالان يقرَآن. فمدَّت يدها.

وقالت: «أماه، لقد فسخت خِطبتي للميجور طومسون.»

وضع الأدميرال جريدته جانبًا.

وقال: «أحسنتِ صنعًا، بالفعل! إن ذلك الشابَّ جرانيت أفضلُ من عشَرة رجالٍ مثله. لا يمكن أبدًا التمسُّك بطبيبٍ عسكري. حسنًا، حسنًا! كيف تقبل الأمر؟»

راقبت الليدي كونيرز ابنتها بتمعُّن. ثم هزَّت رأسها.

وقالت: «آمُل أنكِ قد تصرَّفتِ بحكمة، يا عزيزتي.»

الفصل الثالث عشر

بعد ظُهر اليوم التالي بقليلٍ نزل الكابتن جرانيت من سيارة أجرة في باحة فندق ميلان، ومرَّ عبر الأبواب المتأرجحة، واتجه إلى مكتب الاستعلامات. فسارع موظفٌ شابٌّ لطيف يرتدي معطفًا أسودَ نحو المكتب.

وسأله جرانيت: «هل يمكن أن تُخبرني، ما إذا كان هناك سيدٌ نبيل اسمه جيو يُقيم هنا؟»

انحنى الشابُّ أدبًا.

وقال: «لقد وصل مسيو جيو في الليلة الماضية، يا سيدي. وقد طلب منا للتو عبر الهاتف أن نُبلغه إذا جاء أحد السادة لمقابلته.» وتابع، مشيرًا إلى شاب صغير في الخلفية: «أيها العامل، أرشِد السيد إلى رقم ٣٢٢.»

تبع جرانيت الصبيَّ إلى المصعد، وأُرْشِد إلى غرفةٍ في الطابق الثالث. حيث فتح البابَ رجلٌ فرنسي طويل، أبيض الشعر.

فسأل الكابتن جرانيت بدماثة: «مسيو جيو، أليس كذلك؟ أنا جرانيت.»

أشار له الفرنسي. وأغلق البابَ وسحب المِزلاج بعناية. ثم التفت السيد جيو ونظر إلى زائره بشيءٍ من الفضول. كان جرانيت لا يزال يرتدي زيَّه الرسمي.

وغمغم جرانيت قائلًا: «فلتَحْيَ فرنسا.»

فمد الفرنسي يده على الفور.

وقال: «يا صديقي، لقد اندهشت للحظة. إذ لم يخطر ببالي أن أراك بهذا المظهر.»

ابتسم جرانيت.

ووضَّح: «لقد كنتُ على الجبهة، وعدتُ إلى الوطن مصابًا.»

قال مسيو جيو متشككًا: «أنت ضابط إنجليزي كيف؟ أنا لا أفهم تمامًا، إذن. هل طبيعة الرسالة التي جئت لتلقِّيها معروفة لك؟»

أومأ جرانيت برأسه وهو يجلس على الكرسيِّ الذي قدَّمه له مضيفه.

وقال ببساطة: «لا أظن أنك ينبغي أن تندهش كثيرًا. إذا كانت الحرب خطيرةً على بلدك، فهي خرابٌ على بلدي. ربما، نحن، لا ننشر مخاوفنا في الصحف. بل نُفضِّل إبقاءها محبوسةً في عقولنا. وهناك حقيقة واحدة كبرى أمامنا دائمًا. إن ألمانيا لا تُقهر. ويجب على المرء أن يجد السلام أو يموت.»

استمع مسيو جيو مع نظرةٍ فضولية على وجهه. وهو ينقر بسبابته على نسخة صحيفة «التايمز» المُلقاة على الطاولة. بينما أومأ الآخر بجدِّية.

وتابع: «أجل، أنا أعلم أن صحافتنا تقومُ بحملةٍ رائعةٍ من الخداع. وأعلم أن الكثيرَ من الجهلاء في البلاد يعتقدون أن هذه الحرب لا تزال قائمةً بكل أملٍ في النجاح. نحن الذين ذهبنا إلى الجبهة، وخاصة أولئك الذين لديهم أيُّ مصدرٍ للمعلومات في ألمانيا، نعرف الأمور بشكلٍ مختلف. إذ كلما طالت الحرب، زاد عِبء الدمار الذي سيتحمَّله بلدك وبلدي.»

قال مسيو جيو: «إن هذا هو رأيي أنا أيضًا، وعلاوة على ذلك، اسمع. إنها ليست حربَنا على الإطلاق، هذا هو الجزء القاسي من الأمر. إنها حربُ روسيا وحربُكم. ومع ذلك فنحن أكثرُ مَن يُعاني، إن أغنى جزء من بلدنا في أيدي العدو، كما أن صناعاتنا مشلولة، إن بلدي هو الذي ينضب منه دمُ الحياة ببطء. أنت أيها الإنجليزي، ماذا تعرف عن الحرب؟ لم يطَأ أيُّ عدو أرضَكم، ولم يرَ أي رجلٍ إنجليزي شرف نسائه يُدنس أو منزله يُدمَّر ويتحوَّل إلى رماد. إن الحرب بالنسبة إليك هي أمرٌ على الورق، فكرة مجردة — تلك الحرب نفسها هي التي حوَّلت النصفَ الأفضل من بلدي الحبيب إلى زاويةٍ من الجحيم.»

أقرَّ جرانيت كلامه قائلًا: «لم يَحِن وقتنا بعد، ولكن خلال مدةٍ قصيرة، ما لم تتمكَّن الدبلوماسية من تفاديه، فإن القدَر سيطرق أبوابنا، أيضًا. اسمع. هل لديك أصدقاء ما زالوا في السلطة، يا مسيو جيو؟ ... أصدقاء في مجلس الوزراء، أليس كذلك؟»

وافق مسيو جيو على ذلك قائلًا: «هذا صحيح بالفعل.»

تابع جرانيت: «لديك، أيضًا، متابعون رائعون في جميع أنحاء فرنسا. لذا فأنت الرجل المناسب للمهمة التي أحملها لك. أنت، إذا اخترت ذلك، ستُنقذ بلدك وتربح المكافأة التي ستُمنَح لك بالتأكيد.»

احمرَّ خدَّا مسيو جيو قليلًا. وهو يلف، بأصابع طويلة متوترة، سيجارةً ويُشعلها.

ثم يقول: «يا مسيو، أنا أستمع إليك بحماس، ومع ذلك أشعر بالحيرة. فأنت ترتدي زيَّ ضابط إنجليزي، لكنك أتيت إليَّ، أليس كذلك، كمبعوث لألمانيا؟»

اعترف جرانيت قائلًا: «بكلماتٍ جريئة قد يكون هذا صحيحًا، ومع ذلك أود أن أُذكِّرك بأمرين. أولًا: أن الجزء المهيمن من الشخصية الذي ورثته يأتي إليَّ من أسلاف ألزاسيين؛ وثانيًا: أن هذا السلام الذي أسعى من أجله قد يعني في النهاية الخلاصَ لإنجلترا، أيضًا.»

قال مسيو جيو: «أنا أسمعك بارتياح. وفي هذه الصفقة فإن رغبتي الكبرى هي التعامل مع رجلٍ ذي شرف. على هذا النحو أتصور أنه يُمكنني التعرف عليك، يا مسيو.»

انحنى جرانيت بجدِّية وبدون أي ظلٍّ من الحرج.

وقال: «هذا مؤكد، يا مسيو جيو. هل أواصل؟»

«بالطبع.»

سحب جرانيت لفافةً رقيقة من جيب صدر معطفه. ووضعها على الطاولة بينهما.

وقال: «لقد تلقَّيت هذه، قبل أقلَّ من ثلاثة أسابيع من يد القيصر نفسه.»

حدق مسيو جيو في رفيقه وهو غير مصدِّق.

فتابع جرانيت: «لقد كان الأمر بسيطًا للغاية. حيث أُسِرتُ بالقرب من قرية أوسراي. ونُقِلت على الفور إلى مقرِّ القيادة واصطُحبت في سيارةٍ إلى مكان محصَّن معين لن أُحدده، ولكنه كان في ذلك الوقت مقرَّ قيادة الأركان الألمانية. وقد استلمت هذه الوثيقة هناك بالطريقة التي أخبرتك بها. بعد ذلك ساعدوني، بعد بعض المغامرات الرائعة؛ كي أُعاود الانضمامَ إلى كتيبتي. يمكنك فتحُ هذه الوثيقة، يا مسيو جيو. إنها موجَّهةٌ لك. واحفظها بعناية؛ لأنها موقَّعةٌ من القيصر نفسِه. لقد حملتها معي الآن أكثرَ من أسبوعَيْن في النعل الداخلي لحذائي. وكما يُمكنك أن تتخيَّل، فإن العثور عليها معي كان سيعني الموتَ الفوري.»

انشغل مسيو جيو بقراءة الأسطُر القليلة في الرسالة. وعندما انتهى، غطَّى الورقة براحة يده وانحنى إلى الأمام. وقد ظهر بريقٌ غريبٌ في عينيه.

وقال بصوتٍ أجش: «ستتخلَّى ألمانيا عن الألزاس ولورين، وستنسحب إلى داخل حدودها. كذلك لن تطلب أيَّ تعويض. ما معنى ذلك؟»

قال جرانيت: «إن الأمر بسيطٌ للغاية. يجب على سياسيٍّ كبيرٍ مثلك أن يُدرك بسهولةٍ الظروفَ الفعلية التي تدفع بمثل هذا العرض. ما فائدة الأرض بالنسبة إلى ألمانيا؛ تلك الأراضي التي يجب أن تحكمَها بالقوة، وتُكافح دائمًا ضد الكراهية المتراكمة منذ سنوات؟

لقد لقَّنتها الألزاس ولورين درسَها. إنها لا تريد أرضًا فرَنسية. روسيا لديها الكثير لتُقدمه. يمكن لروسيا وإنجلترا فيما بينهما دفعُ تعويضٍ يجعل ألمانيا غنيةً بما يتجاوز أحلامَ الجشع. شكِّل حزبك، يا مسيو جيو، وانشر أخبارك بأي طريقةٍ تبدو مناسبةً لك، فقط حتى تَحين الساعة، وحافِظ على هذه الوثيقة كما تُحافظ على روحك. فحيازتها تعني الموتَ بالنسبة إليك كما كانت تعنيه لي.»

أخذ مسيو جيو الوثيقةَ وخبَّأها في جيبه الداخلي.

وقال بهدوء: «لنفترض أنِّي نجحت، ماذا عن بلدك عندئذٍ؟»

أجاب جرانيت: «بلدي سوف يصنع السلام.»

واستأنف قائلًا: «وهو سلامٌ سيُكلفنا الكثير، لكن ليس أكثرَ مما نستحقُّه. على مدى أجيالٍ كانت الحرب هي التسلسلَ الواضح والجليَّ للأحداث الأوروبية. وقد ألقت بظلالها التحذيرية عبر طريقنا لسنوات، ورجال الدولة لدينا يُديرون رءوسهم عمدًا في الاتجاه المعاكس أو يمشون معصوبي الأعين. ليس فقط رجال الدولة، تذكر، ولكن شعبنا، شعبنا الإنجليزي. لقد تنصَّل شبابنا من واجبهم، وتهرَّب فلاسفتُنا وكتَّابُ المقالات من واجبهم أيضًا. لقد تحدثنا بخَواءٍ عن السلام والاتفاقيات، وعرَفنا جيدًا أننا كنا نعيش في أوقاتٍ كانت فيها الطبيعة البشرية والدمُ الأحمر لا يزالان هما العنصرَين المسيطرَين. وشاهدنا ألمانيا تتسلَّح وتستعد. فالتفتنا من أجل الراحة تجاه زملائنا الخطاة، أمريكا، وثرثرنا حول الاتفاقيات والتحكيم، ومئات الأفكار التجريدية السخيفة الأخرى. يمكن للأب مشاهدةُ عقاب طفله يا مسيو جيو. صدِّقني، هناك العديدُ من الإنجليز بجانبي الذين سيشعرون بالرضا الحزين لتأديب بلادهم، والكثير منهم أكثرُ وطنيةً، حتى، مني أنا.»

تغاضى مسيو جيو عن الجانب الشخصي للمسألة. وقد طاف عقله بالفعل بسرعة على طريق مستقبله المبهر.

وغمغم قائلًا: «هذه هي الفرصة التي تأتي لقلَّة من الرجال. هناك ديجان وجاردين وديبونو وسن، بالإضافة إلى أتباعي. وصحيفتي الخاصة، أيضًا! إنها حملة رائعة، وهذا ما سأبدأ به.»

نهض جرانيت واقفًا.

وقال معترفًا: «بعد اليوم سأتنفَّس بحُريةٍ أكبر. كان هناك أعداء يضغطون عليَّ بشدة، وكنتُ أمشي في خوف. واليوم أنا رجل حر. توخَّ الحذر، يا مسيو. توَخَّ الحذر خاصة أثناء وجودك في إنجلترا.»

مد مسيو جيو يده.

وقال: «يا صديقي الشاب، في السنوات القادمة ربما نلتقي في باريسنا الرائعة، وإذا لم أُخبر العالم بهذا، فمع ذلك سوف أشعر، ونحن ننظر إلى عظَمتها، أنك وأنا معًا قد أنقذنا فرنسا. إلى اللقاء!»

شقَّ جرانيت طريقه عبر الممرِّ الخالي، وطلب المصعد ونزل إلى البهو. بينما ترتسمُ ابتسامةٌ على شفتَيه. لقد أوقدت الشعلة أخيرًا! ومن ثَم صادف في بهو الفندق مجموعةً من الضيوف الذين يتوجهون للتو نحو غرفة الغَداء. وأسرعَت نحوه شخصية طويلة، مألوفة للحظة من أحد الجوانب. فخفق قلبه قليلًا. حيث مدَّت جيرالدين يدها وهي ترتدي قفازًا مكسوًّا باللؤلؤ.

وقالت: «كابتن جرانيت، أريد أن أُخبرك بشيء.»

فأجاب بلهفة: «أجل ما هو؟»

نظرَت إلى المكان الذي كانت فيه المجموعةُ الصغيرة من الناس في طريقهم بالفعل إلى السلالم.

وقالت، بصوتٍ خفيض: «يجب ألا أبقى ثانيةً واحدة، لكنني أردت أن أخبرك ... أنا لم أعد مخطوبةً للميجور طومسون. إلى اللقاء!»

تسارع زخمٌ من الكلمات على شفتَيه لكنها انصرَفت. فتابع جسدَها النحيل الرشيقَ وهي تمرُّ بسرعة عبر الردهة وتنضمُّ إلى أصدقائها. حتى إنه سمع ضحكتها الرقيقة وهي تُحيِّي أحد الرجال الذين انتظروها.

قال جرانيت لنفسه بلهجة المنتصر وهو يستدير نحو الباب: «بكل تأكيد، هذا يوم سعدي!»

الفصل الرابع عشر

كان مسيو جيو رجلًا ذا مِزاج عاطفي. إذ ظل أكثرَ من ساعة بعد أن تركه جرانيت، يذرع غرفته الصغيرة ذَهابًا وإيابًا، كما وقف أمام النوافذ العالية التي تُطل على نهر التيمز، وهو يرفع يديه فوق رأسه ويُحدق بعيونٍ وامضة نحو المستقبل — ويا له من مستقبل! لقد كان طَوال حياته يُجيد وضع الخطط، حيث تتجه عيناه نحو الأشياء الكبيرة، ولكن على أن يحتلَّ دائمًا المكان الأبرزَ في وسط الساحة. وكان وطنيًّا، بطريقةٍ ما، ولكنها كانت أوضعَ طريقةٍ وأتْفهَها. لم تكن هناك فرنسا كبرى بالنسبة إليه إذا لم تكن شخصيته هي الشخصيةَ القيادية فيها. وفي كل حلمٍ بهذا المستقبل الرائع، بفرنسا أكثرَ روعةً وانتصارًا، رأى نفسَه على قمة الشهرة، وقد أشاد به الملايينُ لأنه الرجل العظيم القوي، المحرِّر. وقد عاشت فرنسا خارج إطار نفسه فقط كخيال. والآن أخيرًا حانت فرصته. وهكذا مرت الدقائق دون أن يشعر بها، بينما هو يبني طريقه نحوَ المستقبل. وهو رجل داهية يجيد تقدير الأمور؛ لذا حدَّد ملاحظات بالأخطار الخفية التي يجب أن يتجنبها. كما حدد واحدًا تِلو الآخر من الرجال الذين سيضعُ ثقته فيهم تدريجيًّا وبحذر. وفي النهاية، رأى المخطط بأكمله مكتملًا، وأُلقيت القنبلة، ومنحت فرنسا بشكلٍ هستيري الأمجادَ إلى الرجل الذي جلب لها سلامًا غيرَ متوقَّع.

رن جرس الباب. فردَّ وفتحه بعصبيةٍ بعض الشيء. ليجد شابًّا فرنسيًّا نحيفًا، يرتدي ملابسَ أنيقة، وكان وجهه مألوفًا بطريقة أو بأخرى.

واستفسر الوافد بدماثة: «مسيو جيو؟»

أجابه جيو بانحناءة. فقدم له الشابُّ بطاقة.

وقال: «أنا البارون دي أفينيون، السكرتير الثاني في السفارة هنا.»

أمسك مسيو جيو البطاقة ونظر إلى زائره. وقد أصابته حيرةٌ شديدة. وبدأ بعض الإحساس الخافت بالتشاؤم يتسلَّل إليه.

ودعاه قائلًا: «تفضَّل بالدخول، يا سيادة البارون. ألن تجلسَ وتشرحَ لي سبب تشريفك لي بالزيارة؟ أنت لا تظنني شخصًا آخر، بأي حالٍ من الأحوال، أليس كذلك؟ أنا مسيو جيو، مؤخرًا، للأسف! من ليل.»

ابتسم البارون قليلًا بينما يبعد الكرسي.

وقال: «ليس هناك خطأٌ يا مسيو جيو. لقد جئت إليك برسالةٍ من مديري. حيث يُشرفه كثيرًا أن تُرافقني إلى السفارة. فهو يودُّ الحديث معك بضع دقائق.»

كرَّر مسيو جيو الكلماتِ على نحوٍ غير مصدق: «هل قلت معي أنا؟ لكن لا بد أنَّ هناك خطأً ما.»

قال الشاب في إصرار: «ليس هناك خطأ، أؤكد لك ذلك.»

تراجع مسيو جيو قليلًا إلى داخل الغرفة.

واحتجَّ قائلًا: «ولكن ما شأني أنا بالسفير، أو بالأمور الدبلوماسية من أي نوع؟ أنا هنا في مهمة عمل؛ لأرى ما يمكن إنقاذُه من حُطام أعمالي. إن السيد السفير يُخطئ بيني وبين شخصٍ آخر.»

هز البارون رأسَه.

وقال في إصرارٍ: «لا يوجد خطأ، يا سيدي العزيز.» وأضاف، مع انحناءة: «نحن جميعًا نُدرك الضروريات التي تُجبر أكثرَنا شهرةً على العيش أحيانًا في ظل عدم الكشف عن هُويته. وإذا لم يجد السفير الكثير ليقوله لمسيو جيو من ليل، فأنا متأكد من أنه سيُصبح مهتمًّا جدًّا بإجراء محادثةٍ قصيرةٍ مع مسيو هنري بايليتون.»

ساد صمتٌ قصير، ومتوتر. وتبدل الرجلُ الذي أطلق على نفسه اسم جيو. وتبدَّدَت الأحلام التي صَحِبَته إلى المستقبل قبل دقائق قليلة. وعاد ليعيش في الوقت الحاضر — وهو حاضرٌ قبيح ونذيرُ شؤم. وقد نفرت العروق على جبهته وعلى ظهر يدَيه، ولمعت أسنانه تحت شاربه الأشعثِ الأبيض. ثم تمالك نفسَه.

وقال: «هناك خطأٌ ما، لكنني سأذهب معك.»

ومن ثَم غادرا الفندق في صمتٍ وتوجَّها إلى السفارة، وفي صمتٍ وجَّه الشاب الرجلَ الذي في عهدته إلى القاعة الكبيرة والفخمة في الطابق الأرضي من السفارة، حيث كان السفير

يعطي تعليمات لاثنين من السكرتارية. وأشار لهما بيده كي ينصرفا، ثم انحنى بدماثةٍ لتحية زائره. ولم يعد هناك أيُّ ذريعة من جانب مسيو جيو. لقد أدرك عدم جَدْواها تمامًا.

بادر السفير قائلًا: «مسيو بايليتون، هل لك أن تتفضَّل بالجلوس؟ إنه لطفٌ منك أن تمتثل بسرعةٍ لاستدعائي.»

فقال الأخير: «لم يكن لدي أيُّ فكرة، أن هناك مَن يعلم بوجودي في إنجلترا. أنا هنا في عملٍ خاص.»

انحنى السفير بدماثة.

«بالضبط يا صديقي! كما ترى، أنا أستخدم كلمة «صديقي» لأنه في وقتٍ مثلِ هذا، يجب على جميع الفرنسيين أن ينسَوا خلافاتهم، ويعملوا معًا من أجل خير بلدهم وشرفه. أليس كذلك، يا سيدي؟»

قال السيد بايليتون ببطء: «هذا صحيحٌ بالفعل. قد نعمل بطرقٍ مختلفة، ولكننا نعمل لتحقيق الهدف نفسِه.»

تابع السفير قائلًا: «لم يشكَّ أحدٌ في وطنيتك قطُّ، يا مسيو بايليتون. وأنا لديَّ امتيازٌ الآن أن أضعها على المحكِّ. هناك القليل من سوء الفَهْم في البرازيل، وستجد كل الموضوع، وكذلك وجهات نظر حكومتِنا، موجودًا في مظروفٍ صغيرٍ من الوثائق، تراه على هذه المنضدة. ضَعْه في جيبك، يا مسيو بايليتون. وسأطلب منك أن تخدمَ بلدك بالسفر إلى ليفربول بعد ظهر اليوم، ثم إلى البرازيل غدًا على متن الباخرة هيرميس.»

كان السيد بايليتون قد فُوجئ قليلًا بزيارة البارون. لكنه يجلس الآن كرجلٍ غارقٍ في الذهول. كان مندهشًا للغاية لدرجة أنه لم يستطع أن يجد أيَّ مغزًى شريرٍ في هذه المهمة. وكل ما أمكنَه فقط أن يلهث. إذ بدا أن صوت السفير، وهو يتكلم بسلاسة، يصل إليه من مسافةٍ بعيدة.

تابع الأخيرُ قائلًا: «قد يكون الأمر مخالفًا بعض الشيء لرغباتك، يا صديقي، أن تجد نفسك بعيدًا جدًّا عن نبض كِفاحنا العظيم، لكن في هذه الأيام أفضل خدمة يمكن أن نُقدمها هي أن نُطيع. وهي رغبة أولئك الذين يُدافعون عن فرنسا أن تأخذ ذلك الظرف وتُسافر على متن تلك الباخرة.»

بدأ مسيو بايليتون بدرجةٍ ما أن يتمالكَ نفسه. ومع ذلك، كان لا يزال، في حيرةٍ من أمره.

ومن ثم احتجَّ قائلًا: «مسيو، أنا لا أفهم. إن هذه المهمة إلى البرازيل التي تتحدث عنها ... لا يمكن أن يكون لها أهميةٌ كبيرة. ألا يمكن أن يُعهَد بها إلى رسولٍ آخر؟»

كان الرد الحاسم: «للأسف! هذا غيرُ ممكن، يا سيدي العزيز. إنه أنت — يا مسيو بايليتون — الذي يرغب الرئيس في سفره إلى البرازيل.»

كان الضوء مسلَّطًا على بايليتون. فضم قبضتَيْه.

وصاح: «إنني أُزاح عن الطريق! إن الرئيس يخافني سياسيًّا، إنه يخشى من أتباعي!»

انتصَب السفير في جلسته قليلًا، وشد قامته. وبدا أن كلماته أصبحت فجأةً مشحونةً بثقلٍ أكبر.

وقال: «مسيو بايليتون، الشيء الوحيد الذي تخشاه فرَنسا هو الخيانة!»

تشبَّث بايليتون بكرسيِّه. ودارت الغرفة للحظةٍ أمام عينَيه.

وسأل: «هل هذه إهانة، يا سعادة السفير؟»

كانت الإجابة الصارمة: «اعتبرها إهانةً إذا كان هناك ظلُّ خيانةٍ في قلبك تجاه فرَنسا القائمة اليوم، تجاه قضية الحلفاء كما هي اليوم.»

قال بايليتون، وهو ينتفضُ واقفًا: «أنا أرفض قَبول هذه المهمة غير العادية. يُمكنك إرسال مَن تريد إلى البرازيل. إن أمامي أمورًا أهمَّ.»

هز السفير كتفَيه.

وقال: «لن أضغط عليك. سأضع البديل أمامك فقط. أنت في هذه اللحظة تقف على أرضٍ فرنسية. وإذا رفضتَ هذه المهمة التي عرضت عليك، فسأحتجزك هنا إلى أن أتمكنَ من إرسالك تحت حراسةٍ إلى فرنسا.»

صاح بايليتون بغضب: «تحتجزُني؟ بأي تهمة؟»

كان الرد الهادئ: «بتهمة الخيانة. سآمُر بتجريدك من ملابسك وتفتيشك في هذه الغرفة. وبتفتيش أمتعتِك وغرفتك في فندق ميلان. والآن، ما هو ردُّك يا مسيو بايليتون؟»

ومرةً أخرى أُصيب الرجلُ بالحيرة. لكن هذه المرة، رغم ذلك، كانت حيرة من نوعٍ مختلف. فأخذ يُفكر للحظة بثبات. تُرى مَن يمكن أن يكون قد خانه؟

ثم سأل بحدَّة: «ما طبيعة الوثيقة، يا سيدي، التي تتوقَّع أن تجدها بين أشيائي؟»

أجاب السفير ببطءٍ: «عرض سلام رسمي من ألمانيا إلى الشعب الفرنسي. هذه هي المحاولة الثانية التي حاوَلوها. إذ مُزِّقت الوثيقة إلى قطعٍ صغيرة في المحاولة الأولى أمام وجه الشخص الذي كانت لديه الوقاحةُ ليُقدمها. أما الوثيقة الثانية، يا مسيو بايليتون، فهي في حوزتك. يُمكنك الاحتفاظ بها إذا أردت. فلن تجد لها فائدةً تُذكر في البرازيل.»

طوى السيد بايليتون ذراعَيه.

وقال: «أنا مواطن فرَنسي. وما أفعله، أفعلُه من أجل فرنسا.»

«هل ترفض مهمتي، إذن؟»

«أجل أرفضها.»

رنَّ السفير الجرسَ الموضوعَ على منضدته. فجاء أحد السكرتارية على الفور.

وأمره مديره قائلًا: «أرسل إليَّ الكولونيل ديفارج في الحال.»

ساد الصمت وقتًا قصيرًا. حيث انشغل السفير بالكتابة على منضدته. ولم يقل بايليتون، الذي كان يتنفس بصعوبة، أيَّ شيء. وبسرعة حضر ضابطٌ يرتدي الزيَّ الفرنسي.

فقال السفير، وهو يمد يده نحوَ بايليتون: «سيدي الكولونيل، ستتولى أمر هذا الرجل، الذي ستعتبره قيد الاعتقال. وأنا أتحمل المسئولية الكاملة عن هذا الإجراء. وستأخذه إلى مكتبك هنا وتُفتشه. وستُحضر إليَّ أيَّ وثيقة تجدها في حوزته. وعندما تنتهي، أبلغني وسأمنحُك تفويضًا للذَّهاب إلى غرفته في فندق ميلان. هل فهمت؟»

«بالتأكيد، سعادة السفير.»

أدَّى الضابط التحية العسكرية وتحرَّك نحو بايليتون.

وسأله: «ستأتي معي بهدوء، يا سيدي، أليس كذلك؟»

لوَّح له بايليتون كي يبتعد. والتفتَ إلى السفير.

واتخذ قرارَه قائلًا: «يا سيدي، سأذهب إلى البرازيل.»

الفصل الخامس عشر

غواصتان ألمانيَّتان أُخريان تغرقان بكامل طاقمَيهما.

أشار تقرير قيادة البحرية الملَكية إلى أنهم قد تلقَّوا الليلة الماضية رسالةً من القبطان كونيرز قائد المدمِّرة سكوربيون يُعلن فيها أنه دمَّر الغواصتَين الألمانيتين يو ٢٢ ويو ٢٧، بكامل طاقمَيهما.

صاح الأدميرال، وهو يضع الصحيفة جانبًا بعد عدة أيام: «يا إلهي! لقد فعلها رالف هذه المرة، ولا خطأ.»

نظرت جيرالدين من فوق كتفه، وخداها متوهجان.

وقالت: «لقد علمت الخبرَ في الساعة السابعة. لقد أحضر لي هاريس الصحيفة بالأعلى. إنهم جميعًا فَرِحون للغاية حيالَ ذلك في المطبخ. وكنت أنت قد خرجتَ للتو إلى الحديقة.»

حاول الأدميرال التخمين وهو يقول: «أريد أن أعرف كيف أُنجِزَت المهمة. لا يمكن أن تكون الغواصات بكامل سرعتها ما دام قد استطاع تدمير اثنتين منها، وهما لم تصعدا بالتأكيد إلى السطح طواعية، مع وجود مدمرةٍ بالقرب منهما.»

ألقت جيرالدين نظرةً سريعة حول الغرفة للتأكُّد من أنهما وحدهما.

ثم قالت: «ألا تتذكَّر عندما كنت أنا وأوليف في بورتسماوث؟ لقد كان رالف متكتمًا للغاية بشأن هذا الأمر، لكنه أعطانا تلميحًا إلى أن لديه مفاجأةً صغيرة على متن مدمرته من أجل الغواصات. حيث كان هناك شيءٌ ما على سطحها، مغطًّى بالكامل ويُراقبه أحدُ الحراس، وقبل أن نجلس لتناول الغداء مباشرة، كما تعلم، قرَّروا إعادتنا إلى الشاطئ واضطُررنا إلى الذَّهاب إلى مطعم «شيب». ولن يُخبرنا رالف بكلمة واحدة عن ذلك، لكنني متأكدة من أنه حصل على اختراع جديد أُضيف إلى قدرات المدمرة سكوربيون من أجل محاربة الغواصات.»

قال الأدميرال بمرح: «ربما يكون هناك شيء ما فيها. لقد لاحظت أن المحرِّر المختص بشئون البحرية الملكية في صحيفة «مورنينج بوست» قد أشار بحذرٍ شديد منذ عدة أيام إلى بعض الوسائل السرية للتعامل مع هذه الحشرات.»

دخلت الليدي كونيرز إلى الغرفة على نحوٍ مفاجئ، وفي يدها برقية.

وقالت: «برقية من رالف. استمعا.»

أغرقتُ اثنين من الهمج. المزيد قادم. مع محبتي.

رالف

وهكذا انكبُّوا على البرقية والصحيفة حتى أصبح الفطورُ باردًا. وصار الأدميرال مثل الصبيِّ مرةً أخرى.

وقال، بينما يتناول فطوره المكونَ من اللحم المقدد والبيض: «إذا تمكنا من التخلص من لعنات البحر هذه، وجعل هؤلاء الألمان يخرجون، فستنتهي الحرب قبل شهور من الموعد الذي قد يتوقعه أي شخص. سأذهب إلى مقر البحرية الملكية بعد الإفطار وأرى ما إذا كان لديهم أيُّ شيء ليقولوه. لقد أعطاني رالف تلميحًا عن مخطَّط الشبكة لكنه لم يذكر أي شيء آخر على الإطلاق.»

رن جرس الهاتف في الغرفة المجاورة، واستدعى أحد الخدم جيرالدين.

وقال: «الكابتن جرانيت يرغب في التحدث إلى الآنسة كونيرز.»

تركت جيرالدين مكانها في الحال، وسارعت إلى المكتبة. والتقطت السماعة.

وسألت: «هل هذا أنت، يا كابتن جرانيت؟»

أجابها قائلًا: «لقد شعرت أنه يجب عليَّ الاتصال بك، لتهنئتك، يا آنسة كونيرز، على بطولة أخيك. لقد قابلت ستةً من زملائي الجنودِ هذا الصباح فقط ممن يتحدثون عن الأمر، ونحن ببساطة نكاد نُجنُّ من الفضول. هل تعتقدين أنه سيجري إخبارنا قريبًا كيف حدث ذلك؟»

أجابت جيرالدين: «سيذهب أبي إلى مقر البحرية الملكية ليحاول اكتشاف ذلك. أما رالف فهو لا ينطق بكلمةٍ سوى أنه أغرقهم. لقد وصلتْنا برقيةٌ منه هذا الصباح.»

استطرد جرانيت قائلًا: «لا يُهم كثيرًا في الواقع، ما دمنا نتخلَّص من الهمج. لقد كنت متأكدًا تمامًا، عندما كنا في بورتسماوث، أن أخاكِ لديه شيءٌ ما في جعبته. إن المرء تتملَّكه

الإثارة، أليس كذلك، عندما يكون على الشاطئ ولا يفعل شيئًا، بينما يقرأ أشياءَ من هذا القبيل؟»

قالت له مشجعة: «ستعود إلى العمل مرةً أخرى قريبًا.»

تنهَّد قائلًا: «لا أعرف. إنهم يتحدثون عن منحي مهامَّ داخل البلاد بعيدًا عن الجبهة، ولا أعتقد أنني أستطيع الاستمرار فيها. هل ستتنزَّهين في الحديقة هذا الصباح، يا آنسة كونيرز؟»

تردَّدت لحظة.

«كلا، سألعب الجولف في رانيلا.»

«هل يُمكنني زيارتكِ بعد ظهر اليوم؟»

أجابَتْه قائلة: «إذا أردت. لكن بعد الساعة الرابعة؛ لأنني سأتناول الغداء بالخارج.»

أجاب بامتنان: «شكرًا جزيلًا لك.»

وضعت السماعة مرةً أخرى، وعادت إلى غرفة الإفطار.

وقالت: «لقد أراد الكابتن جرانيت فقط أن يُهنئنا جميعًا، وأن يعرف ما إذا كان بإمكانه أن يأتيَ لتناول الشاي بعد ظهر اليوم.»

اقترح الأدميرال بترحاب: «من الأفضل أن تَدْعيه على العشاء، يا عزيزتي. إنه شاب لطيف، جرانيت. ولطيفٌ منه للغاية أن يتصل بنا.»

لم تُدلِ الليدي كونيرز بأي تعليق. بينما انحنت جيرالدين فوق طبقها. ونهض الأدميرال واقفًا. لقد كان متحمسًا للمغادرة أكثرَ من متابعة المحادثة.

وتابع قائلًا: «سأذهب إلى مقر البحرية الملكية وأرى ما إذا كان بإمكاني الإمساكُ بويلكوك العجوز. إذا لم يخبرني بأي شيء، فسوف أعتصرُ رقبته.»

غادر الأدميرال المنزلَ بعد بِضع دقائق، وسارت الليدي كونيرز وهي تتأبَّط ذراعَ ابنتها إلى غرفة الاستقبال الصغيرة الممتعة التي تُطل على الميدان. ثم توقفت الأمُّ لحظة كي تنظر في صورة طومسون، الموضوعةِ على إحدى الطاولات الجانبية. ثم أغلقت الباب.

وقالت: «جيرالدين، أنا لست سعيدة جدًّا بما حدث بينكِ أنت وهيو.»

سألتها الفتاة وهي تنظر من النافذة: «لماذا يا أمي؟»

تابعَت الليدي كونيرز بهدوء: «ربما لأنني معجبةٌ بهيو، وربما، أيضًا، لأنني لست واثقةً من أنكِ قد تصرفتِ بحكمة. فأنت لم تعطني أي سببٍ حتى الآن لفسخ خطوبتك، أليس كذلك؟»

صمتَت جيرالدين للحظة. ثم عادت وجلست على البساط عند قدمَيْ والدتها. وأبقَت وجهها، مع ذلك، في الاتجاه الآخر بعض الشيء.

ومن ثم قالت بتمعُّن: «من الصعب جدًّا أن أصف الأمر بالكلمات، يا أمي، فقط إن هيو لم يُبدِ قطُّ أنه يمنحني أيًّا من ثقته. بالطبع، إن عمله مملٌّ للغاية، حيث يعتني بالمستشفيات وهذا النوع من الأشياء، لكن مع ذلك، كنت أرغب في محاولة الاهتمام به. لا بد أنه قد رأى أشياءَ مثيرة في فرنسا، ولكن المرء لا يدرك حتى أنه اقترب من الجبهة، إلا بالصدفة البحتة. إنه صامت للغاية، وكتوم للغاية.»

تناولت الليدي كونيرز عمل الإبرة الخاص بها.

وقالت: «بعض الرجال هكذا، يا عزيزتي. إنه مِزاجيٌّ فقط. ربما أنت لم تُشجِّعيه على التحدث.»

قالت جيرالدين في إصرار: «لكنني فعلت. لقد سألته الكثير من الأسئلة، ولكن قبل أن يُجيب عن أيٍّ منها بشكل صحيح، أجده يحاول تغيير المحادثة.»

قالت الليدي كونيرز: «إن الرجال لا يُحبون الحديث عن الحرب، كما تعلمين. لقد كان هناك الميجور اللطيف تنديل الذي عاد من الجبهة منذ عدة أيام، وقد حصل على وسام فيكتوريا كروس والله يعرف ماذا يعني الحصول عليه. وهو لا ينطق كلمة عن أيٍّ من المعارك التي خاضها، لكنه مبهج بما فيه الكفاية بشكلٍ عام، أليس كذلك، ومولع بالتحدث؟»

قالت جيرالدين محتجة: «وعلى الرغم من ذلك، فإن عملَ هيو مختلف. يمكنني أن أفهم لماذا لا يحب التحدث كثيرًا عن الجرحى وهذا النوع من الأشياء، لكن لا بد أنه خاض بعضَ المغامرات الشيِّقة.»

قالت الليدي كونيرز: «لا أعتقد أن ألطف الرجال يتحدثون عن مغامراتهم.»

ارتسمت على وجه جيرالدين تكشيرةٌ طفيفة.

وقالت شاكية: «إن هيو لا يتحدث عن أي شيء. إنه يتجول وكأنه يحمل هموم العالم على كتفيه، ثم إن لديه — حسنًا — الوقاحةَ، كما أُسميها، ليُحاضرني عن الكابتن جرانيت. إنه يتحدث عن الكابتن جرانيت بأكثر الطرق سخافة، كما تعلمين، يا أمي.»

قالت الليدي كونيرز: «ربما لديه أسبابُه.»

أدارت جيرالدين رأسها ونظرَت إلى والدتها.

وسألتها: «الآن ما الأسبابُ التي قد تكون لديه لعدم إعجابه بالكابتن جرانيت والاشتباهِ به في كل أنواع الأشياء السخيفة؟ هل عرَفتِ قطُّ في حياتك شابًّا غير مؤذٍ، وبريئًا، ومبهجًا أكثرَ من جرانيت؟»

قالت الليدي كونيرز: «ربما لأنكِ تجدين فيه كل هذه الأشياء، فإن هيو غيرُ معجبٍ به.»

«بالطبع، إذا كان سيشعر بالغيرة من شيءٍ غير موجود على الإطلاق ...»

«هل هو بالفعل شيءٌ غير موجود على الإطلاق؟»

رفعت الليدي كونيرز رأسَها عن عمل الإبرة ونظرت نحو ابنتها. فاحمرَّ وجه جيرالدين فجأة. وتراجعت كما لو كانت جالسة بالقرب من المدفأة.

وقالت: «بالطبع هو كذلك. لقد تعرفت على الكابتن جرانيت منذ مدةٍ قصيرة للغاية. وهو يعجبني بالطبع — إن كل من يعرفه لا بد أن يُعجب به — لكن هذا كل ما في الأمر.»

قالت الليدي كونيرز، بعد لحظة: «هل تعلمين، أتمنى أن يصبح هذا كلَّ ما في الأمر.»

«ولماذا، يا أمي؟»

«لأنني أعتبر أن هيو رجل يُجيد الحكم على الشخصيات. ولأننا نعرف هيو منذ أن كان صبيًّا، بينما نعرف الكابتن جرانيت منذ أسبوع تقريبًا.»

نهضت جيرالدين واقفة.

«أنتِ غير معجبة بالكابتن جرانيت، يا أمي.»

ردَّت الليدي كونيرز بتمعُّن: «أنا لا أكرهه. ولا أفهم كيف يمكن لأحدٍ أن يفعل.»

«هيو يكرهه. وقد ألمح إلى أشياءَ عنه ... أنه غير مؤتمَن ... ثم منعني من إخباره. أعتقد أن هيو كان لئيمًا.»

نظرت الليدي كونيرز إلى الساعة.

وقالت: «من الأفضل أن تذهَبي وتستعدي، يا عزيزتي، إذا كنت قد وعدت بأن تذهبي إلى رانيلا في العاشرة والنصف. هل ستتذكَّرين هذا؟»

وعدت جيرالدين قائلةً: «سأتذكر أي شيء تقولينه، يا أمي.»

تابعت الليدي كونيرز: «أنت فقط مندفعة قليلًا، يا عزيزتي، في بعض الأحيان، على الرغم من أنكِ تبدين عميقةَ التفكير. لا تتسرَّعي في أي استنتاجٍ بشأن هذَيْن الرجلَيْن. في بعض الأحيان كنت أتخيل أن هناك نبعَ شعورٍ هائلًا وراء صمت هيو. وأكثر من ذلك ... أن هناك شيئًا في حياته لا يستطيع التحدث عنه الآن، وهو ما يجعله يعيش في مكانةٍ عظيمة. إن أفكاره التجريدية ليسَت عاديةً كما تعلمين. إنها مجرد فكرةٍ تخصُّني، ولكن في أحد

الأيام ... حسنًا، حدث شيءٌ ظننته غريبًا نوعًا ما. لقد رأيت سيارةً مغلقة تدخل إلى سانت جيمس بارك، ومن الواضح أنه وَفقًا للأوامر، كان السائق يقودها ببطء شديد. بينما جلس رجلان بداخلها يتحدثان بجدِّية شديدة. أحدهما هو هيو؛ والآخر كان — حسنًا — أهمَّ رجل في مكتب الحرب، الذي نادرًا، كما تعلمين، ما يتحدث إلى أيِّ شخص.»

صاحت جيرالدين غيرَ مصدِّقة: «هل تقصدين أن تقولي إنه كان بمفرده، ويتحدث في سرِّية مع هيو؟»

قالت والدتها: «أجل، يا عزيزتي، وهذا جعلني أفكر. هذا كل ما في الأمر. لكنْ لديَّ تخيُّل أنه في يوم من الأيام عندما يحين الوقت المناسب الذي يُسمح فيه لهيو بالتحدث، سيصبح قادرًا على إثارة اهتمامك ... حسنًا، مثل الكابتن جرانيت تمامًا ... والآن يا عزيزتي، أسرعي. هناك سيارة تنتظركِ عند الباب وأنت لم ترتَدِي قبعتك.»

صعدت جيرالدين إلى الطابق العلوي مفكرةً. وبينما كانت ترتدي قفازاتها، نظرَت إلى الموضع الخالي حول إصبعها الثالث. وللحظةٍ شعرَت بغصَّةٍ في حلقها.

الفصل السادس عشر

وقف الرجلان اللذان كانا يَسيران معًا ذراعًا في ذراع من داونينج ستريت، لعدة لحظاتٍ في بال مول قبل الانفصال. وقد تمنى الصحفي الذي كان يمرُّ بالقرب منهما سطوعَ ضوء الشمس في كاميرته. إذ إن مشهد أحد أكبر الخبراء الماليين في المدينة في حوار وثيق مع السيد جوردون جونز، وزير الخزانة، هو مشهد مثير للاهتمام، يكاد يكون تاريخيًّا.

كان الوزير يقول بجدية: «إنه مصدر إرضاءٍ كبير لي، يا سير ألفريد، أن أجد مثل هذا الدعم المَلكي الصادق في المدينة.» وتابع قائلًا، مع قليل من اللمعان في عينيه: «أخشى أن هناك أوقاتًا نادرًا ما أحظى فيها بشعبيةٍ في الأوساط المالية.»

قال له الآخر، مؤكدًا: «لقد كَرِهناك مثل السم.»

قال السيد جوردون جونز: «إن الرأسماليِّين دائمًا ما يكرهون الرجل الذي يُحاول أن يجعل الثروة تدفع نصيبها العادل في دعم الإمبراطورية. كلما زادت ثروة المرء، قلَّت رغبته في التخلي عنها. ومع ذلك، فقد ولَّت تلك الأيام. إذ جعلتم أنتم أيها المصرفيون مهمتي أسهلَ في كل دور. لقد وافقتموني بكل طريقة ممكنة. بالنسبة إليك شخصيًّا، يا سير ألفريد، أشعر أنه سيتعيَّن عليَّ يومًا ما أن أُعبر عن شكري — شكري وشكر الأمة — بشكلٍ ملموس أكثر.»

قال المصرفي: «أنت طيب للغاية. إن أوقاتًا كهذه تُغير كل شيء. ونتذكر فقط أننا إنجليز.»

ومن ثَم أشار الوزير لإحدى سيارات الأجرة المارة، واستقلَّها وانصرف. بينما تمشَّى المصرفي ببطء عبر بال مول ومرَّ عبر بوابات نادٍ رائع المظهر. وتناول منه عاملُ العناية بالمعاطف معطفه وقبعته باحترام كبير. وأثناء عبوره القاعة، بعد تبادل التحيات مع العديد من الأصدقاء، التقى وجهًا لوجه مع الجراح الميجور طومسون. فتوقَّف الأخير.

وقال: «أخشى أنك لا تتذكَّرني، يا سير ألفريد، لكنني كنتُ آمُل أن أحظى بفرصة لشكرك على نحوٍ شخصي من أجل عربات الإسعاف الست التي تبرَّعت بها. أنا الجراح الميجور طومسون، كبير مفتِّشي المستشفيات الميدانية.»

مد السير ألفريد يده بدماثة.

وقال: «أتذكرك تمامًا، يا ميجور. وأنا سعيد جدًّا لأن هديتي مقبولة. أي شيء يمكن أن يفعله المرء للتخفيف من معاناة أولئك الذين يقاتلون في معركتنا، هو واجبٌ لا بد أن يؤديَه.»

فأجاب الآخر: «من حُسن حظنا أن تشعر بهذا الشعور. شكرًا لك مرة أخرى يا سيدي.»

انفصل الرجلان. حيث التفتَ السير ألفريد إلى عامل العناية بالمعاطف.

وقال: «أنا أنتظر وصولَ ابن أخي لتناول العشاء ... الكابتن جرانيت. أحضره إلى قاعة التدخين، من فضلك، بمجرد أن يصل.»

«بكل تأكيد، يا سيدي!»

ثم مر السير ألفريد عبر القاعة الرخامية. أما طومسون، الذي كانت يده على قبعته، فوضعَها على المشجب. وتابع المصرفي الكبير بنظره ووقف للحظة في تفكيرٍ عميق. وبعد ذلك خاطب عامل العناية بالمعاطف.

متسائلًا: «بالمناسبة، يا تشارلز، إذا دعوت شخصًا من غير الأعضاء لتناوُلِ العشاء، فعليك تناوُل العشاء في قاعة الضيوف، أليس كذلك؟»

أجاب الرجل: «بكل تأكيد، يا سيدي. إنها بالضبط تقع خلف قاعة الطعام العامَّة.»

«أفترض أن العضوَ العادي لا يمكنه تناول العشاء هناك بمفرده؟»

«هذا ليس بالمعتاد يا سيدي.»

فاتجه الجراح الميجور طومسون إلى كشك الهاتف. وعندما خرج، تحدث مع كبير النُّدل.

وقال: «احجز لي طاولةً صغيرة في قاعة الضيوف. سأطلب العشاء لشخصين.»

«في أي موعد، يا سيدي؟»

بدا الميجور طومسون أصمَّ للحظة. إذ كان ينظر من خلال الباب المفتوح لقاعة التدخين إلى حيث كان السير ألفريد مستغرقًا في صفحات تقرير.

ثم سأل: «هل هناك الكثير من الناس سيتناولون الطعامَ هناك الليلة؟»

فأجاب الرجل: «السير ألفريد لديه ضيفٌ في الساعة الثامنة، يا سيدي. وهناك العديد من الآخرين، على ما أعتقد، لكنهم لم يطلبوا الطاولات بشكلٍ خاص.»

«في الثامنة والربع، إذا سمحت.» ثم أضاف، وهو يلتفتُ إلى عامل العناية بالمعاطف: «سأكون في قاعة البلياردو، يا تشارلز.»

سرعان ما سئم السير ألفريد من صفحات تقريره وأسند ظهرَه إلى الخلف على كرسيِّه، ويداه مطويَّتان أمامه، محدقًا عبر النافذة نحو الجانب الآخر من الطريق. فنظر إليه الكثير من الناس، الذين كانوا يمرون إلى الوراء والأمام، بفضول. إذ لمدة ثلاثين عامًا أصبح اسمه مألوفًا في المدينة. فهو مسئول، هو والشركة الكبرى التي يرأسها، عن التمويل الدولي المؤسس على أدقِّ المبادئ، التمويل الذي يحتقر المضاربة، التمويل الذي دحرج أمامه كرةَ الثلج الكبيرة للثروة المتراكمة تلقائيًّا. كان والده قد منح لقب بارون الذي يتمتَّع هو به الآن، وهو، كما يعلم جيدًا، قد يرتقي في أيِّ لحظة إلى رتبة النبلاء. كان رجلًا قصيرَ القامة، وممتلئ البِنية إلى حدٍّ ما، مع فكٍّ قوي وعينين زرقاوين حادتَين، يرتدي ملابسَ أنيقة على الطراز القديم إلى حدٍّ ما، مع نظارة ذاتِ إطار عاجي معلَّقة حول رقبته بشريط أسود. كان شعره قصيرًا وخشنًا. لا يمكن لأحد أن يعتبره رجلًا وسيمًا، ولا يمكن لأحد أن يجده غيرَ مميز. حتى من دون معرفة أنه يمتلك الملايين، فإن الأشخاص الذين نظروا إليه أدركوا مظهر السلطة.

سأل رجلٌ رجلًا آخر وهما يجلسان في الزاوية المقابلة: «إني أتساءل ما الذي يُفكر فيه أنسيلمان العجوز.»

كان الردُّ السريع هو: «أكياس المال. إن الرجل يفكر في المال، ويحلم بالمال، ويعيش في المال. إنه يعيش كأميرٍ ولكن ليس لديه ملذَّات. من الساعة العاشرة صباحًا حتى الثانية ظهرًا، يستقرُّ في مكتبه في لومبارد ستريت، وكأن نبض المدينة يتغيَّر في غيابه.»

غمغم الآخر: «أنا أتعجَّب!»

وقد تعجب أناسٌ آخرون، أيضًا. بينما لا تزال العيون الزرقاء الحادة تنظر عبر الجو الضبابي عند المبنى الرمادي المقابل. وقد مر أمامه رجالٌ ونساء في موكب دائم غير مرئي. لم يأتِ أحد ويتحدث معه، ولم يتدخل أحدٌ في تأملاته. حتى الرجلان اللذان كانا يتناقشان حوله خرَجا من القاعة للتو ونظر أحدهما إلى الوراء في اتجاهه.

وقال، أثناء مروره عبر البهو: «في نهاية الأمر، على ما أعتقد، هناك شيء هائل بخصوص الثروة وإلا فلن يُصدقَ المرء أن أنسيلمان العجوزَ هناك كان يفكر في حقائبه المالية. عجبًا،

ها هو جرانيت. أيها الرجل الطيب! لم أكن أعرف أنك قد انضممتَ إلى هذه الصحبة المهيبة من المحافظين القدامى.»

ابتسم جرانيت وهو يُصافحهما.

وقال موضحًا: «أنا لم أفعل. يجب أن تكون مليونيرًا، أليس كذلك، أو سياسيًّا كبيرًا، قبل أن يَسمحوا لك بالانضمام؟ لا مكان للجنود المساكين! يجب أن أكون راضيًا عن مطعم راج.»

قال صديقه بتعاطف: «يا لك من شيطان مسكين! ... أفضل طهو، وأفضل نبيذ في لندن. إن هؤلاء الجنود يعتنون بأنفسهم على نحوٍ جيد. ماذا تفعل هنا، على أي حال، يا جرانيت؟»

رد جرانيت، بسرعة: «أنا سأتناول الطعامَ مع عمي.»

قال له صديقه، وهو يُشير نحو الباب: «إن السير ألفريد هناك، في انتظارك ... لقد كان جالسًا عند النافذة يترقَّبك، في الواقع. مدةً طويلة!»

ومن ثَم غادر الرجلان وأرشد جرانيت إلى قاعة التدخين. وعاد السير ألفريد من أحلامِ يقظته وحيَّاه ابن أخيه بحرارة. وجلس الرجلان قربَ النافذة بضعَ لحظات في صمت.

ثم اقترح السير ألفريد عليه قائلًا: «هل تريد مشروب مقبل؟ كبداية!»

فشربا مشروبَ فيرموث مخلوطًا. والتقط السير ألفريد صحيفة مسائية من جانبه.

وسأل: «هل من أخبار؟»

أجاب جرانيت: «ليس هناك جديد. كل العالم متحمِّس بشأن موضوع الغواصات هذا. يبدو كما لو أننا تمكَّنا من وضع حدٍّ لهؤلاء الهمَج، أليس كذلك؟»

وافق السير ألفريد على ذلك قائلًا: «إن الأمر كذلك بالفعل. لقد دُمِّرت غواصتان، واحدةً تِلو الأخرى، وهما من أحدث فئة، أيضًا، على بُعد أميالٍ قليلةٍ ودون كلمة توضيح. لا عجب أن الجميع متحمسون حيال ذلك!»

قال جرانيت: «إنهم مبتهِجون للغاية في مقر البحرية الملكية، على ما أظن. بالطبع، سوف يتَظاهرون بأنهم كانوا يحتفظون بهذه الخدعة الجديدة أو أيًّا ما قد تكون، في جعبتهم طوال الوقت.»

أومأ السير ألفريد برأسه.

وقال: «حسنًا، تعالَ إلى العشاء، أيها الشاب. سوف تسليني بقصص مغامراتك بينما تُقارن مطبخنا هنا بمطبخ كتيبتك على الجبهة.»

ومن ثم توجَّها إلى قاعة طعام الضُّيوف، وهي قاعةٌ صغيرةٌ ولكنها مبهجةٌ تفتح خارج قاعة الطعام العامة. حيث قادهما كبير الندل بأدبٍ جَم إلى طاولةٍ صغيرةٍ في الزاوية البعيدة من القاعة.

وقال بينما يجلسان: «لقد أطعت رغبتك، يا سير ألفريد. لن يجلس أي شخصٍ آخر في أي مكانٍ بالقرب منكما.»

أومأ السير ألفريد برأسه.

وقال لجرانيت: «نظرًا لعلمي بمَدى تواضعِكم أنتم أيها الجنود في الحديث عن أعمالكم البطولية؛ فقد طلبت أن نحظى بالخصوصية. هنا، أثناء تقديم أطباق العشاء، يمكنك أن تروي لي حكاياتِ الجبهة. إن الأمر برُمَّته يستحوذ على اهتمامي. وأريد أن أسمع قصةَ هروبك.»

ومن ثَم جلسا على الطاولة، وتفحَّص السير ألفريد قائمة الطعام للحظةٍ من خلال نظَّارته. وبعد تقديم أطباق الحِساء أصبحا بمفردهما. فمال قليلًا إلى الأمام ناحية الطاولة.

وقال: «روني، لقد اعتقدت أنه من الأفضل أن أسألك هنا بدلًا من أن أصحبَك في المدينة.»

أومأ جرانيت برأسه.

وقال، وهو يُلقي نظرةً سريعة حوله: «يبدو المكان مناسبًا. حسنًا، لقد انتهى جزءٌ واحد من الخطة الكبرى. لقد عشت مدة أحدَ عشر يومًا غير متأكدٍ تمامًا متى لن أقف وظهري للضوء في سجن تاور. والآن انتهى الأمر.»

«هل قابلتَ بايليتون؟»

«قابلته، وأقنعتُه، وأعطيته الوثيقة. لقد وضع كل خططه.»

«جيد! جيدٌ للغاية!»

تناول السير ألفريد الحساءَ في عدة لحظات كما لو كان أفضلَ حساء على وجه الأرض، ولا شيء آخر يستحق الاهتمام. ثم وضع ملعقته.

وقال: «هائل! الآن اسمع ... بخصوص هذه الغوَّاصات. كان هناك طائرة توب في مكانٍ قريب، ويمكنني أن أخبرك بشيءٍ تتكتَّم عليه البحرية الملكية هنا، ولا تتحدَّث عنه مطلقًا. لقد أُغرِقَت الغواصتان تحت الماء.»

أجاب جرانيت ببرود: «لقد خمَّنت ذلك. ولم أخمِّن ذلك فحسب، بل اقتربت جدًّا من مِفتاح الأمر برُمته.»

جاء نادلٌ مع الطبق التالي، تبعه آخرُ حاملًا شامبانيا. فأومأ السير ألفريد برأسه باستحسان.

وقال: «ضعها مدةَ أربع دقائق فقط في الثلج، ليس أكثر. إن ما تُخبرني به عن البلد الذي صُنع فيه الشمبانيا، يجب أن أعترف أنه مصدر ارتياح»، ثم أضاف، وهو يلتفت نحو جرانيت: «قد لا يُؤثر علينا كثيرًا، لكنني شخصيًّا أعتقد أن العالم بأسره يصبح أكثر سعادةً وأفضل عندما تُصبح الشمبانيا رخيصة. إنها ابتهاج الأمة المعبَّأ في زجاجات. أمة من شاربي جعة الزنجبيل ستهلك قبل أن تصل إلى الجيل الثاني. إنه من نوع ١٩٠٠ بوميري، هذا، يا روني، وأنا أشرب في صحتك. إذا سُمح لي بالتعبير عن مشاعري لحظةً واحدة»، وأضاف، وهو يرفع كأسه: «دعني أقُل إنني أشرب في صحتك من أعماق قلبي، مع كل الإعجاب الذي يشعر به رجلٌ في سنِّي تجاهكم أيها الشباب الذين تُقاتلون من أجلنا ومن أجل بلدنا.»

وشربا النخب في صمت. وبعد لحظةٍ أو اثنتَيْن صارا بمفردهما مرةً أخرى.

فقال عمُّه: «هيا، يا روني. كُلي آذانٌ مصغية.»

فتابع جرانيت: «لقد قابلت كونيرز منذ عدة أيام، وهو الرجل الذي يقود المدمِّرة سكوربيون. وتمكَّنت من الحصول على دعوة إلى بورتسماوث لتناول الغَداء معه على متن مُدمِّرته. حيث ذهبت مع أخته وخطيبته. وعلى متن المدمِّرة كان هناك هيكلٌ من نوع ما مغطًّى. فحاولتُ جَمْع معلوماتٍ عنه لكنهم أبعَدوني بسرعة كبيرة. حتى إنه كان هناك حارسٌ يقف على أهبة الاستعداد أمامه — لم يكن ليسمحَ لي حتى بتحسُّس شكله. ومع ذلك، لم أفقد الأملَ عندما جاءت برقية — بمنع وجود الضيوف على متن المدمِّرة. إذ توجب على كونيرز أن يُعيدنا جميعًا إلى الفندق، دون إمهالٍ حتى لتناول طعام الغداء. ومن الفندق، حصلتُ على منظار مقرِّب، ورأيت زورقًا به نصفُ دستة من العمال، وقائدًا من الواضح أنه مهندس، وصعدوا على متن المدمِّرة. يبدو أنهم كانوا يُكملون تعديلات بعض الأجزاء الجديدة من الآلية. ثم انطلقت المدمرة مبتعدةً عن مرمى البصر من الأرض.»

قال السير ألفريد، بعد لحظاتِ صمت: «إنها حياةٌ صاخبة، تلك التي تحياها، يا روني. وماذا عن المدمِّرة الآن؟ لقد تلقَّيت رسالتَيْن عاجلتَيْن من برلين هذا الصباح.»

قال جرانيت: «إنه أمرٌ صعبٌ للغاية. إن المدمرة سكوربيون تُبحر في القناة أو بحر الشمال. ولا يمكن الصعود على متنها. ولا أعتقد أن هناك مدمرةً أخرى مزودةً بهذا الجهاز، أيًّا كانت طبيعته.»

قال السير ألفريد: «لا بد أنهم يصنعونه في مكانٍ ما.»

أومأ ابن أخيه.

وتمتم قائلًا: «إنه أمرٌ صادم، أن يكون لدينا مائتا رجلٍ منتشرين في تينيسايد، وولويتش، وبورتسماوث، ولم ينجح أحدٌ منهم في التوصُّل إلى ذلك! أمة من الجواسيس، بالفعل! إنهم سُذَّج، يا عمي.»

أجاب المصرفي قائلًا: «ليس هكذا تمامًا. إذ إن لدينا بعضَ التقارير، على الرغم من أنها ليست كافية. يمكنني أن أضعَك على المسار الصحيح. إن الجهاز الذي رأيته هو شيءٌ مثل التلسكوب المعكوس، مع عدساتٍ استثنائية متنوِّعة معالَجةٍ بواسطة عملية جديدة. يمكنك باستخدامه أن ترى إلى عمقِ أربعين قدمًا تحت سطح الماء إلى مسافة ميل، ونعتقد أنه ملحقٌ بنفس الجهاز أداةٌ تجعل أيَّ جسم متحركٍ ضمن نطاق ما يُسمونه بمِدفع المياه العميقة.»

سأل جرانيت بحماس: «هل علمتَ ذلك من التقارير؟»

قال السير ألفريد: «أجل. علاوةً على ذلك، فإن الجزء الرئيسي من الآلة يُصنع تحت إشراف السير ميفيل وورث، في ورشة عمل كبيرةٍ أُقيمت في مزرعته في قرية بالقرب من برانكاستر في نورفولك.»

قال جرانيت: «أنا أسحب إهانتي لفريق عملائنا.»

تابع السير ألفريد بهدوء: «إن مخطَّطات تصميم هذه الآلة لا بد أنها تستحقُّ مائة ألف جنيه. وإذا كان ذلك مستحيلًا، فسيصبح تدميرُ المصنع الصغير هو التصرف التالي.»

سأل جرانيت: «هل سأتدخَّل هنا؟»

أجاب عمُّه: «أجل، يا روني. إن اسم القرية التي يعيش فيها السير ميفيل وورث هو ماركت بيرنهام، التي، كما أخبرتك على ما أعتقد، تقع على بُعد أميال قليلة من برانكاستر. وقد جهَّز جيفري، بإيعازٍ مني، مجموعةَ جولف صغيرةً ودية للذَّهاب إلى برانكاستر بعد الغد. وسوف تُرافقهم. وفي الوقت نفسِه، فإن الآنسة وورث، الابنة الوحيدة للسير ميفيل وورث، تُقيم في لندن حتى يوم الأربعاء. وهي مدعوَّةٌ لتناول الغداء مع عمتك في فندق ريتز غدًا. لقد أجريت بعض الترتيبات الأخرى بخصوص زيارتك إلى نورفولك، ولكني سأحتفظ بها لنفسي في الوقت الحالي. فأنا أرى أن بعض الغرباء قد دخلوا إلى القاعة. قل لي بالضبط كيف أُصبت في قدمك؟»

استدار جرانيت قليلًا. ومن ثَم ارتسم تغييرٌ غريب على وجهه عندما عاد لينظر إلى عمه.

وسأل: «هل تعرف ذلك الرجل الجالس على طاولة الزاوية تلك؟»

نظر السير ألفريد عبر القاعة.

«معرفة بسيطة للغاية. لقد تحدَّثت معه منذ ساعة. وقد شكرني من أجل بعض سيارات الإسعاف. إنه كبير مفتشي المستشفيات، على ما أعتقد، واسمه الميجور طومسون.»

«هل تصادف أن قلت إنني سأتناول الطعام معك؟»

فكر السير ألفريد للحظة.

ثم قال: «أعتقد أنني ذكرتُ ذلك بالفعل. لماذا؟»

دارت فكرةٌ بذهن جرانيت للحظة ثم رفضها. وشرب كأسه بالكامل، وانحنى عبر الطاولة.

وقال هامسًا: «إنه شخص كئيب للغاية بالفعل، ولكن يبدو أنني أصادفه دائمًا. لقد فاجأني نوعًا ما في مرةٍ أو مرتين.»

ابتسم السير ألفريد. واستدعى نادل المشروب وأشار إلى كأس ابنِ أخيه.

وقال بأسلوب جافٍّ، بينما يشاهد النبيذ وهو يُسكَب: «أفضل شيء في العالم من أجل مقاومة التشاؤم.»

الفصل السابع عشر

وقفت الليدي أنسيلمان مرةً أخرى في بهو فندق ريتز وهي تعدُّ ضيوفها. وكان الضيوف أقلَّ عددًا هذه المرة، وأقل تميزًا أيضًا. فهناك اثنان من الضبَّاط، أصدقاء جرانيت، عادا من الجبهة في إجازة؛ والليدي كونيرز، مع جيرالدين وأوليف؛ وجرانيت نفسه؛ وفتاة طويلة، داكنة البشرة، ذات بَشَرةٍ شاحبة وعينَين لامعتين، جاءت مع الليدي أنسيلمان وكانت تقف الآن بجانبها.

سألتها الليدي أنسيلمان بلطف: «أظن أنكِ تعرفين الجميع يا عزيزتي؟»

هزت الفتاة رأسها قليلًا في حزن.

وغمغمت قائلة: «نحن لا نأتي إلى لندن إلا قليلًا، يا ليدي أنسيلمان. أنت تعرفين مدى حدةِ طبع والدي، والآن هو أسوأ من أي وقتٍ مضى. في الواقع، إذا لم يكن منشغلًا للغاية في العمل أعتقد أنه ما كان سيسمح لي بالمجيء حتى الآن.»

فقالت الليدي أنسيلمان: «إن هؤلاء العلماء هم نعمةٌ عظيمةٌ للبلد، لكن كآباء للأسف هم غيرُ مراعين لحقوق أبنائهم عليهم. أيها الميجور هاريسون والكولونيل جراي، اسمحا لي أن أُقدِّم لكما ضيفتي الشابة — لهذا اليوم فقط، مع الأسف — الآنسة وورث. والآن، يا روني، إذا كان من الممكن إقناعُك بمنح الآنسة كونيرز لحظةً من الهدوء، فربما ترشدنا نحو القاعة لتناول الغداء.»

تخلَّى جرانيت على الفور عن محادثته الهامسة مع جيرالدين. وانتقل الجمع الصغير، وأخذوا أماكنهم حول المائدة المستديرة التي تُخصَّص عادةً لليدي أنسيلمان في أيام الثلاثاء.

فقالَت الأخيرة، بينما تجلس على المائدة: «إن بعض الناس يجدونني مخطئةً لأنني مستمرَّةٌ في إقامة حفلات الغداء هذا الموسم. حتى ألفريد لا يأتي إلا بين الحين والآخر. وأنا شخصيًّا، لديَّ آراء قوية حول هذا الموضوع. أعتقد أنه يجب علينا جميعًا الاستمرارُ في

القيام بنفس الأمور كالمعتاد — إلى حدٍّ معيَّن، بالطبع. إذ لا يوجد سببٌ يدعونا إلى جعل مالكي الفنادق وأصحابِ المتاجر على حافة الإفلاس؛ لأننا جميعًا نشعر بقدرٍ أكثرَ أو أقلَّ من البؤس.»

وافق الكولونيل جراي، الجالس بجوارها، على ذلك بقوله: «هذا صحيحٌ تمامًا. أنا متأكدٌ من أنه لن يُفيدنا بشيءٍ ونحن على الجبهة أن نشعر بأنكم كنتم جميعًا جالسين في خيم الخيش والرماد. علاوةً على ذلك، فكِّروا في مدى متعة العودة إلى الوطن كي ...»، وأضاف، وهو ينظر حول المائدة الصغيرة: «يا للروعة! يا لها من فتاة جميلة المظهر الآنسة كونيرز!»

أومأت الليدي أنسيلمان برأسها، وخفَضَت صوتها قليلًا.

«لقد فسخَت خطوبتها للتو من الجراح الميجور طومسون. أتساءل عمَّا إذا كنت تعرفه؟»

قال الآخَر بلا مبالاة: «إنه مفتش المستشفيات الميدانية أو شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟ لقد صادفته ذاتَ مرة في بولونيا. وبدا وكأنه رجلٌ كئيب نوعًا ما.»

تنهدت الليدي أنسيلمان.

ووافقت على ذلك قائلةً: «للأسف لقد وجدته جيرالدين هكذا. ووالدتها محبطةٌ للغاية. لا يسَعُني إلا أن أفكر أنا شخصيًّا، على الرغم من ذلك، في أن فتاة في مثل جمالها يجب أن تحصل على زوج أفضل.»

فكَّر الكولونيل للحظة.

وقال، كما لو كان يتحدث لنفسه: «يبدو لي أنني قد سمعت شيئًا عن طومسون في مكانٍ ما. بالمناسبة، مَن الفتاة الشاحبة ذاتُ العيون الرائعة، التي يحاول ابن أخيك التقرب منها؟»

أجابت الليدي أنسيلمان: «إنها إيزابيل وورث. وهي ابنة السير ميفيل وورث، العالم الكبير. للأسف هي تقضي وقتًا كئيبًا نوعًا ما، فتاةٌ مسكينة. حيث يعيش والدها في قرية نائية في نورفولك، ويقضي كلَّ وقته في محاولة صنع اختراعات، وينسى تمامًا أنَّ لديه ابنة. لقد جاءت لزيارة لندن في بضعة أيام مع عمتها، لكنني لا أعتقد أن السيدة العجوز قادرة على فعل الكثير من أجلها.»

فقال الرجل الجالس بجوارها: «يبدو أن روني يجيد التحاور معها.»

قالت الليدي أنسيلمان: «لقد طلبت منه أن يعتني بها بشكل خاص، وروني دائمًا ما يكون لطيفًا للغاية ويُنفذ ما يقال له.»

انحنى الميجور هاريسون عبر المائدة نحوهما.

وسأل: «ألم أسمعك تذكر اسم طومسون للتو؟ لقد رأيته منذ عدة أيام في بولونيا. كان يسعى بغطرسةٍ رهيبة خلف شيءٍ ما، أيضًا. حيث وصل على متن مدمِّرة، وكانت في انتظاره على رصيف الميناء سيارةٌ حكومية لتُقلَّه بسرعة إلى الجبهة. لقد اعتقدنا جميعًا في بولونيا أن شخصيةً من العائلة الملكية قادمة، على الأقل.»

كان هناك عبوسٌ خفيف على جبين جرانيت. ونظر نظرة عابرة نحو جيرالدين.

بينما تابع الميجور هاريسون، في جهل هائل بالأهمية الخاصة لكلماته، قائلًا: «إن طومسون، من النوع الغامض من الرجال. إذ تراه في باريس ذاتَ يوم، ثم تسمع عنه في أبعد نقطة من الخطوط الفرنسية بعد ذلك مباشرة، وبعد ذلك يُقدم تقريرًا في مقر القيادة في غضون ساعات قليلة؛ ومن ثَم تلتقي به وهو يتسلَّل من الباب الخلفيِّ لمكتب الحرب، بعد يومٍ أو اثنَيْن.»

قال الكولونيل جراي: «إن منصب مفتش المستشفيات الميدانية هو منصبٌ أعتقد أنه لا بد قد أُنشئ من أجله. إنه رجل من النوع الذي لا يُمكن اختراقُه.»

فسألت جيرالدين وهي تنظر عبر المائدة: «هل كان الميجور طومسون ذاهبًا أو عائدًا من فرنسا عندما رأيتَه آخرَ مرة؟»

«لقد كان عائدًا. عندما غادرنا بولونيا، كانت المدمرة التي جلبته تنتظر في الميناء. ثم تجاوزتنا في منتصف القناة، وكانت تُبحر بسرعة نحو ثلاثين عقدة بينما نحن على سرعة ثماني عشرة. كان الأمير سيريل منهكًا إلى حدٍّ ما. لقد كان يحضر تقارير عسكرية ولكن لم يفكر أحدٌ على ما يبدو في توفير مدمرةٍ له.»

غمغمَت الليدي أنسيلمان قائلة: «في نهاية الأمر، لا يوجد شيء أكثرُ أهمية من مستشفياتنا.»

ثم اتخذ الحديثُ مسارًا مغايرًا لموضوع طومسون. بينما كان جرانيت يحاول التقربَ أكثر من إيزابيل وورث. حيث تورد لونُ خدَّيها أكثر بقليل مما كان عليه في بداية مأدبة الغداء، وأصبحَت طريقتها أكثرَ حيوية.

حيث سألها: «أخبريني عن القرية التي تعيشين فيها؟ ... ماركت بيرنهام، أليس كذلك؟»

أجابت: «عندما ذهبنا إلى هناك أولَ مرة، اعتقدت أنها ببساطةٍ جنةٌ. كان ذلك قبل أربع سنوات، ورغم ذلك، أنا لا أفضِّل قضاء الشتاء هناك.»

«أنت تجدينها جميلةً، إذن.»

ارتجفَت قليلًا، وأغمضت نصف عينيها وكأنها تحجب بعض الذكريات غيرِ السارة.

ووضَّحت له قائلة: «إن المنزل يقع على ما يُشبه لسان الأرض، مع وجود نهرٍ يتمتع بالمد والجزر على الجانبَين، والبحر لا يبعد خمسين ياردةً عن نافذة قاعة الاستقبال. وعندما يرتفع المد، نصبح ببساطةٍ معزولين عن البر الرئيسي تمامًا ما لم نمرَّ بواسطة عربة مزرعة ذات عجلات مرتفعة.»

قالت الليدي أنسيلمان: «يجب ألَّا ترسُمي صورةً قاتمةً للغاية لمنزلك. لقد رأيته عندما كان ببساطةٍ مبهجًا للغاية.»

ردَّت الفتاة مع نغمة حزنٍ في نبرة صوتها: «وقد رأيت ذلك، عندما كان يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ المكانَ الآخر؛ سكون يبدو أنه يكبحكِ تقريبًا، وضباب رمادي يخنق أنفاسكِ ويمحو كل شيء؛ لا شيء سوى قَرْقرة القليل من الماء، وتنهدات — أكثر التنهدات حزنًا التي يمكن أن تسميعها — من الريح في شجر الدردار المزق. أنا أتحدَّث عن الخريف والشتاء الآن، يجب أن تتذكَّروا.»

قال جرانيت: «يبدو الأمر غيرَ جذاب. بالمناسبة، على أي جانبٍ من نورفولك يقعُ منزلك؟ أنت لست بالقرب من برانكاستر، أليس كذلك؟»

ردَّت الفتاة بسرعة: «نحن على بُعد أربعة أميال منها. أنت لا تذهب إلى هناك مطلقًا، أليس كذلك؟»

نظر إليها جرانيت بحاجبَيْن مرفوعَين.

وصاح: «هذه مصادفة بالفعل! فأنا لم أذهب إلى برانكاستر مطلقًا في حياتي، لكنني قد وعدتُ زميلًا أو اثنَيْن بالذَّهاب إلى دورمي هاوس هناك، غدًا أو بعد غد، لنلعب الجولف لمدة أسبوع. أحدهما جيف أنسيلمان، على سبيل المثال.»

ازداد جمال الفتاة للحظة. إذ توهجت عيناها، وزادت جاذبية نبرة صوتها.

ورجَتْه قائلة: «ستأتي لزيارتنا، أليس كذلك؟»

وعدَها جرانيت بحماسٍ قائلًا: «إذا وجهت لي الدعوة، فسأصبح سعيدًا. متى ستعودين؟»

«غدًا. هل أنت متأكد تمامًا من أنك ستأتي؟»

أكد لها جرانيت: «سآتي بالتأكيد. لست حريصًا على لعب الجولف مثل بعض الزملاء، ولا يزال ذراعي يتحرك بصعوبة بعض الشيء، لكنني سئمتُ من لندن، ولن يُسمح لي حتى بالمثول أمام المجلس الطبِّي مرةً أخرى قبل أسبوعين؛ لذلك أنا أفضِّل قَبول فرصة الذَّهاب على الفور. إن ملعب الجولف هناك جيد، أليس كذلك؟»

قالت الآنسة وورث بحماسٍ: «إنه رائع، وأعتقد أن مبنى النادي مريحٌ للغاية. غالبًا ما يكون هناك بعض الرجال اللطفاء يُقيمون فيه. لو لم يكن والدي فقط شديدَ التحفظ، لكان المكان شبه مقبول في الموسم»، ثم تابعَت مع تنهيدةٍ بسيطة: «وهذا يُذكرني: يجب أن أحذرك من أبي. إنه أكثر شخص غير اجتماعي على الإطلاق.»

ضحك جرانيت قائلًا: «أنا لستُ قلقًا. بالمناسبة، اعذريني، لكن أليس والدكِ هو السير ميفيل وورث الذي يخترع الأشياء؟ لست متأكدًا تمامًا ما هي تلك الأشياء.» وأضاف: «ربما من الأفضل أن تُخبريني قبل أن آتي؟»

قالت إيزابيل وورث: «لن أخبرك بشيء. الآن من الأفضل جدًّا لك ألَّا تعرف أيَّ شيءٍ عنه. فهو لديه ما أسمِّيه قلقَ المخترعين؛ لسببٍ أو لآخر. وإذا اقترب شخصٌ غريبٌ من المكان فإنه ببساطةٍ يفقد عقله.»

قال جرانيت في حزن: «هل سأصبح في موضع عدم ترحيب، إذن؟»

لمعت عينا الفتاة وهي تُجيبه.

فقالت: «يمكنني أن أؤكد لك أنك ستكون مرحَّبًا بك، يا كابتن جرانيت. وإذا اختار والدي أن يتصرف على نحو فظٍّ، حسنًا، سأحاول التعويض نيابةً عنه.»

ونظرت إليه بشكلٍ مؤثر، فانحنى لها جرانيت بتحية. بعد بضع دقائق وامتثالًا لإشارة الليدي أنسيلمان، اتجهوا جميعًا إلى الردهة، حيث تُقدَّم القهوة. واتجه جرانيت ليجلس إلى جانب جيرالدين، لكنها استقبلته ببرود قليلًا.

فقال موضحًا: «لقد كنتُ أنفذ أوامر عمتي. كانت أوامرها الصارمة هي أن أرفِّه عن فتاة تعيش في منزلٍ يشبه منزل السفاح بلوبيرد، حيث لا يُسمح بالزوار ويحظر الابتسام.»

فنظرت جيرالدين نحوَ إيزابيل وورث.

وقالت: «أنا لم أقابل الآنسة وورث من قبل. أظن أن والدها مخترع ماهر. هل سمعتُك تقول إنك ذاهب إلى خارج المدينة؟»

أومأ جرانيت برأسه.

وقال: «سأسافر بضعة أيام.» وأضاف، وهو يخفض صوته: «سأسافر ظاهريًّا من أجل تغيير الهواء. لكنْ لديَّ سبب آخر للذهاب.»

ثم نظر إليها بثبات، فنسيتْ هواجسها الغامضة التي داهمتها منذ بضع دقائق. في نهاية الأمر، كانت تصوراته صحيحة. إذ من الأفضل له أن يغادر لندن بعضَ الوقت.

فقالت بهدوء: «آمُل أن يُفيدك التغيير. أظن، ربما، أنك على حق في الذَّهاب.»

الفصل الثامن عشر

توقفت سيارة جرانيت، بعد عدة أيام، أمام بوابة تقليدية مخططة بخمسة خطوط، كُتب عليها بحروف بيضاء «ماركت بيرنهام هال». كان يُغلف المكانَ ضبابٌ رمادي خفيف، وكادت معالم البلد أن تتلاشى عن الأنظار. وعلى الجانب الآخر من البوابة، اختفى مسار رملي في طريق مليء بأشجار الدَّردار الممزقة والمتقزمة، مما أدى فعليًّا إلى إخفاء أي منظر للمنزل.

غمغم جرانيت محدثًا نفسه: «يبدو أن الفتاة كانت على حق. ومع ذلك، لنبدأ المهمة.»

وضع سيارته بالقرب من جانب السياج، وأمسك بمزلاج البوابة، استعدادًا لفتحِها. وعلى الفور تقريبًا خرج شخصٌ من بين الشجيرات.

«توقَّف!»

نظر جرانيت بدهشةٍ إلى الشخص ذي الزيِّ العسكري.

سأله الرجل بحدة: «اسمك ووجهتك؟»

أجاب جرانيت: «الكابتن جرانيت من رويال فيوزيليرز، عائدٌ من الجبهة في إجازة. ذاهب إلى هال لمقابلة الآنسة وورث.»

أجاب الرجل: «ابقَ في مكانك، إذا سمحت، يا سيدي.»

وعاد إلى داخل كشك الحراسة، وتحدث عبر الهاتف. ثم ظهر بعد لحظة أو اثنتَيْن.

وقال: «يمكنك المرور، يا سيدي.»

سار جرانيت ببطءٍ في الطريق، وهو عاقدٌ يدَيْه خلف ظهره، وقاطبٌ جبينه. ربما، في نهاية الأمر، لن تسير الأمور بسهولةٍ بالنسبة إليه. على كِلا الجانبَيْن كانت الرمال تُرى، وهنا وهناك تشققات طويلة من المياه المالحة. وبينما يقترب أكثر من المنزل، ازدادت رائحةُ البحر، وازداد انحناء قمم الأشجار أكثر من ذي قبل، وتناثرَت الرمال في كل مكان عبر

أحواض الزهور البائسة. كان المنزل ذاته، الذي ظهر أمام ناظريه فجأةً، عبارة عن مبنًى كئيب المنظر أثَّرت عليه عوامل الطقس، مُقام على حافة لسانٍ أرضي شبيه بالتل، ينتهي بالمنزل نفسِه. وتنكسر موجات البحر على اليارادات القليلة من الشاطئ شبه المتعامد على المياه أسفل النوافذ. وتوجد على يمينه حديقةٌ مسوَّرة وبعض المروج والصُّوبات الزراعية. وإلى اليسار، إسطبلات، ومرآب، وكوخان أو ثلاثة أكواخ للعمال. وتَمَرْكز عند الباب الأمامي جنديٌّ آخر يؤدي مهمة الحراسة. لكنه وقف على أحد الجانبين، وسمح لجرانيت برنِّ الجرس.

فسأله جرانيت: «هل يمكث ضباطٌ هنا؟»

أجاب الرجل: «ضابط واحد فقط، يا سيدي.»

وفُتح البابُ على الفور تقريبًا من قِبَل خادمة. لم تنتظر جرانيت للإعلان عن نفسه، لكنها أشارَت له كي يتبعها إلى قاعة حجرية دائرية كبيرة، قادَتْه عبرها بسرعة، وفتحتْ باب غرفة الاستقبال. كانت إيزابيل وورث تقف داخل الغرفة، وكأنها تستمع. مدَّت يدها ولم يكن هناك شكٌّ في ترحيبها.

قالت بصوتٍ هامس: «كابتن جرانيت، بالطبع ستظن أننا جميعًا مجانين، لكن هل تُمانع في الصعود إلى غرفة الجلوس الصغيرة الخاصة بي؟»

استجاب لها جرانيت وهو يقول: «بالطبع لا. سأذهب إلى أي مكان، بكل سرور. يا له من منظرٍ رائع من هنا!»

ونظر من خلال النوافذ العالية في الطرَف الآخر من الغرفة. فوضعَت أصابعها على ذراعه وقادَتْه نحو الباب.

وهمست: «بهدوء، من فضلك. حاول وتخيل أنك في بيت المتآمِرين.»

قادَتْه عبر سُلَّم حجريٍّ غريب، حلزوني الشكل، إلى الطابق الأول. وعند وصولهما إلى هناك، توقفت لتستمع للحظة، ثم تنفَّست بحريةٍ أكبر قليلًا وقادته إلى غرفة جلوسٍ صغيرةٍ في نهاية ممرٍّ طويل. وهي غرفة صغيرة لطيفة وتُطل بشكل عمودي على البحر. ومن ثَم ألقَتْ بنفسها على الأريكة مع تنهيدة ارتياح، وأشارت إلى كرسي.

وقالت راجية: «اجلس يا كابتن جرانيت. أنا حقًّا لستُ مجنونةً على الإطلاق، لكن والدي مجنون. أتعلم، لقد عدتُ ليلة الأربعاء وقوبلت على الفور بأوامرَ صارمةٍ بعدم استقبال أي زائرٍ من أي نوع، وبالتعامل مع البائعين عند البوابات الأمامية ... في الواقع سيصبح المنزل في حالة حصار.»

بدا جرانيت متحيرًا.

«لكن لماذا؟»

أجابت بضيق: «ببساطةٍ لأن أبي قد فقد رُشده. انظر هنا.»

قادَتْه بحذرٍ إلى النافذة وأشارت إلى أسفل. وعلى بُعد نحو خمسين ياردةً في البحر كان هناك هيكل خشبي غريب، مقام على دعاماتٍ قوية. ومن حيث يقفون، لم يكن هناك شيء يمكن رؤيته سوى جدارٍ بلا نوافذ وسلم من الحبال. وفي الأسفل، رُبط قارب بإحدى الدعامات. وعلى بُعد نحو ثلاثين ياردة، كان هناك رجل يُجدف على مهل في قارب صغير آخر.

وقالت: «هذا هو المكان الذي يقضي فيه والدي نحو اثنتَيْ عشرة ساعة في اليوم. ولا أحدَ يعرف ما يفعله. وهو لا يسمح لي حتى بالتحدث عن الأمر. وعندما نلتقي لتناول وجبات الطعام، لا يفترض بي أن ألمحَ إلى حقيقة أنه كان بالخارج في ذلك المكان المجنون. وإذا حدَث أنه تحدث عنه، فإنه يسميه ورشته.»

سألها جرانيت: «لكن هل هو هناك بمفرده؟»

«أوه، كلا! هناك رجلان أو ثلاثة من لندن، وآخر أمريكي، يعملون معه. ثم هل ترى ركن الحديقة هناك؟»

أشارَت إلى حظيرةٍ طويلة، أو مرآبِ قوارب يُطلُّ على الشاطئ تقريبًا. ويقف أمام الباب اثنان من الحراس. وحتى من حيث تجلس هي وهو كان بإمكانهما سماعُ أزيزٍ خافت لمولِّد كهربيٍّ بداخله.

وقالت: «هناك عشرون رجلًا يعملون بالداخل. وهم ينامون جميعًا في الحظيرة أو في أكواخ أواني الزهور. ولا يُسمح لهم حتى بالنزول إلى القرية. والآن، ربما، يمكنك البدء، أيها الكابتن جرانيت، في فَهْم كيف تسيرُ حياتي هنا.»

فقال: «حسنًا، كل هذا يبدو مثيرًا جدًّا للاهتمام، لكن أظن أنه سيصبح مميتًا بالنسبة لك. إنَّ والدكِ يخترع الكثير من الأشياء الرائعة، أليس كذلك؟»

أجابَت الفتاة بمرارةٍ بعض الشيء: «لو أنه يفعل، فلن يخبرني عن ذلك أبدًا. إن كل ما يُريده مني هو غيابي أو صمتي. عندما عدتُ منذ عدة أيام، كان غاضبًا. إذا كان قد فكر في الأمر، فأنا متأكدةٌ من أنه كان سيجعلني أقيم في لندن. والآن بعد أن أصبحتُ هنا، فأنا مجرد سجينة.»

عاد جرانيت إلى كرسيِّه وأشعل السيجارة التي أصرَّت هي على أن يُدخنها.

وقال: «حسنًا، يبدو الأمر صعبًا عليك، يا آنسة وورث. ومن ناحيةٍ أخرى، من المثير للاهتمام حقًّا، أليس كذلك، أن تعتقدي أن والدكِ رجل الاختراعات الغامضة؟»

فتنهدت الفتاة.

وقالت: «أظن هذا، لكن مع ذلك، كما ترى، يكاد والدي يتسم بالوحشية تجاه منح ثقتِه لأي شخص. فهو لا يُخبر أي شخصٍ حتى أنا بأي شيءٍ أبدًا، أو يشجِّعني على طَرْح سؤال. أعتقد أنني لهذا السبب أصبحتُ أشعر بالاستياء من عمله والقيود السخيفة التي يفرضها على حريتي بسبب ذلك.»

دخلت خادمةٌ الصالونَ مع الشاي، بعد بضع دقائق، وانتقل جرانيت إلى جانب مضيفته على الأريكة. ولم يُظهر المزيدَ من الاهتمام بالأحداث الخارجية. لكنه كان بارعًا في الحوار اللطيف وأدخل البهجةَ على قلب الفتاة تمامًا خلال الساعة التالية. ثم نهض بخفةٍ واقفًا على قدمَيْه.

وقال: «يجب أن أنصرف.»

فتنهدت.

وقالت: «لقد كان من الرائع استقبالُك هنا، ولكن إذا كنت تعرف فقط مدى صعوبة ترتيبِ هذه الزيارة، فستتفهَّم لماذا أتردَّد في أن أطلب منك تَكرارها مرة أخرى.»

فسألها: «لماذا لا تأتين لتناول الغداء معي غدًا في نادي الجولف؟»

فترددت. لكن من الواضحِ أن الاقتراح قد نال إعجابها.

فوافقت قائلة: «أعتقد أنَّني أستطيع؛ فالكابتن تشالمرز لديه سيارةٌ صغيرةٌ يمكنُ أن أستعيرها منه، وإذا أخذت معي مضارب الجولف الخاصة بي، فسيُصبح الأمر على ما يُرام. ومن المحتمل جدًّا أن ينام والدي هناك ولن نراه حتى الغد.»

ذهب جرانيت مرةً أخرى إلى النافذة. حيث أطبق الضباب بشكل أكثر كثافةً من قبل، وأصبح الهيكل الصغير الغريب غيرَ مرئيٍّ تقريبًا. وسقط ضوءٌ ساطع، رغم ذلك، فوق الماء على بُعد مسافةٍ قصيرة.

فقال: «إن والدكِ لديه ضوء كهربي هناك بالخارج.»

قالت له: «أجل، لديهم سلكٌ من الكوخ. أيًّا كان ما يحاول فعله، فهو يحتاج إلى ضوء شديدٍ ومركَّز في بعض الأحيان.»

تنهد جرانيت تنهيدة صغيرة.

وقال: «حسنًا، آمُل أن يكون هذا شيئًا مفيدًا لنا بعض الشيء. فنحن في حاجةٍ إليه. إن الألمان يسبقوننا بأميالٍ فيما له صلةٌ بكل الأفكار الحديثة.»

فتحَت شفتَيْها وأغلقتْهما مرةً أخرى. فشعر جرانيت، الذي ركَّز فجأةً وانتبه بشدةٍ لما كانت ستقوله، بدفعةٍ سريعة من خيبة الأمل.

ثم قالت: «لقد رننتُ الجرس لخادمتي. سوف ترشدك إلى خارج المكان. لا تدعْ أي شخصٍ يرَك، إذا استطعت.»

فسألها: «وماذا عن الغد؟ هل ستتناوَلين الغداء معي؟»

وعدَتْه قائلة: «سآتي إلى نادي الجولف، في الساعة الواحدة.»

أرشدت الخادمة جرانيت خلسةً تقريبًا لطريقه أسفل السلم وعبر المسار. وفي منتصف الطريق إلى البوابة توقف ليستمع. لقد اختفى عن الأنظار الآن بسبب تجمُّع الشفق والضباب المنتشر. ومن خلف المنزل جاء الهديرُ المكتوم للمد والجزر بنعومة، وبإصرارٍ أكثر حدة، أزيز الآلات من مرآب القوارب. فأشعل جرانيت سيجارةً وابتعد وهو يُفكر. وبمجرد ركوبِه السيارة، أدهشَهُ ضوءٌ غريبٌ عبر الأشجار. فوقف وراقب. حيث سُلِّط من أعلى المنزل مصباح كشاف دوَّار ببطءٍ على سطح المياه.

الفصل التاسع عشر

اجتمعَت مجموعة صغيرة مرحة للغاية على العشاء في تلك الليلة في دورمي هاوس كلوب. وقد تكونت من جرانيت؛ وجيفري أنسيلمان، ابنِ عمه، الذي لعب في فريق كامبريدج وتعارك مع اثنين؛ والميجور هاريسون، الذي مُدَّت إجازته لثلاثة أسابيع أخرى؛ وسكرتير النادي الذي أكمل الرباعية.

وسأل الأخير: «بالمناسبة، أين كنتَ بعد ظهر اليوم، يا كابتن جرانيت؟ لقد تركت أنسيلمان ليلعبَ أفضل مبارياتنا. وقد قدم لنا اختباءً جيدًا مبهجًا، أيضًا.»

فقال جرانيت: «لقد خرَجتُ للتجول»، وتابع: «وبعد ذلك غفوت في غرفتي. فالجو رائع هنا في قريتكم، كما تعلم.»

قال الميجور هاريسون: «لقد نمت نومًا عميقًا الليلة الماضية. في أول ثلاث ليالٍ بعد عودتي للوطن لم أستطع النوم قطُّ.»

انحنى جرانيت عبر الطاولة نحو السكرتير.

وقال: «ديكنز، إن الرجل الجالس في الطرف الآخر من القاعة ذو مظهرٍ غريب. من هو؟»

نظر السكرتير حوله وابتسم.

«هل تقصد ذلك الرجل الضئيل ذا النظارة والحدبة؟ لقد وصل الليلة الماضية وطلب لعب مباراة هذا الصباح. هل ترى كم هو مخلوق بائس متغضن المظهر؟ لكنه لعب المباراة بقوةِ اثنَي عشر رجلًا ومسح بي الأرض. هل يمكنك تخمين عدد النقاط التي منحتها له ليتميز عليَّ؟»

أجاب جرانيت: «ليس لديَّ فكرة. أربعون، على ما أظن.»

قال لهم ديكنز: «لم يحصل على أي نقاط، وبدأ عند سانت أندروز. إن اسمه هو كولينز. وليس لديَّ أيُّ معلوماتٍ أخرى عنه. لقد سدَّد حسابه مقدمًا لمدة أسبوعٍ ونحن سعداءُ للغاية لاستقبال الزوَّار في كل هذه الأوقات.»

سأل الشاب أنسيلمان، وهو ينهض: «هل ستلعبون بريدج أم بلياردو؟»

قال جرانيت: «دعونا نلعب بلياردو. فالتمدد عبر الطاولة مفيدٌ لي.»

قال الميجور هاريسون: «لنلعب سنوكر، إذن.»

ومن ثم لعبوا بعضَ الوقت. فجاء الرجل الضئيل ذو المظهر المتغضن ليشاهدَ لعبهم بلطف، وهو يحدق بين الحين والآخر من خلال نظارته، ويُصفق بهدوء لأي ضربة جيدة. وعند الساعة الحادية عشرة، أطفَئوا الأنوار واتجهوا إلى غرفهم. وقبل منتصف الليل بقليل تسلَّل جرانيت، مرتديًا الروب، بهدوءٍ عبر الممر وفتح، دون أن يطرق، بابَ غرفةٍ أمامه. فوجد الرجل الضئيل ذا المظهر المتغضن جالسًا على حافة السرير، وقد خلع سترته. فأدار جرانيت المفتاح في القفل، ووقف لحظةً يستمع، ثم التفت ببطء.

ثم قال بهدوء: «حسنًا؟»

فأومأ ساكنُ الغرفة. وكان قد خلع نظارته فكشف غيابها عن وجهٍ مميزٍ جدًّا. ثم تحدث بهدوء ولكن بوضوح.

«هل استكشفتَ المنزل؟»

أجاب جرانيت: «بقدر ما استطعت. إن المكان تقريبًا في حالة حصار.»

«وهذا يُثبت أننا نسير على الطريق الصحيح، على أي حال. وما هو ذلك الهيكل الذي يبدو أنه يبرز في الماء؟»

سأل جرانيت بحدَّة: «كيف علمت بشأنه؟»

«لقد أبحرت هذا المساء، حيث استأجرت قاربًا في برانكاستر ستاي. وقد رفض صاحبُه أن يذهب إلى أي مكان بالقرب من ماركت بيرنهام، رغم ذلك، وأنا آسفٌ بعض الشيء لأنني حاولت دَفْعه لأن يفعل ذلك. إن لديهم مخاوفَ هنا، بالفعل، يا جرانيت. لقد طلبت منه استئجار القارب مدة أسبوع، لكنه رفض بوقاحة. وقال لي إنه لا يريد وجودَ غرباء حول هذه الشواطئ. وعندما دفعتُ له مقابل وقتٍ ما بعد الظهر كان فظًّا للغاية، وظل ينظر إلى منظاري المقرب.»

عبَس جرانيت بشدة.

وقال: «لن يصبح الأمر سهلًا. لقد سمعت أن البحرية المَلكية ستتولَّى الأمر برُمته في غضون الأيام القليلة المقبلة، وسترسل مُشاة البحرية إلى هنا. كم الساعة الآن؟»

نظرا في ساعتَيهما. فوجدا الوقت قبل منتصف الليل بخمس دقائق. وكما لو كان بموافقةٍ مشتركة، اتجه كلاهما إلى النافذة ووقفا ينظران نحو الظلام. حيث تتنقَّل رياحٌ خفيفةٌ بين رءوس الأشجار، والليل صافٍ لكن بلا قمر. وعلى بعد نحو نصف ميل، كان بإمكانهما تمييزُ ركنٍ من أركان مبنى النادي. فوقفا يُراقبانه في صمت. وعند الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق، أغلق جرانيت ساعته بنقرةٍ واحدة.

وهمس: «ليس الليلة، إذن. يا كولينز!»

«حسنًا؟»

«ما الذي يحدث في ذلك الكوخ الخشبي؟»

خفض الرجل الضئيل صوتَه.

وغمغم: «لقد فقدَتْ ألمانيا غواصتَين في يومٍ واحد. والجهاز الذي تسبَّب في ذلك جاء من ورشة وورث الصغيرة تلك. ومن المحتمل أن تكون المخططاتُ هناك أو في مكانٍ ما من المبنى.»

خفض جرانيت صوته.

وقال: «في الحقيقة لقد كنت على بُعد بضع ياردات من هذا الجهاز. وكان محاطًا من جميع الجهات بسياجٍ من ألواح الخشب المعشَّق.»

«هل تقصد أنه قد سُمح لك بالصعود على متن المدمرة سكوربيون؟»

أومأ جرانيت برأسه.

وقال: «لقد كان حظِّي سيئًا للغاية. فقد أخذتُ الآنسة كونيرز وصديقتها لمقابلة شقيقها، القبطان كونيرز. حيث دُعينا لتناول الغداء على متن المدمرة. وفي اللحظة الأخيرة تقرَّر إعادتنا إلى الشاطئ. ومن خلال منظار مقرب من فوق سطح فندق «شيب» رأيتُ بعض العمال يسحبون ألواح الخشب المعشق، لكنني لم أستطع تحديدَ ماهية الهيكل.»

قال كولينز: «يمكنني أن أعطيك فكرة. لقد توصل ذلك الرجلُ وورث إلى نظام يتكون من عدسات متحدة المركز، مع عاكساتٍ غير عادية تُمكنه من الرؤية بوضوح حتى عمقٍ لا يقل عن ثلاثين قدمًا تحت الماء. ثم إن لديهم آلةَ تسجيل، بموجبِها يُغيرون زاوية انحدار مدفع جديد، مع قذائف تنفجر تحت الماء. كان فون لويتز يحاول التوصل إلى جهاز من هذا النوع في العام الماضي، لكنه تخلَّى عنه بشكل رئيسي؛ لأن كروبس لن تضمنَ له قذيفة.»

غمغم جرانيت قائلًا: «كروبس تخلت عنه مبكرًا بعض الشيء، إذن. يا كولينز، إذا لم نتمكن من تحطيم هذه المؤسسة الصغيرة، فخلال مدة قصيرة ستصبح هناك عشراتُ المدمرات المزودة بهذا الاختراع الجهنمي.»

فوقف الرجل الضئيل أمام النافذة وهو يُحدق بثبات في اتجاه البحر.

وقال بثقة: «سيأتون هنا هذا الأسبوع. من الأفضل أن تذهب الآن، يا جرانيت. لقد انتهى كل شيء لهذه الليلة.»

أومأ جرانيت برأسه وغادر الغرفةَ بهدوء. وبدا أن كل شخص في دورمي هاوس كان نائمًا. فعاد إلى غرفته دون صعوبة. بينما ظل الرجل الضئيل فقط جالسًا عند النافذة، وعيناه مثبتتان على كتلة السحُب القاتمة التي تنخفض فوق البحر.

الفصل العشرون

أسندت إيزابيل وورث ظهرها إلى الخلف في المقعد المريح بجانب جرانيت وتنهدَت تنهيدة رضًا طفيفة. كانت قد استمتعت بحفل الغداء المعدِّ لها هي وجرانيت فقط، وسارا على الرمال بعد ذلك، وهي على استعدادٍ تام للاستمتاع بهذه الرحلة القصيرة بالسيارة في طريق عودتها إلى المنزل.

وغمغمت قائلة: «يا لها من سيارة رائعة سيارتك هذه! لكن أخبرني — ما هذا الشيء الموضوع في الخلف؟»

فقال: «إنه مجرد اختراع تجريبيٍّ صغيرٍ لصديق لي. في يوم من الأيام سنجربه في أحد هذه الجداول. إنه قارب قماشي قابلٌ للطي.»

ضحكت قائلةً: «لا تُجربه في أي مكان بالقرب منا. بالأمس اقترب قاربٌ به اثنان من الصيادين من ويلز قليلًا من الكوخ، فأطلق الجنود وابلًا من الرصاص نحوهما.»

ارتسمت تكشيرةٌ على وجه جرانيت.

وقال: «هل تعلمين أنني أصبحت فضوليًّا بشكل مخيف بشأن عمل والدك؟»

ردت بلا مبالاة: «هل أنت كذلك حقًّا؟ من جهتي أنا، لن أتحمل حتى عناء صعود السلم إلى الورشة.»

قال جرانيت في إصرار: «لكن يجب أن تعرفي شيئًا عما يحدث هناك؟»

أكدت له: «أنا لست مهتمةً في الواقع. إنه اختراع رائع، على ما أظن، لكن لا يمكنني سوى الاستياءِ من أي شيء يجعلنا نعيش مثل النسَّاك، ونشك حتى في البائعين المتجولين، ونتخلى عن الترفيه تمامًا، ونتخلى عن مقابلة أصدقائنا. آمُل ألا تعودَ إلى لندن بسرعة، يا كابتن جرانيت. فأنا لم يكن لدي أيُّ صديق أتحدث إليه هنا منذ شهور.»

فأجاب قائلًا: «أعتقد أنني لن أعود الآن. أريد أولًا أن أنجز ما أتيتُ من أجله.»

أدارتْ رأسها ببطء شديد ونظرت إليه. بينما يزداد تورُّد خدَّيْها.

وسألَتْه بهدوء: «ما الذي أتيت من أجله؟»

ظل صامتًا للحظة. بينما قدمُه بالفعل على فرامل السيارة؛ حيث يقتربان من البوابات المغلقة.

ثم همس: «ربما أنا لست متأكدًا تمامًا من ذلك بعد.»

ثم توقفت السيارة. فنزلتْ على مضض.

وتنهدت قائلة: «أكره ألا أدعوَك للدخول، هذا يجعلني أبدو غير مضيافة. هل تتفضَّل بالدخول لبعض الوقت؟ إن أسوأ ما يمكن أن يحدث، إذا التقينا بأبي، هو أنه قد يصبح وقحًا إلى حدٍّ ما.»

أجاب جرانيت: «سأجازف بكل سرور.»

فسألته، وهي تُحدق في الخلف: «هل يمكنني رؤية قاربك القابل للطي؟»

هز رأسه.

وقال: «هذا ليس سرِّي أنا، وإلى جانب ذلك، لا أعتقد أن صديقي قد حصل على براءة اختراعِه حتى الآن.»

تنحى الحارس جانبًا وسمح لهما بالمرور، رغم أنه نظر بتمعُّن إلى جرانيت. فسارا ببطء في الطريق الوعر إلى المنزل. وتوقف جرانيت لينظر إلى أسفل الذراع الطويلة للبحر على يساره.

وقال: «إن لديكم نهرًا لا بأس به هناك.»

فأومأت برأسها.

«كان هذا هو الممرَّ المائي الرئيسي من قرية بيرنهام. يمكن لقارب كبيرٍ جدًّا النزول الآن عند ارتفاع المد.»

ثم دخلا المنزلَ فبدا على إيزابيل بعضُ الفزع. وتمسكت بذراع جرانيت للحظة. حيث وجدا رجلًا مسنًّا يرتدي ملابسَ سوداء قاتمة ومغبرَّة بشكل مخزٍ، بلا ياقة، مع كتلة من الشعر الأبيض مشعثة في جميع أنحاء وجهه، وهو يسير ذهابًا وإيابًا عبر القاعة ويُمسك بنظارة ذات إطار عاجي في يده. وتوقف عند سماع صوت فتح الباب وهُرع نحوهما. لم يكن هناك شيء في مظهره يدعو للرعب. حيث بدا، في الواقع، كأنما تغمره روحُ الدعابة المتحمسة.

وصاح قائلًا: «إيزابيل، يا عزيزتي، إنه أمر رائع! لقد نجحت! لقد غيرتُ مبادئ أبدية، وأجريتُ التجرِبةَ البصرية الأكثر ذكاءً التي غامر بإجرائها أيُّ عالم من قبل، وكانت النتيجة

— حسنًا، سترين. لقد اتصلتُ بقيادة البحرية الملكية، وطلبت مزيدًا من العاملين. الكابتن تشالمرز، أليس كذلك؟» وتابع قائلًا: «عليك أن تقول لرجالك أن يُضاعفوا ويضاعفوا طاقاتهم. هذا المكان يستحقُّ المشاهدة الآن. تعالي، سأريكِ شيئًا رائعًا.»

ومن ثم استدار وقادهم على عجلٍ نحو الباب الخلفي. فأمسكَت إيزابيل بذراع جرانيت.

وقالت هامسة: «إنه يظنُّ أنك الضابط المسئول عن الفصيلة هنا. من الأفضل أن ندَعَه يستمرُّ في ظنه.»

أومأ جرانيت برأسِه.

«هل سيأخذنا إلى الورشة؟»

قالت: «أعتقد ذلك.»

لقد وجدا صعوبةً في مواكبة السير ميفيل بينما يقودُهم على عجلٍ إلى أسفل الامتداد الصغير من الحصى حيث يجلس رجلٌ في قارب. فقفزوا جميعًا. ونظر الرجل الممسك بالمجاديف في شكٍّ للحظة نحو جرانيت، لكنه انطلق فورًا عندما أُمِر بذلك. واستمر بالتجديف حتى وصلوا إلى مقدمة الهيكل الصغير الغريب. فمد رجلٌ من الداخل يده وساعدهم. بينما جلس شابٌّ آخر، مع كتبٍ مكدسة على الأرض إلى جانبه، وهو يُجري بعض الحسابات على طاولة. وقد احتل مدخل المكان تقريبًا من خلال ما بدا أنه مزيجٌ غريب من التلسكوبات والعدسات موجَّهة إلى اتجاهاتٍ مختلفة. وابتسم السير ميفيل لهما وهو يُدير المقبض على عجل.

ويقول: «الآن، ستشاهدان ما لم يُشاهدْه أحدٌ من قبل. انظرا، سأصوِّب هذا السهم على تلك البقعة، على عمق نحو خمسين ياردة. انظري الآن من خلال هذه، يا إيزابيل.»

انحنَت الفتاة إلى الأمام، وهي صامتةٌ للحظة، ثم أطلقتْ صيحةَ دهشة. وأمسكت بذراع جرانيت وجعلَتْه يأخذ مكانها. فصاح، هو أيضًا، بهدوء. إذ رأى قاعًا رمليًّا مغطًّى بالقواقع، وصخرة بها مجسات أعشابٍ بحرية تطفو منها، وعدة سرطانات ضخمة، وعدد كبير من الأسماك الصغيرة. وكان كل شيء واضحًا ومميزًا. فرفع نظره مع شهقةٍ صغيرة.

وصاح: «رائع!»

فابتسم السير ميفيل ابتسامةً رائعة.

وقال: «هذا هو الجزء الذي توصلتُ أنا إليه. أما في الورشة الأخرى بالأسفل فيجتهد شركائي في الجزء الخاص بهم. لقد حقَّقوا، أيضًا، نجاحًا. يجب أن تُخبر رجالك، يا كابتن تشالمرز، أن يظلوا يقظين. يجب حراسة هذا المكان ليلًا ونهارًا. لقد كان اختراعي السابقُ

خطوةً رائعة إلى الأمام، لكن هذا نجاحٌ مطلق. خلال الأشهر القليلة المقبلة هذا هو المكان الأكثر قيمةً في أوروبا.»

قاطعَتْه إيزابيل قائلة: «إنه ليس الكابتن تشالمرز، يا أبي.»

بدا السير ميفيل فجأةً وكأنه متجمد في مكانه. بينما نظر بثباتٍ إلى جرانيت.

وسأل في حدة: «من أنت إذن؟ من أنت، يا سيدي؟»

أجاب جرانيت: «أنا الكابتن جرانيت من رويال فيوزيليرز، عائد من الجبهة، ومصاب. ويمكنني أن أؤكد لك أنني شخصٌ جدير بالثقة تمامًا.»

قال السير ميفيل بحدَّة: «لكنني لا أفهم. ما الذي تفعله هنا؟»

قال جرانيت موضِّحًا: «جئتُ لزيارة ابنتك. لقد كان من دواعي سروري أن ألتقيَ بها على الغداء في حفل الليدي أنسيلمان منذ عدة أيام. وكنا نلعب الجولف معًا في برانكاستر.»

بدأ السير ميفيل يُغمغم في نفسِه وهو يدفعهما إلى القارب.

ويقول بصوتٍ خفيض: «إنه خطئي — خطئي. كابتن جرانيت، لقد اعتقدتُ أن ابنتي تعرف رغباتي. أنا لستُ حاليًّا في وضعٍ يسمح لي باستقبال الضيوف أو الزوَّار من أي وصف. اعذرني إن بدوتُ غيرَ مضياف. لكنني سأطلب منك، يا سيدي، التفضُّل بنسيان هذه الزيارة، والابتعادَ عن هنا في الحال.»

وعده جرانيت قائلًا: «سأطيع رغباتِك، بالطبع، يا سيدي. ويمكنني أن أؤكد لك أنني شخصٌ غير مؤذٍ، على الرغم من ذلك.»

أجاب السير ميفيل: «أنا لا أشكُّ في ذلك، يا سيدي، لكن الناس غير المؤذين في العالم هم الذين يتسبَّبون في أكبر قدرٍ من الأذى. فبكلمةٍ خاملةٍ هنا أو هناك تُكشف أسرارٌ كبرى. إذا سمحت لي، فسأريك مسارًا أسرع إلى الطريق، دون الذَّهاب إلى المنزل.»

هز جرانيت كتفَيه.

ووافق على ذلك قائلًا: «كما تشاء يا سيدي.»

فقال والدها باقتضاب: «يمكنكِ الدخول يا إيزابيل. سأرشد الكابتن جرانيت إلى الطريق.»

فأطاعته واستأذنتْ من ضيفها بهزةٍ بسيطة لكتفيها. وأخذ السير ميفيل ذراع جرانيت وقاده إلى الطريق.

وقال بجدية: «كابتن جرانيت، أنا شخصٌ غير حكيمٍ وعندي ابنة غيرُ حكيمة. ومع أخذ مهنتك في الاعتبار، يمكنني أن أتحدَّث إليك كرجلٍ لرجل. احتفظ بما رأيته في سريةٍ

تامة. وضع ختمًا على ذاكرتِك. ارجع إلى برانكاستر ولا تنظر حتى في هذا الاتجاه مرةً أخرى. إن الجنود حول هذا المكان لديهم أوامرُ بعدم التعامل على نحوٍ رسمي مع أي شخص، وبحلول الليل ستصبح لدينا هنا حراسةٌ من مشاة البحرية أيضًا. إن ما رأيته يخدم مصلحة البلد.»

أجاب جرانيت وهو يصافحه: «أهنِّئك من كل قلبي يا سيدي. بالطبع سأبتعد، إذا كان من المحتَّم أن أفعل. وآمُل عندما ينتهي كل هذا، مع ذلك، أن تسمح لي بالحضور وتجديدِ معرفتي بابنتك.»

وافق السير ميفيل على ذلك بقوله: «عندما ينتهي الأمر، بكلِّ سرور.»

ركب جرانيت سيارته وانطلق مبتعدًا. بينما وقف المخترع يُراقبه. ثم تحدَّث إلى الحارس، وسار عبر الحدائق باتجاه سقيفة القوارب.

وتمتم: «كان يجب أن أعرفَ ذلك منذ البداية. كان انكسار الضوء المتبادل هو الشيءَ الوحيد الذي يجب التفكيرُ فيه.»

أدرك جرانيت، بينما يقود سيارته عائدًا إلى دورمي هاوس، حدوثَ تغييرٍ غريب في الطقس. حيث توقَّفَت الرياح، التي كانت تهبُّ بشكلٍ أو بآخر خلال الأيام القليلة الماضية، فجأة. كان هناك ثقلٌ جديدٌ في الجو، وانجرفت كتلٌ صغيرةٌ من الضباب الشفاف من اتجاه البحر. وقد أوقف السيارة أكثر من مرة ووقف، ونظر بثباتٍ بعيدًا باتجاه البحر. كان الامتداد الطويل للمَرْج، الذي يوجد عليه ملعب الجولف، فارغًا. بينما يتساقط المطر بشكلٍ خفيف. ومن ثَم وجد، عندما وصل إلى دورمي هاوس، أن جميع الرجال تقريبًا قد تجمَّعوا في إحدى قاعات الجلوس الكبيرة. وجلس بعضهم يلعب البريدج. بينما جلس السيد كولينز على كرسي مريحٍ بالقرب من النافذة، يقرأ تقريرًا. فقبل جرانيت الدعوة على كوب من الشاي ووقف على بساط المدفأة.

وسأل: «كيف كانت مباراة الجولف بعد ظهر هذا اليوم؟»

أجاب أنسيلمان بحزن: «لقد هُزمت شرَّ هزيمة.»

«صديقنا الجالس على الكرسي المريح هناك فاز بالمباراة.»

نظر السيد كولينز إلى الأعلى وأصدرَ صوتًا ساخرًا ثم نظر من النافذة مرةً أخرى.

تابع أنسيلمان الصغير قائلًا: «من منكما يود لعب البريدج؟»

هز جرانيت رأسه وسار نحو النافذة.

«لا أفضِّل لعب البريدج في النهار.»

أغلق السيد كولينز تقريرَه.

وقال: «أنا أتفقُ معك يا سيدي. لقد سعيت لإقناع أحد هؤلاء السادة بلعبِ تسع حفرات جولف أخرى — ولكن دون جدوى، يؤسفني أن أقول ذلك.»

أشعل جرانيت سيجارة.

وقال: «حسنًا، إنه من المستبعد أن نذهب إلى ملعب الجولف مرةً أخرى، ولكني سألعب معك مباراة بولينج، إذا كنت ترغب في ذلك.»

نظر الآخر إلى الساحة العُشبية ونهض واقفًا.

وقال: «إنه اقتراحٌ ممتاز. إذا أعطيتني خمسَ دقائق لجلب معطف المطر وواقي الحذاء، فسألعب معك لأرى ما إذا كنتُ قد استفدتُ من الدروس التي تلقيتُها في اسكتلندا.»

ومن ثَم التقَيا، بعد لحظات، في الحديقة. حيث رمى السيد كولينز الكرةَ بدقة كبيرة، ولعبا مباراةً كان تفوُّقه خلالها واضحًا. وبعد ذلك تجوَّلا معًا عبر الساحة العشبية، بعيدًا عن دورمي هاوس الآن. ولأول مرةٍ ترك جرانيت نبرةَ اللامبالاة.

وسأل بسرعة: «ما رأيك في هذا التغيير في الطقس؟»

أجاب الآخر: «هذا بالضبط ما كانوا ينتظرونه. ماذا عن بعد ظهر هذا اليوم؟»

أجاب جرانيت بلهفةٍ: «أنا لست عالمًا، للأسف، لكنني رأيت ما يكفي لإقناعي بأنَّ لديهم الفكرة الصحيحة. لقد ظن السير ميفيل أنني قائدُ فريق الحراسة التي قدموها له — وفي الواقع أدخلني إلى ورشته وأطلعني على كل شيء. وأؤكد لك إنني رأيت ذلك الجهاز تمامًا كما وصفتَه لي ... لقد رأيت قاع البحر، حتى لون الأعشاب البحرية، والثقوب في الصخور.»

تمتم كولينز: «كما أن لديهم القذائفَ، أيضًا، القذائف التي تنفجر تحت الماء.»

نظر جرانيت حوله. وكانا يلعبان المباراة الأخرى الآن.

وقال: «اسمع!»

توقفا في منتصف الساحة العشبية. ورفع جرانيت منديله ووجَّه خدَّه نحو البحر. كانت هناك نسمة هواء لا تزال تهب ولكن خده كان مغطًّى بالرطوبة.

وقال: «لقد أعددتُ كل شيء. وقبل أن نذهب إلى الفراش ليلًا سأقسم أنني أسمع صوتَ منطاد. هل أنت متأكدٌ من أن ساعتك مضبوطة بالثانية، يا كولينز؟»

أجاب الآخر بحزم: «أنا متأكد من أنها مضبوطة، مثلما أنا متأكدٌ أنني وأنت يا صديقي الشاب، سنلعب بحياتنا هذه الليلة بلا مبالاةٍ أكثرَ من لعبنا بكرة الخزف هذه. رمية جيدة،

على ما أعتقد»، ثم تابع، وهو يقيسها بعينه بعناية. «تعالَ يا صديقي، عليك أن تُحسِّن من أدائك. بدأت تدريباتي في اسكتلندا تؤتي ثمارها.»

فتح جيفري أنسيلمان النافذة ونظر للخارج.

وسأل: «إنه بارعٌ للغاية، أليس كذلك يا روني؟»

نظر جرانيت إلى خَصمِه، ذي الكتفين المنحنيَيْن والوجه القاسي والأنف المعقوف والنظارة الذهبية الرفيعة.

وقال بهدوء: «أجل، إنه بارعٌ للغاية.»

الفصل الحادي والعشرون

في نحو الساعة العاشرة والنصف من ذلك المساء، رمى جرانيت عصاه فجأةً في منتصف مباراة البلياردو، ووقف، للحظة، كما لو كان يسمعُ شيئًا.

ثم صاح، وهو يخرج مُسرعًا من القاعة: «يا إلهي، أعتقد أنَّ هذا منطاد!»

فتبعوه جميعًا. وقف خارج النوافذ الفرنسية في قاعة الجلوس، عند الممرِّ المغطَّى بالحصى، وقد رفع رأسه، وأنصت باهتمام. لم تكن هناك نسمةُ رياح، ولا قمر ولا نجوم. وقد أطبقت سحبٌ صغيرة من الضباب الرمادي على المستنقعات، مما أدى إلى حَجْب رؤيتهم للبحر. وكان السكون أكثر من المعتاد.

وبعد مدةٍ تمتم أنسيلمان الصغير: «لا أستطيع سماع أي شيء.»

فقال جرانيت: «ربما كان الأمر مجردَ تهيؤات.»

قال الميجور هاريسون: «ربما كانت دراجةً نارية تسير عبر طريق هانتستانتون.»

قال ديكنز وهو يُلقي نظرة سريعة على المكان: «إنها ليلة مناسبة تمامًا لشنِّ غارة.»

وقال كولينز بشكلٍ تعليمي قليلًا: «لا توجد فرصة للمناطيد هنا، في رأيي. لقد كنتُ أنظر إلى خريطتكم في نادي الجولف هذا الصباحَ فقط.»

ثم عادوا جميعًا إلى دورمي هاوس. وبدا جرانيت، مع ذلك، غيرَ راضٍ.

وقال لهم: «سأذهب لأطمئنَّ على سيارتي. لقد تركتُها في السَّقيفة.»

ومن ثَم غاب مدة عشرين دقيقة. وعندما عاد، كانوا قد أنهَوا لعبة السنوكر بدونه، وجلسوا في الردهة بجانب طاولة البلياردو، يتحدَّثون عن الحرب. فاستمع جرانيت لبضع دقائق ثم قال لهم على نحوٍ مفاجئ: ليلة سعيدة. وأشعل شمعته في الخارج وتوجَّه ببطءٍ إلى غرفته. وعندما وصل إلى هناك، نظر إلى ساعته وأغلقَ الباب. كانت الساعة الحادية عشرة والنصف. فاستبدل ملابسه بسرعة، وارتدى حذاءً ذا نعل مطَّاطي ووضع قارورةً

من المشروب ومسدسًا في جيبه. ثم جلس أمام نافذته وساعتُه في يده. وكان يشعر بنذير شؤم لم يتمكَّن من الهروب منه منذ وصوله. لقد عاش في فرنسا وبلجيكا ساعاتٍ مصيريةً، وحمل حياته أكثرَ من مرة بين كفَّيه. ومخاطرته في هذه الليلة مشابهةٌ لها، ولكن بدا التحفيز غائبًا. وبدَت هذه المهمة في بلدٍ ينعم بالسلام على مستوًى مختلف. فإذا كانت أقلَّ خطورة، فهي أقلُّ تحفيزًا أيضًا. وفي تلك اللحظات القليلة، اشتاقت دماء الجندي بداخله إلى اضطرابات الحرب، وبانوراما الحياة والموت، والإثارة العنيفة والحارة للتلاعب بالقدر، بينما تبدو السماء نفسُها وكأنها تُمطر الموت من كل جانب. أما هنا فليس هناك سوى الصمت، وصوت تلاطمِ البحر البعيد، ونباح كلب بعيد. كان الخطر حيًّا وحقيقيًّا، ولكن بدون حافز تلك الخلفية الدموية الحمراء. نظر إلى ساعته. ما زالت تنقصها عشرُ دقائق حتى تصل إلى الثانية عشرة. وللحظةٍ سمح لأفكاره بالعودة إلى الشيء الجديد الذي تسلَّل إلى حياته. حيث عاد بالذاكرة فجأةً إلى فندق ميلان، ورأى انعطاف رأسها للخلف، والنظرةَ التواقة في عينَيها وهي تُدْلي بإعلانها الصغير. لقد فسخت خِطبتَها. لماذا؟ لقد كانت معركة، حقًّا مع ذلك الخَصم البارد، الذي هو شبه يحتقره وشبه يخشاه، الرجل الذي شعر بشكوكٍ كثيرة بشأن شخصيته الفعليَّة. ماذا لو ساءت الأمور هذه الليلة، لو سُلِّمت القصة الدرامية بأكملها من أجل المجد للصحافة الصفراء! يمكنه أن يتخيَّل عناوينَهم، ويتخيَّل حتى فقراتهم اللاذعة. كان الأمرُ كما لو أنَّه يتزلَّج على أنحف طبقة جليد — ومن أجل ماذا؟ أمسكت أصابعُه بعتبة النافذة الرطبة. ورفع نفسه لأعلى قليلًا. ثم سقطَت عيناه على ساعته — لا تزال دقيقةٌ أو دقيقتان حتى الثانية عشرة. فتسلَّل ببطءٍ إلى بابه وأصغى السمع. كان المكان صامتًا. ثم شقَّ طريقَه على أطراف أصابعِه عبر الممر ودخل غرفةَ كولينز. كان الأخير جالسًا أمام النافذة المفتوحة على مِصراعَيها. وقد أطفأ شمعته فغرقت الغرفة في الظلام. فالتفت التفاتةً بسيطةً عند دخول جرانيت.

وقال بهدوء: «دقيقتَين! يا جرانيت، سيحدث الأمر الليلة. هل أنت مستعد؟»

«بكل تأكيد!»

فوقَفا في صمتٍ بجانب النافذة المفتوحة. ولم يتغيَّرْ شيء. لم يَحِن الوقت بعدُ لغناءِ الطيور المبكرة. كانَت القريةُ الصغيرة خلفهم صامتةً ونائمة؛ وفي المقدمة لا شيء سوى المروج، وهي غير مأهولة، ومنعزلةٌ وهادئة، ومبنى نادي الجولف فارغٌ ومهجور. وقفا يُراقبان، ووجهاهما ملتفتان بثباتٍ في اتجاهٍ معين. تدريجيًّا أصبحت أعينهم، التي اعتادت على الضوء الخافت والمتغير، قادرةً على اختراق الخط الأسود فوق اللون الرمادي؛ حيث

تتلاطَم أمواجُ البحر مع الرمال بأصواتٍ منخفضة، لتُلقي مع كل موجةٍ بأذرع أطول على الأرض.

غمغم كولينز: «الساعة الثانية عشرة!»

فجأةً اصطدمَت أصابع جرانيت بكتفه. إذ من خلال هذه الظُّلمة المخملية المطبِقة أسفلَ الغيوم، سطع ضوءٌ بَنَفْسَجيٌّ للحظة واحدة. نشأ على ما يبدو من العدم، وتلاشى في الفضاء. كان مرئيًّا بالكاد لمدة خمس ثوانٍ، ثم اختفى. تحدَّث جرانيت مع شهقةٍ قصيرة.

وغمغم قائلًا: «يا إلهي! إنهم قادمون!»

كان كولينز واقفًا بالفعل على قدمَيه. وقد نصَب قامتَه بشكلٍ رائع، وأصبح هناك تأهبٌ جديد في طريقته. هو، أيضًا، كان يرتدي حذاءً مطَّاطيًّا وكانت حركاته بلا ضوضاء على الإطلاق. كما حمل في يده مِصباحًا كهربائيًّا صغيرًا، وجَّهه في جميع أنحاء الغرفة بينما يضع عدة أغراضٍ صغيرةٍ في جيبه. ثم فتح الباب وأصغى السمع. واستدار، ورفع إصبعه وأومأ. فنزل الرجلان على السلم، وعبرا غرفة الجلوس، إلى الحديقة من خلال بابٍ تُرِك مفتوحًا، ودارا حول دورمي هاوس إلى السقيفة. ودفعا السيارةَ معًا إلى أسفل المنحدر الطفيف للطريق. وجلس جرانيت في مقعد القيادة وضغط على مفتاح التشغيل. بينما جلس كولينز إلى جانبه.

همس جرانيت قائلًا: «تذكَّر، لقد سمعنا شيئًا والتقيت بك في البهو. اجلس بثبات.»

ومن ثَم انطلقا بكلِّ هدوء ونعومة بالسيارة ذات الستِّ أسطوانات على الطريق المحاط بالأشجار، عبر القرية النائمة وعلى طول الممر الضيق إلى ماركت بيرنهام. وعندما أصبحا على بُعد نحو مائة ياردة من البوابة، أوقف جرانيت السيارة.

وقال: «هناك اثنان على الأقل من الحراس في هذا الطريق، وإذا كان السير ميفيل قد أخبرني الحقيقة، فربما أصبح لديهم حرسٌ خاص من مُشاة البحرية هذه الليلة. هذا هو الطريق إلى الأراضي الرطبة. أصغِ السمع. هل يمكنك سماع أي شيء؟»

حبس كلاهما أنفاسَه.

ثم غمغم كولينز: «لا أسمع شيئًا. دعنا نُخرج الأشياء بسرعة.»

هُرع جرانيت إلى الجزء الخلفي من السيارة، ومزق الأغطية. وفي لحظاتٍ قليلة كانا قد سحبا على الجانب قاربًا صغيرًا قابلًا للطيِّ من القماش المشدود على مفاصل من الخيزران، مع اثنين من المجاديف الصغيرة. ثم تسلَّقا الضفة.

وقال جرانيت في همس: «يجب أن يكون الجدول قريبًا من هنا. لا تُشعل ضوءًا. أصغِ!»

هذه المرة تمكَّنا من سماع صوت محركٍ يهدر بعيدًا في مرآب القوارب على الجانب الآخر من هال. ومن خلال الستائر المُغْلَقة بشكلٍ متقارب، تمكَّنا أيضًا، من رؤية ضوءٍ خافتٍ يتسلَّل من المنزل على البحر.

تابع جرانيت قائلًا: «إنهم ما زالوا يعملون. احذر، يا كولينز، هذا هو الجدول.»

ومن ثم دفعا القاربَ إلى منتصف جدول الماء، وركبا فيه بحذر. وأخذ جرانيت أحدَ المجدافَين، واستند على ركبته، وجدَّف ببطءٍ نحو البحر. واصطدما مرةً أو مرتَيْن بالضفة واضطُرَّا إلى الدفع، ولكن سرعان ما اعتادَت عيونُهما على الظلام. واستطاعَا رؤيةَ الجدولِ بوضوحٍ. ثم مرَّا بالقرب من جدران الحديقة، وسرعان ما أصبحا بالقرب من الورشة ذاتِ الموقع المميز. فتوقَّف جرانيت للحظةٍ عن التجديف.

وغمغم قائلًا: «إن القاعة مظلمةٌ للغاية. أصغِ!»

فسمعا الخطوةَ العادية للحارس على الطريق. وبالقرب منهما، على قمة الجدار، تخيَّلا أنهما سمعا صوت اصطدام سونكي بندقية. فخفض جرانيت صوتَه إلى أدنى همسة.

«نحن تقريبًا وصلنا الآن. مُدَّ يدك، يا كولينز. هل يمكنك أن تشعر برفٍّ من الصخور؟»

كانت الإجابة الهامسة: «إنه أمامي بالضبط.»

«هذا للأشياء. ضعها عليه.»

لبضع لحظات كان كولينز مشغولًا. ثم، مع شهقةٍ صغيرة، أمسك بذراع جرانيت. وقد أصبح صوتُه، الذي يرتجف مع كبتٍ عصبي، شبهَ هستيري.

«إنهم قادمون يا جرانيت! يا إلهي، إنهم قادمون!»

استدار كِلا الرجلَين باتجاه البحر. وبعيدًا في الغيوم، على ما يبدو، كان بإمكانهم سماعُ طنينٍ خافت، صوت جديد، شيء ميكانيكي في ضرباته المنتظِمة، ولكن مع ضجيجٍ من قوةٍ بشريةٍ تشقُّ طريقها عبر الهواء الذي لا يُقاوم. ومع كل ثانيةٍ كان يعلو. فوقف الرجلان ممسكًا أحدُهما بالآخر.

غمغمَ جرانيت قائلًا: «هل جهزتَ الفتيل؟ يجب أن يسمعوها خلال لحظة.»

أومأ كولينز في صمت. وأصبحَت الأصداء أعلى وأعلى صوتًا. وسرعان ما امتلأ الهواءُ بالصَّدى. كانت الكلاب تنبح من بعيدٍ على الأرض، ومن مزرعةٍ في مكانٍ ما على الجانب الآخر من الطريق سمعا صياحَ صوتٍ واحد.

قال جرانيت هامسًا: «الآن.»

فانحنى كولينز إلى الأمام. ولامس الفتيلُ الذي في يده المادةَ السوداء التي نشرها على الصخرة. وفي لحظة، بدا الضوء الأخضر الغريب وكأنه يُزيح الظلام. وأصبح المنزل والورشة والأشجار، والبحر المتدفِّق ببطء، ووجهاهما المذعوران ... وكل شيء مكشوفًا في وهج من الضوء البشع المروع. لقد نسيا نفسَيهما للحظة، نسيا المعجزةَ التي جلباها. كانت عيونهما مشدودةً نحو السماء. فوقهما بالأعلى، يبدو أن شيئًا أكثرَ سوادًا من السماء نفسِها، هائلًا، ضخمًا، بدا فجأة وكأنه يتخذ شكله. كان هديرُ الآلات مسموعًا بوضوح. ومن داخل المنزل انبعث الصراخ المختلط لأصوات كثيرة. وسقط شيء ما في البحر على بُعد مائة ياردة مع صرير وهسيس، وانبثقت نافورة من المياه عالية لدرجة أن الرذاذ وصل إليهما. ثم انطلق صوتٌ أكثر حدةً مثل صفير رصاصةٍ من بندقية.

صاح جرانيت: «يا إلهي! لا بد أن نبتعد من هنا، يا كولينز!»

وأمسك بمجدافه. وفي تلك اللحظة حدث انفجارٌ رهيب. وبدا أنَّ هناك تيارًا من النار المتدفقة انبثق من زاوية المنزل، وانقسم الجدارُ وسقط إلى الخارج. ثم جاء صوتٌ آخر، بشع، مقزز، صوتٌ سمعه جرانيت من قبل، صوت رصاصة بندقية تشق طريقَها في اللحم، تلَتْه صرخة وحشية. وللحظة التفت ذراعا كولينز حوله. ثم، بدون أي صوت آخر باستثناء تلك الصرخة، سقط إلى الأمام واختفى. لثانيةٍ واحدة انحنى جرانيت على جانب القارب كما لو كان سيغوص وراءه. ثم جاء هديرٌ آخر. وتطايرت الرمالُ في عاصفة هوجاء، وفجأةً تحول الجدول بأكمله إلى سيلٍ مستعِر. وتأرجح القاربُ على جبل شديد الانحدار من المياه المالحة، وسرعان ما انقلب. وجد جرانيت، الذي انحبست أنفاسُه للحظة وكان شبهَ مذهول، طريقَه بشكلٍ ما نحو جانب الجدول، ومن هناك سار وهو يتعثر في دربه باتجاه الطريق. كان المنزل خلفه يحترق، وبدا الهواء مليئًا بالصرخات العالية. فاستدار وركض إلى المكان الذي ترك فيه السيارة. وفجأةً سقط في بِركة ماء مالح وخرج مبتلًّا حتى الخَصْر. وفي النهاية، رغم ذلك، وصل إلى الضفة، وتسلقها وتسلل إلى الطريق. وعندئذٍ ومض ضوءٌ في عينيه وجلجلَ سونكي بندقية عند قدميه. حيث وقف جنديَّان للتحفُّظ على سيارته.

وكان الأمر الأجش: «ارفع يدَيك لأعلى!»

أضاء جرانيت بهدوءٍ مصباحَه الكهربي الصغير. فرأى ما لا يقلُّ عن اثني عشرَ جنديًّا يقفون حوله، كما تسرع مجموعة صغيرة عبر البوابات. فأطفأ مصباحَه على الفور.

وسأل: «هل أُصيب أحد؟»
ساد صمتٌ مطبِق. وشعر أنَّ ذراعيه ممسوكتان على كِلا الجانبَين.
وقال أحد الرجال: «إن الكابتن قادمٌ في الطريق. تحفَّظْ عليه، يا تيم!»

الفصل الثاني والعشرون

سار جرانيت ببطءٍ لتناول الإفطار متأخرًا بضعَ دقائق في صباح اليوم التالي. وقد وصَله وابلٌ من الأسئلة والاستفسارات وهو يقف بجانب منضدة الطعام.

«هل سمعت عن غارة زيبلن؟»

«يقولون إن هناك قنبلةً عند حفرة الجولف التاسعة!»

«لقد احترق ماركت بيرنهام هال تمامًا!»

تنهَّد جرانيت وهو يَعبُر الغرفةَ ويجلس على مقعده أمام المنضدة.

وقال: «لو لم تناموا مثلَ الثيران الليلة الماضية، لكنتم عرَفتم أكثرَ عن الغارة. لقد رأيت العرض بأكمله.»

صاح الميجور هاريسون: «كلام فارغ!»

ورجاه أنسيلمان الصغير قائلًا: «هل ستُخبرنا بكل شيء عنها؟»

فقال جرانيت: «لقد سمعت صوتَ الغارة عندما بدأت تغييرَ ملابسي. فهُرِعت إلى الطابق السفلي ووجدت كولينز في الحديقة ... عجبًا أين كولينز، بالمناسبة؟»

نظروا إلى مكانه الشاغر.

«لم ينزل من غُرفته بعد. أكمل.»

«حسنًا، كان يُمكننا سماعُ الاهتزازات بوضوح، وهي آتيةٌ من فوق المستنقَع هناك. فأخرجت السيارة وبينما أقودها على الطريق استطعت رؤية المنطاد بوضوح، فوقنا مباشرة — وهو شيءٌ ضخم، على شكل سيجار. ومن ثم استمررْنا في اقتفاء أثره، على طول الطريق المؤدِّي إلى ماركت بيرنهام. وقبل وصوله إلى هال بقليلٍ بدا وكأنه يستدير نحو البرِّ ثم يعودُ مرةً أخرى. فتوقَّفنا لمشاهدته وقفز كولينز خارج السيارة. وقال إنه سيُهرَع إلى هال ويُحذرهم. فجلستُ في السيارة أشاهد. حيث دار المنطاد مباشرةً وبدا كأنه يحومُ فوق

تلك المباني الخارجية الغريبة الموجودة في ماركت بيرنهام. وعلى حين غِرَّة بدأت القنابلُ تتساقط.»

صاح جيفري أنسيلمان: «كيف كان شكلها؟»

صبَّ جرانيت قهوته بعناية.

قال: «لقد رأيتها من قبل — الكثير منها، أيضًا، لكنهم أمطروهم بغزارة. ثم فجأةً ظهر نوعٌ من الوهج — لا أعرف ما حدث. كان الأمر كما لو أن شخصًا ما قد أشعل أحدَ تلك الأضواء الملوَّنة. وأصبح هال مرئيًّا بوضوحٍ كما في وقت الظهيرة. وأصبح بإمكاني رؤيةُ الرجال يركضون في الأرجاء، ويصرخون، والجنود يسقطون من مقرَّاتهم. وتساقطت القنابل طَوال الوقت مثل البرَد واشتعلت النيران في ركنٍ من هال. ثم تلاشت الأشياء المضيئة، أيًّا كانت، وبدا الظلام أسودَ مثل القار. ومن ثَم ظللت في الجوار بعضَ الوقت، أبحث عن كولينز. ثم صعدت إلى المنزل لمساعدتهم في إطفاء الحريق. ولم أعُد إلا بعد الساعة الرابعة صباحًا.»

سأل أنسيلمان الصغير: «وماذا عن كولينز؟ كنتُ سألعب معه مباراة جولف.»

قال جرانيت: «من الأفضل إرسالُ خادم إلى غرفته لنطمئنَّ عليه. لقد انتظرته أمسِ حتى لم يعد بإمكاني الاستمرار.»

ومن ثم أرسلوا خادمًا. وجاء الردُّ بسرعة — أن السيد كولينز لم ينمْ في سريره. فعبَس جرانيت قليلًا.

وقال: «أعتقد أنه سيظنُّ أنني قد تخلَّيت عنه. لكنني انتظرتُه مدةَ ساعةٍ على الأقل.»

استفسر جيفري أنسيلمان قائلًا: «هل أصيب أحدٌ بالقنابل؟»

أجاب جرانيت: «لا يبدو أن أحدًا قد أصيب. وأنا لم أفكِّر في أي شيء من هذا القبيل بخصوص كولينز، رغم ذلك. ربما يكون قد أصيب.»

فقال أنسيلمان: «سنذهب جميعًا ونبحث عنه بعد ظهر اليوم إذا لم يَعُد. ما رأيك أن تلعب معي مباراةَ جولف هذا الصباح؟»

قال جرانيت: «إن هذا يناسبني تمامًا. لقد كنت أنوي الخلود إلى الراحة بسبب ذراعي، لكنه أصبح أفضلَ هذا الصباح. سنبدأ مبكرًا ونعود لقراءة الصحف.»

ومن ثم ذهبا بسيارتهم إلى مبنى النادي ولعبا مباراتَهما. وقد كان صباحًا ربيعيًّا رائعًا، مع رياحٍ غربية ناعمة تهبُّ من البر. وأضْفَت مساحاتٌ صغيرة من زهور لافندر البحر اللونَ الأرجوانيَّ على الأراضي الرطبة. وتلألأت الجداول، المتعرجةُ في طريقها من

البحر إلى القرية، مثلَ الزئبق تحت أشعَّة الشمس الزاهية. وكان حقًّا صباحَ سلام مطلقٍ وكامل. وقد لعب جرانيت بالرغم من مشكلةٍ بسيطة في ذراعه، بحذر وبشكل جيد. وعندما وصلا أخيرًا إلى الحفرة الثامنة عشرة، سدَّد تسديدةً رائعة ملتفَّة نحو الحفرة وفاز بالمباراة.

فقال ابن عمه بينما يُغادران الملعب: «مباراة رائعة. عجبًا مَن هم هؤلاء الرجال؟»

حيث وقف جنديَّان عند البوابة، بينما تنتظرهما سيارةٌ عسكرية على جانب الطريق. فتقدم جنديٌّ مراسلة إلى الأمام وخاطب جرانيت.

وسأل، بينما يؤدِّي التحية: «هل أنت كابتن جرانيت؟»

أومأ جرانيت برأسه ومدَّ يده ليُمسك بالمذكرة. وكانت الأصابع التي سحبتْها من الظرف ثابتةً تمامًا، حتى إنه رفع رأسه للحظةٍ لينظرَ إلى عصفورٍ فوق رأسه. ومع ذلك، كانت الأسطرُ القليلة التي كُتبت على عجَل مثل رسالة القدر:

الضابط المسئول في ماركت بيرنهام هال سيُصبح ممتنًّا إذا تفضَّل الكابتن جرانيت بإجراء مقابلةٍ فوريةٍ معه، بخصوص أحداث الليلة الماضية.

فسأل جنديَّ المراسلة: «هل تقصد أنك تريدني أن أذهبَ على الفور، قبل الغداء؟»

أشار الرجل إلى السيارة.

وقال: «تعليماتي كانت أن أعود بك على الفور، يا سيدي.»

قال جيفري أنسيلمان في إصرار: «تعالَ وتناول مشروبًا أولًا، على أيِّ حال.»

هز جنديُّ المراسلة رأسه، بينما يعترض الجنديان البوابة.

وقال: «لقد وصل شخصٌ من مكتب الحرب وهو ينتظر كي يتحدثَ إلى الكابتن جرانيت.»

احتجَّ أنسيلمان الصغير قائلًا: «سنذهب جميعًا بعد الغداء. ألن يفيَ ذلك بالغرض؟»

لم يُقدِّم الرجل إجابة. فركب جرانيت، وهو يهزُّ كتفيه في استسلام، في السيارة. وركب الجنديان دراجاتٍ ناريةً واستدار الموكبُ الصغير مبتعدًا. بذل جرانيت بعض الجهود في محادثةٍ مع رفيقه، ولكن سرعان ما عاد إلى الصمت، عندما لم يجد ردًّا. وفي أقلَّ من عشرين دقيقة كانت السيارة تتباطأُ قبل الاقتراب من هال. وازدحم الممرُّ بالقرويين والناس من المزارع المُجاورة، الذين أُبعِدُوا جميعًا، مع ذلك، من خلال طوقٍ صغير من الجنود. فشق جرانيت، مع رفيقِه الذي يُراقبه عن كثب، مساره ببطءٍ عبر الطريق وصعد باتجاه المنزل. حيث تهدَّم ركن الجناح الأيسر للمبنى، واسودَّ بفعل الحريق ولا يزال الدخانُ يتصاعد منه، وكانت هناك حفرة كبيرة في العشب المختلط بالرمال، حيث سقطت قنبلةٌ على ما يبدو.

وسمح لهم جنديٌّ عند المدخل الأمامي بالدخول، وقاده مرشدُه عبر القاعة إلى غرفة كبيرة على الجانب الآخر من المنزل، بدَت أنها تُستخدم كمكتبة، وكغرفة استقبالٍ في الوقت ذاته. حيث وقف السير ميفيل ورجلٌ يرتدي زيًّا عسكريًّا يتحدثان معًا بالقرب من النافذة. واستدارا عند دخول جرانيت فانتفض انتفاضةً طفيفة. وانتابه شعورٌ بالخوف الشديد لأول مرة، وتبدَّدت ثقته بنفسه فجأةً. إذ كان الرجل الذي وقف يُراقبه بتدقيقٍ باردٍ هو الرجل الوحيد على الأرض الذي يخشاه — الجراح الميجور طومسون.

الفصل الثالث والعشرون

لقد كان تجمُّعًا صغيرًا غريبًا في غرفة الاستقبال في ماركت بيرنهام هال، غريبًا وإلى حدٍّ ما يُثير التشاؤم. حيث وقف جنديَّان لحراسة الباب. ووقف آخرُ وظهره إلى النافذة الواسعة، بينما ينعكس ضوء الشمس على سونكي سلاحه. وقد استعاد جرانيت، على الرغم من أنه نظر إليه بفضولٍ للحظة، هدوءَه وثقته.

وقال: «كيف حالك، يا سير ميفيل؟ كيف حالك، يا طومسون؟»

لم ينتبه السير ميفيل، الذي كان في حالة من الانفعال الشديد، إلى تحية الشابِّ على الإطلاق. بينما أشار طومسون إلى كرسي، جلس عليه جرانيت على الفور.

وبدأ الأول الحديثَ قائلًا: «لقد أرسلتُ في استدعائك، يا كابتن جرانيت، لطرح أسئلة معينةٍ عليك بخصوص أحداث الليلة الماضية.»

أجاب جرانيت: «يسرني إخبارك بأيِّ شيء أستطيعه. أليس هذا بعيدًا قليلًا عن حدود اختصاصك، رغم ذلك، يا طومسون؟»

انحنى السير ميفيل فجأةً إلى الأمام.

وقال: «هذا هو الشاب. لقد ظننت أنه الضابط المسئول هنا وجعلتُه يشاهد محتوياتِ ورشتي. خطأ تام — انطباع خاطئ تمامًا!»

اعترض جرانيت قائلًا: «لقد كان خطأً لا يمكن أن تُحملني المسئوليةَ عنه، ويجب أن تعذرني حقًّا إذا أخفقت في إدراك الصلة. وربما ستُخبرني، أيها الميجور طومسون، لماذا أنا هنا؟»

جلس الميجور طومسون أمام المكتب وأسند ظهرَه إلى كرسيِّه.

وقال: «لقد أرسلنا في استدعائك؛ لأننا نبحث عن رجلَين أشعلا وهج ضوء المغنيسيوم الذي وجَّه منطاد زيبلن الليلةَ الماضية إلى هذه المنطقة. أحدهما يرقد على العُشب هناك، مع رصاصةٍ في دماغه. وما زلنا نبحث عن الآخر.»

فسأله جرانيت: «هل تتخيَّل أنه يمكنني تقديمُ أي مساعدة لك؟»

قال الميجور طومسون: «هذا هو انطباعنا. ربما ستكون مفيدًا لدرجةِ إخبارنا بما كنتَ تفعله هنا الليلة الماضية؟»

أجاب جرانيت: «بكلِّ تأكيد. عند الساعة العاشرة والنصف من الليلة الماضية ظننتُ أنني سمعتُ صوتَ محرك منطاد. فخرجنا جميعًا إلى الحديقة لكننا لم نتمكَّن من رؤية أي شيء. ومع ذلك، فقد انتهزتُ هذه الفرصة لأجعل سيارتي مستعدة في حالة وجود أي إثارة. لاحقًا، وبينما كنت في طريقي إلى الطابق العلوي، سمعتُ الصوت بوضوحٍ مرةً أخرى. فخرجت، وشغلت سيارتي، وقُدتها عبر الحارة. وبدا أن الأمر قادمٌ في هذا الاتجاه؛ لذا تابعت، وانطلقت بعيدًا عن دورمي هاوس، وتسلَّقت أعلى الضفة فرأيت الإضاءة الاستثنائية من المستنقع على الجانب الآخر. ورأيت رجلًا في قارب صغير يسقط كما لو أنه أصيب برصاصة. وبعد لحظة أو اثنتَيْن، عدتُ إلى سيارتي واستوقفني جنديان، فأعطيتهما اسمي وعنواني. هذا حقًّا كل ما أعرفه عن هذا الأمر.»

أومأ الميجور طومسون برأسه.

«هل كنتَ قد وصلتَ للتو، إذن، عندما أُلقِيَت القنابل؟»

قال جرانيت: «توقفتُ قبل الإضاءة مباشرة.»

نظر إليه طومسون بعناية.

وقال: «سأدلي بملاحظة، أيها الكابتن جرانيت، يمكنك التعليقُ عليها أوْ لا، حسب اختيارك. ألم يكن زيُّك الليلة الماضية زيًّا غيرَ معتاد في وقت المساء؟ أنت تقول إنك كنتَ في طريقك إلى الطابق العلويِّ لتبديل ملابسك عندما سمعتَ صوت منطاد زيبلن. فهل ترتدي حذاءً مطاطيًّا وسُترة نورفولك لتناول العشاء؟»

عضَّ جرانيت شفته للحظة.

وقال: «لقد ارتديتُ هذه الأشياء في حالة وجود أي شيء أفعله. كما أخبرتُك، شعرت بالثقة أنني سمعتُ صوت منطادٍ في وقت مبكِّر من المساء، وكنت أنوي محاولةَ متابعته إذا سمعتُه مرة أخرى.»

ساد الصمت وقتًا قصيرًا. وأسند جرانيت ظهره قليلًا إلى كرسيِّه، ولكن على الرغم من أن تصنُّعه اللامبالاة كان مثاليًّا، فإن إحساس التشاؤم المقزز كان يتسلل إليه. لقد

كان مدركًا للفشل والعمى والحماقة. إذ لم يسبق له أن ارتكبَ مثلَ هذا التقصير البائس. وقد قاتل بيأسٍ مبتعدًا عن الفخِّ الذي شعر أنه يُطبَق عليه تدريجيًّا. يجب أن يكون هناك مخرج!

ثم تابع المستجوب، بنبرةٍ هادئة، وخالية من المشاعر قائلًا: «كابتن جرانيت، وفقًا لقصَّتك فقد استبدلتَ ملابسك ووصلتَ إلى هنا في نفس وقتِ وصول منطاد زيبلن، بعد أن سمعتَه يقترب. إن المسافة من هنا إلى دورمي هاوس كلوب هي أربعة أميال ونصف، وذلك المنطاد لا بد أنه يطير بسرعةٍ لا تقل عن ستِّين ميلًا في الساعة. فهل سيارتك تصنع المعجزات؟»

قال جرانيت: «إنها تستطيع الوصولَ إلى سرعة ستين ميلًا في الساعة.»

تابع طومسون بجفاءٍ قائلًا: «ربما أوفِّر عليك عناءَ المزيد من التوضيحات، يا كابتن جرانيت، عندما أخبرك أنَّ سيارتك قد رُصِدت من قِبَل أحد الحراس قبل ربع ساعةٍ من منطاد زيبلن وإشعال ذلك الوهج. إن أقوالك، وسأستخدم كلامًا معتدلًا، متناقضةٌ مع حقائق القضية. لذا لا بد أن أسألك مرةً أخرى إذا كان لديك أيُّ تفسيرٍ آخر تُقدِّمه بشأن تحرُّكاتك في الليلة الماضية؟»

سأل جرانيت، بينما يُعمِل عقلَه بضراوة: «ما التفسير الآخر الذي يُمكنني تقديمه؟ لقد أخبرتك بالحقيقة. ماذا يمكنني أن أقول أكثرَ من ذلك؟»

تابع الميجور طومسون، وبدا صوته وكأنه صوتُ القدر: «لقد أخبرتَني أنك وصلتَ إلى هنا بسرعةٍ رهيبة في ذاتِ لحظةِ إشعال ذلك الوهج وإلقاء القنابل. لكن ليس فقط أحد الحراس الموجودين هنا، بل هناك شخصان آخران قدَّما دليلًا على أن سيارتك ظلَّت متوقفةً على الطريق هنا مدةَ ربع ساعة على الأقل قبل وقوعِ الأحداث التي ذكرتُها لك للتو. للمرة الأخيرة، يا كابتن جرانيت، لا بد أن أسألك عمَّا إذا كنتَ ترغب في تعديل تفسيرك للأمر؟»

صدَرَت حركةٌ طفيفة عند الطرف الآخر من الغرفة. حيث سُحِبت ستارةٌ إلى الوراء وتقدمت إيزابيل وورث نحوَهم ببطء. ووقفت هناك، بينما الستائرُ على جانبيها، وهي شاحبةٌ بشكل مروع، وقد شبكت كفَّيها أمامها، وهما يرتعشان بعصبية.

ثم قالت: «أنا آسفةٌ للغاية. كل هذا هو خطئي أنا.»

حدَّقوا فيها بدهشة. فقط جرانيت، بصعوبة، هو مَن أبقى وجهه خاليًا من التعبيرات. بينما بدأ السير ميفيل يُغمغم لنفسه.

ويقول: «يا إلهي! إيزابيل، ماذا تريدين، يا فتاة؟ ألا ترَين أننا مشغولون؟»

لكنها لم تُعِره انتباهًا. والتفتت باستعطافٍ نحو الميجور طومسون.

ورجَتْه قائلةً: «هل يمكنك إبعادُ الجنود للحظة؟ لا أظن أنه ستصبح هناك حاجةٌ إليهم.»

أصدر الميجور طومسون أمرًا موجزًا وغادر الرجالُ الغرفة. فاقتربت إيزابيل قليلًا من الطاولة. وتجنبَت النظر إلى جرانيت.

وقالت: «أنا آسفةٌ حقًّا، إذا كان أي شيء فعلتُه قد تسبب في كل هذه المشاكل. لقد جاء الكابتن جرانيت إلى هنا جزئيًّا للعب الجولف، جزئيًّا بِناءً على دعوتي. وزارني هنا بعد ظهر أمسِ، كما يعلم والدي. وقبل أن يغادر — طلبتُ منه أن يعاود المجيء في الليلة الماضية.»

ساد صمتٌ مُطبِق. بينما إيزابيل تقف عند طرَف الطاولة، وأصابعها ما زالت متشابكةً بعصبية، وقد احمرَّ خداها للغاية. وأبقت عينَيها بعيدًا عن جرانيت. فأمسكها السير ميفيل من كتفها.

وسألها بحدةٍ شديدة: «ماذا تقصدين، يا فتاة؟ ماذا تقصدين بكل هذا الهُراء؟ تكلمي.»

نظر جرانيت إلى أعلى للحظة.

ورجاها قائلًا: «لا تفعلي ذلك. يمكنني تبرئةُ نفسي، يا آنسة وورث، هذا إذا كان هناك أيُّ شخص مجنون بما يكفي ليُصبح لديه شكوكٌ تجاهي. أنا لن ...»

قاطعَته قائلة: «يجب أن تُقال الحقيقة على أي حال. لا يوجد شيءٌ يدعو للخجل. إن المكان هنا مملٌّ بشكل بشع، والحياة التي طلب مني والدي أن أخوضها خلال الأشهر القليلة الماضية كانت لا تُطاق. لم أكن أنعم بالنوم أبدًا، وقد دعوت الكابتن جرانيت للحضور إلى هنا عند الساعة الثانية عشرة ليلةَ أمسِ ليصحبَني في جولةٍ بالسيارة. وقد ارتديتُ ملابس الخروج من أجل أن أذهب، وجاء الكابتن جرانيت ليصحَبني. ثم اتضح أن الأمر مستحيلٌ بسبب كل الحراس الجدد حول المكان، ولكن هذا هو سبب حضور الكابتن جرانيت هنا، وهذا»، اختتمت كلامها وهي تلتفتُ إلى الميجور طومسون، «هو سبب، على ما أظن، شعوره بأنه ملزمٌ بإخبارك أمرًا يُخالف الحقيقة. وقد جرى فعل ذلك من قبل.»

ساد صمتٌ بدا مؤلَّفًا من عناصرَ كثيرة. حيث وقف السير ميفيل وورث وعيناه مثبتتان على ابنته ويَغشى ملامحَه تعبيرُ الفزع الفارغ الذي ينم عن عدم الفهم. ونظر جرانيت، مقطبًا جبينه، نحو الأرض. وأخذ طومسون يتفحَّصهم جميعًا واحدًا تلوَ الآخر وكأنه لا يرى أحدًا. وكان هو الذي تحدث أولًا.

«كما قلت يا آنسة وورث، لقد جرى فعل هذا النوع من الأشياء قبل ذلك. لذا سنتركُ الأمر عند هذه النقطة في الوقت الحاضر. هلَّا أتيتَ معي إلى الخارج، من فضلك، يا كابتن جرانيت؟ لن أزعجكِ يا آنسة وورث، أو أنت، يا سير ميفيل. قد لا يُعجبكما ما سنراه.»

نهض جرانيت على الفور.

وقال: «بالتأكيد، سوف أذهب أينما تريد.»

سار الرجلان معًا جنبًا إلى جنب، في صمتٍ مُطبِق، عبر القاعة الحجرية، وخارج المنزل، وحول الجزء الخلفي من الحديقة إلى كوخٍ خشبي، يقف أمامه حارس. وقد تنحَّى جانبًا للسماح لهما بالمرور. وعلى الأرضية الحجرية بالداخل كانت جثةُ كولينز ممدودة. ولا تزال المياه المالحة تتسرَّب من ملابسه وأطرافه، وتجري في تدفقاتٍ صغيرة. وكان هناك ثقبٌ أزرقُ صغير في منتصف جبهته.

قال طومسون: «هذا، على ما يبدو، هو الرجلُ الذي أشعل وهجَ ضوءِ المغنيسيوم الذي أظهر لمنطاد زيبلن أين يرمي قنابلَه. من الواضح أن الأمر كان معدًّا على نحوٍ مسبق. هل يمكنك التعرف عليه؟»

صاح جرانيت: «هل يمكنني التعرفُ عليه؟! بالقطع، لقد كنت ألعب معه بولينج بعد ظُهر أمس. إنه تاجر من جلاسجو اسمه كولينز، وكان لاعبَ جولف رائعًا للغاية. وكان يقيم في دورمي هاوس كلوب.»

قال الميجور طومسون بجفاء: «لديه أيضًا شيءٌ آخر يُميزه؛ لأنه الرجل الذي أشعل وهجَ تلك الأضواء. لقد تخيَّل الرقيبُ الذي أطلق عليه النار أنه سمع أصواتًا عند الجدول، فتسلَّق الحائط قبل اشتعال الوهج. ويمكنني إضافةُ أن الرقيب لديه انطباعٌ بأن القارب كان يحمل رجلين.»

هزَّ جرانيت رأسه على نحوٍ يُظهر التشكك.

وقال: «أنا لا أعرف شيئًا عن الرجل أو تحركاته، بخلاف ما قلته لك. فأنا لم أتبادَل معه الحديث إلا دقائقَ معدودةً، ولم يحدث أن قابلتُه من قبلُ في حياتي سوى هذه المرةِ في دورمي هاوس.»

«ألم يتصادف، على سبيل المثال، أنْ علمتَ كيف أتى إلى هنا من دورمي هاوس؟»

أجاب جرانيت بسهولة: «إذا كنت تقصد أنه قد جاء بسيارتي، فمِن فضلك دعني أؤكِّد لك أنه لم يفعل. لقد كانت مهمتي هنا في الليلة الماضية غيرَ حكيمة بما فيه الكفاية، لكني بالتأكيد لم أحضر رجلًا آخر، خاصةً غريبًا، معي.»

ومن ثَم اختتم الميجور طومسون حديثَه قائلًا: «شكرًا لك، هذا كل ما يجب أن أقولَه لك في الوقت الحاضر.»

استفسر جرانيت قائلًا: «هل وقع الكثير من الضرر؟»

«قليلٌ للغاية.»

كانا قد وصلا إلى زاوية الطريق. فنظر جرانيت نحو الطريق.

وقال: «أظنُّ أن لي الحريةَ في المغادرة، أليس كذلك؟»

فأعطى طومسون أمرًا موجزًا للجنديِّ الذي كان يُرافقهما.

وقال: «ستجد السيارة التي جئتَ فيها بانتظارك لتُعيدك يا كابتن جرانيت.»

توقَّف الرجلان. وكان جرانيت على وشك المغادرة. لكن مع تلاشي خوفِه المفاجئ من الخطر، استيقظ فضوله.

وسأل: «هل تُمانع في إخباري، أيها الميجور طومسون، كيف جرى اختيارُك — وأنت تَشغل، كما أفترض، منصبًا طبيًّا — لإجراء تحقيقٍ كهذا؟ لقد خضعتُ طواعيةً لاستجوابك، ولكن إذا كان لدي أيُّ شيء أخفيه، فربما كنتُ تشككتُ في سُلطتك.»

ظل وجه طومسون ثابتًا. وأشار ببساطة إلى البوابة عند طرَف الطريق.

وقال ببرود: «لو استدعى الأمر ذلك، يا كابتن جرانيت، كان بمقدوري أن أقنِعك بأنني أتصرف بموجب السلطة الممنوحة لي. في نهاية الأمر، أتمنى لك صباحًا طيبًا.»

تردَّد جرانيت، ولكن للحظة فقط. ثم هزَّ كتفيه واستدار مبتعدًا.

وقال: «صباحٌ طيب لك أيضًا، يا ميجور!»

ومن ثَم شق طريقه إلى الممر الذي لا يزال مزدحمًا بالقرويِّين والمتسكعين. واستقبل بمجموعةٍ من الأسئلة وهو يركب السيارة.

فقال لهم جميعًا: «لم يحدث الكثير من الضرر الذي يُمكنني الحديثُ عنه. لقد اشتعلت النيرانُ في ركن المنزل، وتبدو الساحة العُشبية وكأنها حفرة رمال.»

وأعادته السيارة في صمتٍ إلى دورمي هاوس. وعندما وصل إلى هناك كان المكان مهجورًا. حيث كان الرجال الآخرون يتناولون طعامَ الغداء في نادي الجولف. فاتجه ببطءٍ إلى سقيفةٍ تُستخدم كمرآب للسيارات. حيث ترك سيارته هناك. ونظر في كلِّ مكان للتأكد من أنه وحده تمامًا. ثم رفع المسندَ المجاور لمقعد القيادة. وبداخله كانت النظارة ذات الإطار العاجيِّ والمنديل الحريري المطوي مرتَّبَيْن بعناية في الزاوية، وهي تخصُّ الرجل الذي كان يرقد في ماركت بيرنهام برصاصة تخترقُ جبهته.

الفصل الرابع والعشرون

نهض السيد جوردون جونز واقفًا على قدمَيه. كانت مقابلةً مثيرة للاهتمام، ومهمة من بعض النواحي. وألقى نظرةً خاطفة على المكتب البسيط، ولكنه مؤثث بشكل أنيق، وكانت الغرفة لا تشي إلا قليلًا بالنفوذ العالميِّ لمالكها.

وقال مبتسمًا: «في نهاية الأمر، يا سير ألفريد، أنا لستُ متأكدًا من أن الحكومة في مقرها بداونينج ستريت هي مَن تحكم البلاد فعليًّا. إذ يمكننا لمسُ أزرارنا فنحرك الجيوش والبوارجَ في جميع أنحاء الأرض. أما أنت فتسحب دفتر شيكاتك، وتوقِّع باسمك، ويمكنك عندئذٍ توجيهُ ضربة قاتلة مثل أي ضربة يمكن أن نتصوَّرها.»

ابتسم المصرفي.

وقال: «لنكن شاكرين، إذن، لأنَّ القُوى التي نملكها ونستخدمها مرتبطةٌ ببعضها البعض في القضية العظيمة.»

تردَّد السيد جوردون جونز.

وتابع قائلًا: «إن مثل هذه الأشياء، حسبما أعلم، صغيرة بالنسبة إليك، يا سير ألفريد، ولكن في الوقت نفسِه أريدك أن تتأكَّدَ من أن حكومة جلالته لن تغفل عن مساعدتك في هذه المرحلة المفصلية. وربما يكون الحديث عن المكافآت في مثلِ هذا الوقت سابقًا لأوانه. وأنا أعلم أن درجات الشرف العادية لا تروق لك، ومع ذلك فقد اقترح عليَّ شخصٌ معين أنني يجب أن أؤكد لك امتنانَ البلد. وبكلماتٍ واضحة، لا يوجد شيءٌ قد تطلبه لن يكون من دواعي سرورنا وامتناننا أن نُقدِّمه لك.»

انحنى السير ألفريد قليلًا.

وقال: «هذا لطفٌ كبير منك. في وقتٍ لاحق، ربما، يمكن للمرء أن يُفكر في هذا الأمر. أما في الوقت الحاضر فيبدو أن هناك واجبًا صارمًا واحدًا أمامنا، ومن أجله لا يحتاج المرء إلى مكافأة.»

ثم انصرف الرجل. فنهض السير ألفريد من على الكرسي أمام مكتبه، وألقى بنفسه على الكرسيِّ المريح الذي كان ضيفه يجلس عليه. ووجد شعاعٌ من أشعة الشمس في المدينة طريقَه عبر تشابكِ المباني الشاهقة على الجانب الآخر من الشارع، فامتد في مسارٍ متعرج عبر سجادته، ولمس الملامح الجامدة لوجهه المتأمِّل. وقد جلس هناك، ينقر ببطءٍ على جوانب الكرسيِّ بأصابعه الممتلئة. مثلما قد يجلس قائدٌ كبير، وهو يُتابع تقدُّم جيوشه في بلدانٍ مختلفة، ويستمع إلى صوت بنادقهم، ويُراقب تقدمَهم، وتعثرهم، ونجاحهم وإخفاقاتهم. كانت رؤية السير ألفريد أكثرَ دناءةً بعض الشيء وأكثرَ تعقيدًا من نواحٍ كثيرة، ومع ذلك أيضًا، كان لها جانبها الدرامي. حيث نظر إلى أسواق المال في العالم، فرأى البورصات ترتفع وتنخفض. ولم يرَ في المشهد الخافت جيشًا يرتدي الزيَّ الكاكيَّ ويحمل حِرابًا لامعة، لكنه رأى طابورًا طويلًا، ورفيعًا من الرجال الذين يرتدون بِدلًا سوداءَ ووجوههم شاحبة، وهم يُمسكون حقائب نقودهم.

وطرَق سكرتيره على الباب ودخل.

وقال بهدوء: «إن الكابتن جرانيت هنا منذ بعض الوقت، يا سيدي.»

فعاد المصرفيُّ إلى الواقع من جديد. لقد استيقظ، بالفعل، مع انتفاضةٍ صغيرة.

وأمر السكرتير قائلًا: «أدخِل ابنَ أخي في الحال. سأنشغل معه لمدة ربع ساعة على الأقل. من فضلك اذهب إلى بنك إنجلترا ورتِّب لإجراء مقابلة مع السيد ويليامز عند الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم.»

انسحب السكرتير في صمت. ودخل جرانيت، بعد بِضع دقائق. فاستقبله المصرفي بسرور.

وصاح: «حسنًا، يا روني، لقد ظننتُ أنك ستبقى في نورفولك مدة أسبوع! تعال. اجلب مقعدك إلى جانبي، إذن. هذه واحدة من صباحاتي الفارغة.»

أطاعه جرانيت في صمت. فنظر السير ألفريد في أرجاء الغرفة. لم يكن هناك مكانٌ للاختباء، ولا توجد أدنى فرصة لأن يسمع حديثَهما أحد.

«كيف جرَت العملية، يا روني؟»

أجاب جرانيت: «لقد أدَّيْنا دورنا. كان كولينز هناك في دورمي هاوس كلوب. وتلقَّينا الإشارة وأشعلنا الوهج. وقد هبط المنطادُ إلى ارتفاع مائتين أو ثلاثمائة قدم، ولا بد أنهم ألقَوا عشرين قنبلة، على الأقل. وقد دمَّروا الكوخ لكنهم لم يُصيبوا الورشة. واشتعلت النيرانُ في المنزل، لكنهم تمكَّنوا من إخمادها.»

«هل تمكَّنتما من الهرب سالمَيْن، كما يُسعدني أن أرى؟»

قال جرانيت، وهو يخفض صوته للغاية: «لقد قتلوا كولينز. حيث أصيب برصاصةٍ وهو بجانبي. وقد أمسَكوا بي أيضًا. وحقَّقوا معي تحقيقًا قاسيًا ولكني تمكنتُ من الخروج منه بسلام. مَن تظن أن مكتب الحرب قد أرسله لإجراء تحقيق؟ طومسون — ذلك الرجل طومسون!»

عبَس المصرفي.

قال: «هل تقصد الرجلَ الذي يشغل وظيفة مفتش المستشفيات؟»

أجاب جرانيت بجدِّية: «من المفترض أن هذه هي وظيفته. لكنني بدأتُ أتساءل ... أخبرني، أنت لم تسمع أيَّ شيء عنه، أليس كذلك؟»

أجاب السير ألفريد: «مطلقًا. لماذا ينبغي عليَّ؟»

قال جرانيت: «لا شيء سوى أن لديَّ شعورًا غيرَ مريح تجاهه. أتمنى لو شعرت بالثقة في أنه بالفعل يشغلُ الوظيفة التي يدَّعيها. إنه الرجل الوحيد الذي يبدو أنه يشتبهُ بي. ولولا إيزابيل وورث، لكنتُ انتهيت — وقُضي عليَّ — في تلك الحفرة الحقيرة! فقد حاصرَني في التحقيق ووقعتُ في مأزق. فكذَبَت الفتاةُ وأخرجتْني منه.»

نقر السير ألفريد للحظة بأصابعه على الطاولة.

وقال: «لستُ متأكدًا من أن هذه المخاطر تستحقُّ العناء بالنسبة إليك، يا روني.»

هز الشاب كتفَيه. وقد بدا بكلِّ تأكيدٍ أن وجهه أصبح أكثرَ نحافةً خلال الأيام القليلة الماضية.

وقال: «لا مانع لديَّ في السفر إلى الخارج. إن الأمر يبدو مختلفًا هناك، بطريقةٍ ما. لكن هنا كل شيء خاطئ. إنه الجو، على ما أظن. وذلك الرجل طومسون ينوي الأذى — أنا متأكِّد من ذلك.»

سأله المصرفي: «هل هناك أيُّ سببٍ لعدم التوافق بينكما؟»

أومأ جرانيت برأسه.

«توقعُك في محله، يا سيدي.»

«الآنسة كونيرز، أليس كذلك؟»

اعترى وجهَ الشاب تغيرٌ مفاجئ.

وقال: «أجل. لو لم أكن قد بدأت هذا، لو لم أتمادَ فيه إلى حدِّ أنه لم يعد هناك مسارٌ آخر بالإمكان، أعتقد أنني كنت سأُصبح راضيًا بأن أكونَ ما يبدو أنه شخصيتي — من أجلها.»

أسندَ السير ألفريد ظهره إلى كرسيِّه. وهو ينظر إلى ابن أخيه كرجل علم ربما ينظر إلى عينةٍ مثيرة للاهتمام.

وقال: «حسنًا، أظن أنك تؤكِّد ببساطةٍ تجرِبةَ العصور، لكنك، بصراحة، تدهشني. أنت تتنقَّل بين الأماكن الكبيرة في الحياة، وأنت مع أولئك الذين يصنَعون التاريخ، وتريد التخلِّيَ عن كل شيء. من أجل ماذا؟ ستصبح حيوانًا صغيرًا عاديًّا ومطيعًا لجنديٍّ بريطاني، من أجل حُبِّ فتاةٍ بريطانيةٍ حسَنة المظهر والتربية وعادية. أنا لا أفهمك يا رونالد. إن لديك دماءَ صانعي الإمبراطورية في عروقك. لقد طوَّر تعليمك وبيئتك تشابهًا خارجيًّا مع الشيء الذي تدَّعي أنه موجود، ولكن في الخلفية — ألَا تشعر أنك ستقعُ في قبضة الأشياء الأخرى؟»

أجاب جرانيت: «أنا أشعر بتلك الأشياء، تمامًا. لقد شعرت بها طوال السنواتِ السبع أو الثماني الماضية. لكنني أشعر بشيء آخر، أيضًا، شيءٍ في رأيي أنك لم تشعر به قطُّ، وهو شيءٌ لم أكن أُومِن به تمامًا.»

أسند السير ألفريد ظهره إلى كرسيِّه.

وقال: «إلى حدٍّ ما، هذا مخيِّب للآمال. أنت على صواب. لم أشعر قطُّ بنداء تلك الأشياء الأخرى. عندما كنت شابًّا، كنت ببساطةٍ عابثًا عندما شعرتُ بالميل إلى التحول عن الأشياء الكبيرة في الحياة من أجل أغراض الاسترخاء. وعندما عُرض عليَّ تحالف، كنت راضيًا عن قَبوله، لكن الحمد لله لقد كنت شرقيًّا بما يكفي لإبقاء النساء في حياتي حيث ينتمين. لذا أشعر بخيبة أملٍ فيك، يا روني.»

هز الشابُّ كتفَيه.

وقال: «أنا لم أتراجع.»

كان الردُّ الكئيب: «أجل، ولكن نقطة ضعفك قد ظهرت. ومع ذلك، دعْك من هذا الأمر. قل لي لماذا عُدت؟ ألم يكن من الأفضل البقاءُ في برانكاستر مدةً أطول قليلًا؟»

قال ابن أخيه: «ربما. لقد أصبحَت ذراعي مهتزة واضطُررتُ إلى لعب الجولف. وبصرف النظر عن ذلك، لم أكن مرتاحًا تمامًا بشأن الأمور في ماركت بيرنهام. واضطُررت إلى إخبار طومسون بأنني لم أعلم شيئًا عن كولينز في تلك الليلة، لكنهم يعرفون في دورمي هاوس كلوب أنه خرَج معي في السيارة ولم يسمع به أحدٌ منذ ذلك الحين. ثم كانت هناك الفتاة.»

قال المصرفي: «التي أنقذَتك بكذبة، أليس كذلك؟ قد يصبح ذلك محرجًا فيما بعد.»

قال جرانيت بشكلٍ كئيب: «لقد سئمتُ من أموري الخاصة. هل هناك أي شيء جديد هنا على الإطلاق؟»

عبَس السير ألفريد قليلًا.

وقال: «ليس كثيرًا. وفي الوقت نفسه، هناك مؤشرات واضحةٌ على تغييرٍ لا يعجبني. مع وجود رجال دولة محدَّدين هنا على قمة السلطة، كان من السهل جدًّا بالنسبة إليَّ تنفيذ أي مخططات اعتقدتُ أنها ضرورية. لكن خلال الأسابيع القليلة الماضية، رغم ذلك، كان هناك تغيير. من الناحية الاسمية ما زالت الأشياءُ كما هي. من الناحية الفعلية، يبدو أنَّ هناك يدًا أخرى تعمل في الخفاء، يدًا أخرى تعمل مع الرقابة، أيضًا. لقد ارتكب أحدُ وكلائي الموثوقِ بهم للغاية في هارويش زَلةً طفيفة منذ عدة أيام. قبل بضعة أسابيع، كان عليه إما أن يغرم عشرين جنيهًا أو يعتقل. هل تعلم ماذا حدث له يوم الأربعاء؟ بالطبع أنت لا تعلم لقد قُبض عليه في الساعة الواحدة وأُطلق الرصاص عليه خلال نصف ساعة. ثم هل قرأت صحفَ هذا الصباح؟ لقد أوقفت جميع عمليات الإبحار من هنا إلى مكان صغير معيَّن نعرفه دون سابقِ إنذار. أنا مضطرٌّ إلى إيقاف العديد من المخططات الهامة.»

فسأله جرانيت، بعصبيةٍ بعض الشيء: «ليس هناك مهامُّ بالنسبة إليَّ، أليس كذلك؟»

نظر إليه السير ألفريد.

وأجاب: «ليس في الوقت الحالي، ولكن سيصبح هناك قريبًا جدًّا. تمالكْ نفسَك يا روني. لا تنظر للأسفل كثيرًا. أنت وأنا نسير فوق السحاب. إن التعثر سيئ مثل الانزلاق. اعترف — لقد كنت خائفًا.»

اعترف جرانيت قائلًا: «أجل، ليس من الموت ولكن ممَّا قد يأتي بعد كشفِ أمرنا. أنا أميل على نحوٍ ما، إذا اعترض طريقي شيءٌ واحد في العالم، إلى الإبحار إلى نيويورك غدًا والبدءِ من جديد.»

تابع السير ألفريد ببطء: «عندما تُراودك تلك المخاوفُ فكِّر فيَّ أنا؛ فأنا أواجه مخاطرَ أكبر منك بكثير. هناك خيوطٌ من هذا المكتب تمتدُّ إلى العديد من أنحاء إنجلترا، وإلى العديد من أركان أمريكا، وإلى معظم مدنِ أوروبا. فإذا تمكن رجلٌ ذكي من أن يُمسك بأي واحد منها، فقد يتتبعه إلى الوراء — حتى يصل إلى هنا.»

لمس السير ألفريد صدره للحظة. ثم سقطت يدُه على جنبه وتابع حديثه.

«لمدة ثمانية وعشرين عامًا، حكمت أسواق المال في العالم. لا يوجد مجلس وزراء انعقدَ في هذا البلد لم يكن حاضرًا فيه نفوذي. يأتي الوزراء إليَّ واحدًا تِلو الآخر للحصول على المساعدة والمشورة. أنا أمثِّل القوة الكبرى الثالثة للحرب، ولا يوجد عضوٌ واحد في الحكومة الحاليَّة لا يعتبرني أهمَّ شخص في البلاد. ومع ذلك، فأنا أيضًا لديَّ أعداء، يا روني. هناك

الصحافة الصفراء. سيُعطون مليونًا مقابل الفرصة التي قد تأتي في أيِّ يوم. وسيطبعون خبرَ سقوطي في عناوين بالبنط الأسود العريض أكثرَ من إعلان الحرب. وسيتصايحون فرحًا بتدميري بشكل أكثرَ وقاحة حتى مما كانوا يُحيون به دعاة السلام. والخيوط موجودة، يا رونالد. أشعر أحيانًا برجفة بعض الشيء. وفي بعض الأحيان يجب أن أمدَّ ذراعي وأزيح المستفسرَ الفضولي للغاية إلى المكان الذي ينتهي فيه الفضول. أجلس وأشاهد وأنا مخدومٌ جيدًا. هناك رجالٌ هذا الصباحَ في قصر باكنجهام يُعلقون على صدورهم وسامَ فيكتوريا كروس، وقد واجَهوا مخاطرَ لمدة عشر دقائق، أقلَّ مما أواجهُ أنا ليلًا ونهارًا.»

نهض جرانيت واقفًا.

وصاح قائلًا: «للحظة، كنت قد نسيت ... أخبِرني»، وأضاف بقوة مفاجئة: «من أجلِ ماذا فعلنا ذلك؟ لقد صنعت اسمَك الكبير في إنجلترا، كنت إيتون وأكسفورد. لماذا عندما يأتي النضال العملاق تصبح ألمانيا هي التي تحكم قلبك، وتصبح ألمانيا هي مَن تنادي حتى بالنسبة إليَّ؟»

مد السير ألفريد يده. ونظرَت عينُه على الساعة.

وقال: «روني، هل تساءلت يومًا لماذا يعرف كلُّ حمَلٍ أمَّه في وسط قطيعٍ من الأغنام؟ إن ألمانيا هي أمُّ سُلالتنا. الولادة والحياة والتعليم لا قيمة لها عندما تأتي الأيامُ العظيمة، عندما يتكلم صوتُ الأم. ليس الأمر أننا كاذبون مع إنجلترا، بل أننا صادقون مع أنفسنا. يجب أن تذهب الآن، يا روني! لديَّ موعد.»

خرج جرانيت إلى الشارع وهو متحير قليلًا، واستوقف سيارة أجرة.

وغمغم في نفسه: «أفترضُ أنَّ هذا هو تفسير الأمر.»

الفصل الخامس والعشرون

رحبت جيرالدين بضيفها غيرِ المتوقَّع بعد ظهر ذلك اليوم بحرارة كافية ولكن بخجلٍ بعضَ الشيء.

وقالت، وهي تُصافحه: «لقد ظننتُ أنك ستبقى في برانكاستر مدة أسبوع.»

قال جرانيت: «كنا نعتزم البقاءَ مدةً أطول، لكن الأمور سارت على نحوٍ خاطئ بعضَ الشيء. في البداية وقعَت غارة زيبلن هذه. ثم ذراعي لم تشفَ تمامًا. وبشكل عام أخفقت رحلتنا الصغيرة وعُدت الليلةَ الماضية.»

سألت جيرالدين بحماس: «هل رأيت شيئًا من الغارة؟»

أجاب بجدية: «أكثر ممَّا أردت. حيث كنت أقود السيارة عبر الطريق في ذلك الوقت، واضطُرِرت إلى حضور محاكمة عسكريةٍ مثالية في اليوم التالي، وقد ترأسها صديقُكِ طومسون.» ثم تابع وهو يُراقبها عن كثب: «هل يمكن أن تُخبريني يا آنسة كونيرز كيف يُرسل مكتب الحرب الميجور الطبي الذي هو مفتش المستشفيات، لإجراء تحقيقٍ بشأن تلك الغارة؟»

سألته في حيرة: «هل كان هيو هناك حقًّا؟»

أجاب جرانيت: «أجل، وبشكلٍ رسمي للغاية. ولولا أن لديَّ دليلًا قاطعًا لإثبات ما كنتُ أفعله هناك، لأوقع بي في مشكلة؛ فقد كان يبدو مُصرًّا على ذلك.»

قالت ببرود قليلًا: «هيو دائمًا عادلٌ للغاية.»

قال في إصرار: «إذن فلن يمكنكِ حلُّ اللغز الخاص بي، أليس كذلك؟»

«أيُّ لغز؟»

«لماذا ينبغي على مفتش المستشفيات إجراءُ تحقيقٍ بشأن غارة زيبلن؟»

فقالت: «للأسف لا أستطيع. من المؤكد أن هيو قد أصبحَ شخصًا غامضًا للغاية، ولكن، كما تعلم، أنا لم أعُد أراه كثيرًا مؤخرًا. يبدو أن تغيير الجو الذي أجريتَه، يا كابتن جرانيت، لم يُفدْك كثيرًا. هل كان جُرحك يزعجك؟»

فنهض على نحوٍ مفاجئ ووقف أمامها.

وسألها: «هل يُهمُّكِ ما إذا كان جرحي يزعجني أم لا؟ هل تهتمِّين بأي شيء يخصني على الإطلاق؟»

ساد الصمتُ للحظة.

ثم قالت: «أنا أهتمُّ كثيرًا.»

بدا فجأة أنه شخصٌ قد تغير. وأصبحت الخطوط التي ظهرت بالتأكيد في وجهه خلال الأيام القليلة الماضية أكثرَ وضوحًا. فانحنى نحوها بشغَف.

وقال: «آنسة كونيرز، جيرالدين، أريدكِ أن تهتمِّي — بما يكفي للأشياء الكبيرة. لا تُقاطعيني من فضلك. استمعي إلى ما يجب أن أقوله. بطريقةٍ أو بأخرى، أصبحَت الأمور تسير معي على نحوٍ خاطئ مؤخرًا. رؤسائي لن يُعيدوني إلى الجبهة مرةً أخرى، لقد شُغل مكاني، ولن أشارك في أي معارك. لقد وضعوني على الرفِّ في مكتب الحرب؛ ويريدون أن يُسندوا إليَّ وظيفةً إدارية هنا في داخل البلاد. لا يمكنني القبول بها؛ فقد عشتُ وسط الأحداث الكبيرة مدةً طويلة. لقد سئمت الانتظار، وعدم القيام بأي شيء — سئمت حتى الموت. وأريد الذهاب بعيدًا. هناك بعض الأعمال التي يمكنني القيام بها في أمريكا. هل تفهمين ما أعني؟»

قالت له جيرالدين بصراحة: «مطلقًا.»

فقال: «هذا خطئي. يبدو أن جميع الكلمات تتبعثرُ من فمي على أيِّ حال ولا أعرف كيف أضعها بالترتيب الصحيح. ألا تُدركين أنني أحبك، يا جيرالدين؟ أريدكِ أن تُصبحي زوجتي، وأريد أن أذهب بعيدًا بأسرعِ ما يمكن. لماذا لا نهاجر إلى أمريكا؟ لماذا لا نتزوَّج هذا الأسبوعَ ونبتعد عن الجميع؟»

نظرت إليه بذهول شديد، ذهول خفَّفه قليلًا نوعٌ من عدم اليقين الشديد.

وصاحت قائلة: «لكن، يا كابتن جرانيت، لا يمكن أن تكون جادًّا! لا يمكنك التفكيرُ في مغادرة إنجلترا الآن.»

احتجَّ قائلًا: «لمَ لا؟ إنَّهم لن يسمحوا لي بالقتال مرةً أخرى. وأنا لن أتحمَّل الروتين البائسَ للعمل الإداري حتى وإن كان عسكريًّا. أودُّ الابتعاد ونسيان كل شيء.»

قالت بهدوء: «أنا متأكدة من أنك لستَ جادًّا. لا يمكن لأي رجلٍ إنجليزيٍّ أن يشعر بذلك.»

قال جرانيت في إصرار: «يمكنه إذا كان يهتمُّ لأمرك. أنا خائفٌ من كل شيء هنا، خائف من أن يعود طومسون ويأخذكِ بعيدًا، خائفٌ من كل أنواع الأشياء البشعة التي قد تحدث خلال الأشهر القليلة المقبلة.»

رجَتْه قائلة: «لا يجب أن تتحدَّث هكذا، من فضلك. أنت تعلم مثلما أعلم أنه لا أنت ولا أنا يُمكننا أن نتخلى عن إنجلترا الآن ونصبح سعداء.»

فتح شفتَيه ليتحدَّث لكنه توقف. كان من الواضح أنها جادَّة للغاية.

وتابعَت قائلة: «أما بالنسبة إلى الشيء الآخر الذي تحدثتَ عنه، فمن فضلك هل تفعل مثلما رجوتك ولا تُثر إليه مرةً أخرى في الوقت الحاضر؟» وأضافَت قائلة: «ربما عندما تنتهي الحربُ قد نتحدث عنه، لكن الآن كل شيء مرتبكٌ للغاية. أنا، أيضًا، يبدو أنني فقدتُ اتجاهاتي ... هل تعلم أنني ذاهبةٌ إلى بولونيا في غضون أيام قليلة مع مستشفى الليدي هيدلي؟ لا تبدُ خائفًا هكذا. أنا لست ممرضةً هاوية، يمكنني أن أؤكد لك. فأنا حاصلةٌ على كل الشهادات اللازمة.»

غمغم قائلًا: «إلى بولونيا؟ هل ستتركين لندن؟»

أومأت برأسها.

«لقد رتَّب الميجور طومسون الأمر لي، منذ أيام قليلة. قد نلتقي هناك في أي وقت.» وأضافت وهي تبتسم: «أنا متأكدة تمامًا من أن مكتب الحرب سيجد لك مهمةً في الخارج قريبًا جدًّا.»

وللحظة أعادت تلك النظرةُ الغريبة للقوة الصِّبيانية التي جذبتْها لأول مرةٍ تأكيدَ نفسها. وجزَّ على أسنانه.

ثم قال: «أجل، هناك عمل لي في مكانٍ ما. سوف أجده. فقط ...»

أوقفتْه بسرعة.

وقاطعتْه قائلة: «وأنا متأكدة تمامًا، أنك عندما تُصبح على طبيعتك مرةً أخرى، سوف تُوافقني الرأي. هذه ليست الأوقاتَ المناسبةَ لسيطرة أفكارٍ أنانية علينا، أليس كذلك؟»

فقال لها: «حتى أسابيع قليلة مضَت، لم أكن أفكر في شيء سوى الحربِ وعملي فيها ... إلى أن أتيتِ أنت، أصبح هذا هو الحال.»

مدَّت يدَيها لتُوقفه. وبدَت عيناها بليغتَين.

ورجَته قائلةً: «من فضلك تذكَّر أن الوقت مبكر جدًّا. لا أستطيع أن أتحمَّل أن تتحدثَ معي بهذه الطريقة. فيما بعد ...»

صاح بمرارةٍ: «لن يُصبح هناك فيما بعد بالنسبة إليَّ!»

اختلط ظلُّ اندهاش مع انفعالها.

واعترضَت قائلة: «لا يجب أن تتحدثَ بهذه الطريقة، أنت مع شجاعتك الرائعةِ وفرصك! فكِّر في ما قمتَ به بالفعل. إن إنجلترا تريد أفضلَ أبنائها اليوم. ألا يُمكنك أن ترضى بإعطاء ذلك والانتظار؟ لدينا الكثيرُ من الامتنان في قلوبنا، نحن النساء الضعيفات، لأولئك الذين يخوضون معركتَنا.»

فشلَت كلماتُها في إلهامه. فأمسك بيدها ورفع أصابعها عمدًا إلى شفتَيه.

وقال بصوتٍ خفيض قائلًا: «لقد كنت أحمقَ عندما ظننت أنه يمكنكِ أن تشعري بما أشعر به. وداعًا!»

كانت جيرالدين بمفردِها عندما دخلَت والدتها الغرفةَ بعد بضع دقائق. وبدَت الليدي كونيرز مرتبكةً بعض الشيء وقلقة.

وسألت: «هل كان ذلك الكابتن جرانيت؟»

أومأت جيرالدين برأسها. فازداد قلقُ الليدي كونيرز.

«وماذا جرى؟»

قالت جيرالدين بهدوءٍ: «لقد رفضت طلبه إلى أن تنتهيَ الحرب.»

أوقف جرانيت سيارتَه خارج بوابات ذلك النادي الرائع في بال مول. وأخذ عاملُ العناية بالمعاطف اسمَه، وبعد بضعِ دقائق انضم إليه عمُّه في قاعة الضيوف.

«لقد عدت سريعًا، يا روني؟»

أومأ جرانيت برأسه.

وقال: «لقد تخليتُ عن فكرة الهجرة إلى أمريكا. وظننت أنه من الأفضل أن أخبرَك بذلك. يجب أن يكون كل شيء الآن.»

ظل السير ألفريد صامتًا للحظة.

ثم قال: «حسنًا، تذكر هذا فقط، يا بني — يجب ألا تُعرض نفسك لمخاطرَ أخرى. لقد كنتَ تُبحر بالقرب من الريح بدرجةٍ كافية.»

سأله جرانيت بسرعة: «هل ذهبتَ إلى مكتب الحرب؟»

أجابه عمه.

«لقد فعلت وقابلتُ الجنرال برايس. واعترف بثقةٍ أنهم ليسوا حريصين جدًّا على إعادة انضمامك. لا شيء شخصي» ثم تابع بسرعة: «لا شيء خطير، بمعنًى آخر. هناك نوعٌ من الانطباع على الجبهة بأنك جلبتَ لهم الحظ السيئ.»

هز جرانيت كتفيه.

وقال: «حسنًا، إنهم يعرفون عملَهم الخاصَّ بشكلٍ أفضل. ما أخاف منه هو أن أصبح مثقلًا ببعض المهامِّ الإدارية البغيضة هنا بعيدًا عن الجبهة.»

قال له عمُّه بهدوء: «لا داعي للخوف من ذلك بعد الآن، يا روني.»

استدار جرانيت بسرعة.

وسأله في قلق: «هل تقصد أنهم لا يريدون أن يُسندوا إليَّ أي مهامَّ على الإطلاق؟»

هز السير ألفريد رأسه.

«أنت مندفعٌ للغاية، يا روني. إنهم يريدون منحك مهامَّ داخل البلاد، لكنني طلبتُ منهم إرجاءَ الأمر بعضَ الوقت، حتى أتركك بدون انشغال.»

«لديك شيءٌ في عقلك، إذن ... شيء محدد؟»

نظر السير ألفريد من النافذة للحظة. ثم وضع يده على كتف ابن أخيه.

وقال بجدِّية: «أعتقد أنني أستطيع أن أعدَك، يا روني، أنك خلال أيام قليلة ستُصبح مشغولًا للغاية.»

الفصل السادس والعشرون

التفَّ الجراح الميجور طومسون ومال للحظةٍ وأمسك بالسور الذي بجواره. ثم تمالكَ نفسه بسرعة، وبينما ينحني إلى الأمام، حدَّق بلهفة في سيارة السباق الرمادية الطويلة، التي كانت تمرُّ بالفعل أمام قصر باكنجهام، وتوارت عن الأنظار تقريبًا في ضباب الصباح الخفيف. وكانت هناك سحابة صغيرة جدًّا من الدخان الأبيض تنساب بعيدًا في الفضاء، مع رائحة بارودٍ خفيفة في الهواء. وتحسَّس خده، وسحب أصابعه، وحدق إليها مع ضحكةٍ عصبية بسيطةٍ — فقد كانت مبللةً بالدماء.

ونظر إلى أول الطريق الواسعِ وآخرِه. وبالنسبة إلى أن الساعة هي التاسعة صباحًا، كان بيردكيج ووك خاليًا تمامًا من المارة. ومع ذلك انتقلَت الفتاةُ، التي كانت تقود سيارةً صغيرةً ببطءٍ شديدٍ على الجانب الآخر من الطريق، على نحوٍ مفاجئٍ إلى الجانب الآخر، وتوقفَت بجوار الرصيف ومالت نحوه.

وقالت: «هيو — ميجور طومسون، ماذا بك؟»

ضغط على خدِّه بمنديل جيبه.

وأجاب ببساطة: «لا شيء.»

فصاحت: «لا تكن سخيفًا! لقد شعرت بكل تأكيدٍ أنني سمعتُ طلقةً للتو، ورأيتك تلتفُّ وتدور حول نفسك للحظة. وخدك أيضًا ... إنه ملطَّخ بالدم!»

ابتسَم.

وقال: «لقد أُطلقت رصاصةٌ نحوي وخُدِش خدِّي فقط. شيءٌ استثنائي للغاية. أتساءل عما إذا كان أحدُ هؤلاء الرجال في الحديقة قد طاشت رصاصةٌ من بندقيته.»

نظر بعنايةٍ نحو المكان الذي يظهر فيه عددٌ من الجنود بزيِّهم الكاكي بشكل غيرِ واضح خلف الدرابزين. فنظرت إليه جيرالدين بحدَّة.

وقالت: «بالطبع، إذا كنت تظنُّ حقًّا أنني لا أعرف الفرق بين طلقةِ مسدس وطلقةِ بندقية ...»

قاطعَها.

وقال: «كنتُ مخطئًا. سامحيني. كما ترين، كان رأسي مقلوبًا قليلًا. لقد أطلق شخصٌ ما النارَ عليَّ عمدًا، وأعتقد أنه كان من سيارة سباق رمادية. لم أستطع رؤيةَ مَن كان يقودها، وقد اختفَت عن الأنظار في الحال.»

صاحت قائلةً: «لكنني لم أسمع قطُّ بشيءٍ من هذا القبيل! إنه أمرٌ عجيبٌ لماذا يُطلقون النار عليك؟ أنت ليس لديك أيُّ أعداء، أليس كذلك؟»

أكدَ لها قائلًا: «بحسب ما أعرف ليس لديَّ.»

نزلَت من السيارة وأتت إلى جانبه بخفة.

وأمَرتْه قائلة: «أبعِد منديلك. لا تكن أحمق. أنسيتَ أنني ممرِّضة معتمدة.»

فأبعدَ مِنديله ونظرتْ للحظة نحو الندبة الطويلة. واكتست ملامحُها بالجدية.

وغمغمَت: «نصف بوصة أخرى ... هيو، يا له من شيء فظيع! محاولة قتلٍ متعمَّدة هنا، عند الساعة التاسعة صباحًا، في الحديقة! لا أستطيع فَهم ذلك.»

قال، وهو يبتسم: «حسنًا، لقد تعرَّضت لإطلاق النار عليَّ من قبل.»

فقالت بلهجةٍ آمِرة: «اركب سيارتي في الحال. سنذهب إلى الصيدلية كي نضعَ شيئًا على الجرح. لا يمكنك تركُه هكذا دون تطهير، وسوف يلتئمُ خلال يومٍ أو يومَيْن.»

أطاعها في الحال فانطلقَت بالسيارة.

وقالت: «بالطبع، أنا ما زلت متحيرةً قليلًا بشأن ذلك. أظن أنه يتوجَّب عليك الذَّهاب إلى مركز الشرطة. لقد كانت محاولة اغتيال متعمدة، أليس كذلك؟ لو أنك كنت ...»

توقفَت فأكمل جُملتها مع لمعةِ مرح في عينَيه.

«لو أنني كنت شخصًا ذا أهمية، أليس كذلك؟ حسنًا، كما ترَين، حتى أنا لا بد أن هناك شخصًا ما يريد إزاحتي عن طريقه.»

قادت في صمتٍ مسافةً قصيرة.

ثم سألته فجأة: «هيو، لماذا أرسلك مكتبُ الحرب إلى ماركت بيرنهام بعد غارة زيبلن؟»

تجمَّدت ملامحُ وجهه فجأة. وأدار رأسه قليلًا.

«هل أخبرك جرانيت بذلك؟»

أومأت برأسها.

«لقد جاء الكابتن جرانيت لزيارتي بعد ظُهر أمس. وبدا متفاجئًا بقدرِ ما كنتُ متفاجئة. هل كنت قاسيًا عليه قليلًا؟»

«لا أعتقد ذلك!»

فقالت في إصرار: «ولكن لماذا أُرسلتَ إلى هناك؟ لا أستطيع أن أتخيل علاقتك بغارة زيبلن.»

هزَّ كتفيه.

وقال: «لا أعتقد حقًّا أن الأمر يستحق عناءكِ بخصوص الضِّمَادة.»

صاحت قائلة: «هيو، أنت تُغضبني للغاية! بالطبع، قد تقول إنني ليس من حقِّي أن أسأل، ولكني ما زلت لا أستطيع أن أفهم لماذا يجب أن تظلَّ غامضًا هكذا ... ها هي الصيدلية. الآن تعالَ معي إلى الداخل، من فضلك.»

تبعها بطاعةٍ إلى الصيدلية الواقعة في ميدان ترافالجار. فغطَّت جرحه ببراعة ووضعَت ضِمادةً حول رأسه.

وقالت: «إذا احتفظت بهذه طوال اليوم، أعتقد ... لكني نسيت. فأنا أعاملك كمريضٍ عادي. لا تسخَر مني، يا سيدي. أنا متأكدةٌ من أن أيًّا من ممرضاتك المحترفات لم يكن بإمكانها ربطُ الضمادة بشكل أفضل.»

وافق على ذلك قائلًا: «بالطبع لا يستطعن. بالمناسبة، هل حصَلتِ على أوراقكِ من أجل السفر إلى بولونيا؟»

«أتوقَّع أن أذهب الأسبوعَ المقبل. لقد وعدَت الليدي هيدلي أن تُخبرني هذا المساء. والآن سآخذك إلى مكتب الحرب، إذا أردت.»

أخذ مكانه مرةً أخرى إلى جانبها.

فسألته: «هيو، هل لديك أيُّ فكرة عمَّن أطلق تلك الرصاصة؟»

أجاب: «ليس لديَّ على الإطلاق، لا توجد فكرة محددة، بمعنًى آخر. لقد كان شخصًا يقود سيارةً رمادية، منخفضة. هل نعرف أحدًا يمتلك مثلَ هذه السيارة؟»

قطبَت جبينها. ومنعَتها مقتضيات المرور أن تنظر إليه.

وقالت: «الكابتن جرانيت فقط، وأظن أنه حتى كراهيتك له لا تصل إلى حدِّ الإشارة إلى أنه من الممكن أن يلعب دور القاتلِ المحتمل في وضح النهار.»

وقد وافقَ على ذلك بقوله: «يبدو الأمر بالتأكيد متسرعًا إلى حدٍّ ما وإجراءً غير ضروري، ولكن تظل الحقيقة أن شخصًا ما يعتقد أن الأمر يستحقُّ العناء.»

قالت بجفاء: «شخصٌ ما لديه ضغينة ضد كبير مفتشي المستشفيات.»

لم يرد. وتوقَّفا خارج مكتب الحرب.

فقال: «شكرًا جزيلًا لك، على لعب دور السامريِّ الصالح.»

كشرَت تكشيرةً طفيفة. وفجأةً أصبح أسلوبها أكثرَ جدية. ووضعَت أصابعها على ذراعه وهو يقف على الرصيف بجانبها.

وقالت: «هيو، قبل أن تذهب دعني أخبرك بشيء. أعتقد أن السببَ الحقيقي الذي جعلني أفقد بعضًا من محبتي لك هو أنك تُصرُّ على معاملتي دون أي ثقة على الإطلاق. الأشياء الصغيرة التي ربما حدثَت لك خارج البلاد، التفاصيل الصغيرة في حياتك، الجانب غير المؤذي من مهنتك — هناك الكثير من الأشياء التي كان من الممكن أن تثير اهتمامي. وأنت لم تُخبرني بأيِّ شيء. كانت هناك أشياء يبدو أنها تتطلَّب تفسيرًا لموقفك. وأنت تجاهلتَها. يبدو أنك تستمتع بالحياة في جوٍّ غامض. وقد أصبح الأمر الآن أسوأَ من أي وقتٍ مضى. أنا ذكية، فهل أنا غير ... جديرة بالثقة؟»

قال بجِدية: «أنت تمتلكين الصفتَين. شكرًا جزيلًا لإخباري بهذا، يا جيرالدين.»

سألتْه، وهي تنظر في وجهه: «هل ما زلتَ ترفض مصارحتي؟»

أجاب: «لا يوجد ما أصارحكِ به.»

أومأتْ برأسها، وحركَت ناقل السرعات وانطلقت بالسيارة. ودخل الجرَّاح الميجور طومسون مكتب الحرب، وشقَّ طريقَه عبر العديد من السلالم وعلى طول العديد من الممرات الواسعة إلى غرفةٍ كبيرة في الطابق العلوي من المبنى. حيث جلس رجلان على مكتبَيْن، يكتبان. فتجاوزَهما مع تحيةٍ بسيطةٍ ودخل غرفةً داخلية. فوجد كومةً من الرسائل على مكتبه. ففحصها واحدةً تلو الأخرى، ومزق بعضها، وأبدى ملاحظات بالقلم الرصاص على الأخريات. وفجأةً طُرِق الباب ودخل أمبروز.

وقال: «يُبلغك المدير تحياته وسيُسعده أن تقابله في مكتبه على الفور، يا سيدي.»

أغلق طومسون مكتبه، وشق طريقه إلى الناحية الأخرى من المبنى وسُمح له بالدخول عبر بابٍ يقف أمامه حارس، إلى غرفة انتظار ينتظر بداخلها عشَرة أشخاص. ثم قاده مرشده إلى غرفة داخلية، يجلس بداخلها رجلٌ بمفرده. نظر نحو طومسون عند دخوله.

وقال بلهجةٍ جافة: «صباح الخير يا طومسون! اجلس، من فضلك. اترك الغرفة، يا دوكس، وأغلق الباب. شكرًا! يا طومسون، ماذا عن طلبك هذا؟»

أجاب طومسون: «لقد شعرت بأنني ملزمٌ بعرض الأمر عليك يا سيدي. لقد قدَّمت طلبي إلى الرقيب وأنت تعرف النتيجة.»

تأرجحَ المدير في كرسيِّه.

وقال: «انظر هنا، لدى قسم الرقيب تعليماتٌ بأن يوفر لك كلَّ مساعدة ممكنة في أي أبحاث تقوم بها. هناك فقط أربعةٌ وعشرون اسمًا في المملكة المتحدة مُنِحوا امتياز عدم خضوع مراسلاتهم للتفتيش. ولا يحقُّ للرقيب لمسُ أي رسائل موجَّهةٍ إليهم. والسير ألفريد أنسيلمان من ضمن تلك القائمة.»

أومأ طومسون بجدِّية.

وقال: «لقد أُبلِغت بذلك.»

أسند المدير ظهره إلى كرسيه. بينما تتفحَّص عيناه الرماديتان الباردتان وجهَ الآخر.

وتابع قائلًا: «طومسون، أنا أعلم أنك لست شخصًا محبًّا للإثارة. وفي الوقت نفسِه، فإن طلبك هذا محطِّم للأعصاب، أليس كذلك؟ إذ إن السير ألفريد أنسيلمان هو الذراع اليمنى للمستشار. وقد نجَحنا في الحصول على قرض الحرب بفضل جهوده. لقد فعَل لنا في المدينة أكثرَ من أي رجل إنجليزي آخر. ودفع مبالغ كبيرة لصناديق الحرب المختلفة، وابن أخيه ضابط شاب متميز للغاية. والآن يأتي فجأةً طلبٌ منك لجعل الرقيب يمنحك نسخًا من جميع مراسلاته الألمانية. ستصبح العواقب وخيمةً إذا وافقت على ذلك.»

تنحنح طومسون للحظة.

ثم قال: «سيدي، لقد ناقشنا أنا وأنت هذا الأمرَ بشكلٍ غير مباشر أكثرَ من مرة. وأنت حتى الآن لست متفقًا معي في الرأي ولكنك ستتَّفق معي عما قريب. لقد أزعجتنا الصحفُ الصفراء بموضوع الجواسيس لدرجة أن الرجل الذي يهمس بخصوص التجسس اليوم يجري تجنبُه مثل الوباء. ومع ذلك فإن انطباعي أنه يوجد في لندن منظمةٌ قوية للغاية للتجسس الألماني، غيرُ مكتشَفةٍ وغير مشتبَه بها، مجموعةٌ من الرجال الذين باعوا أنفسهم للعدو، والذين كنا نعتبر أسماءهم فوق الاشتباه. ووظيفتي هي غربلة هذه المسألة حتى القاع. ولن أتمكَّن من فعل ذلك إلا إذا منحتَني سلطةً عليا على الرقابة.»

سأله المدير بحدة: «انظر هنا، يا طومسون، هل تشتبهُ في السير ألفريد أنسيلمان؟»

«أجل، يا سيدي!»

فأصيب المدير بالذهول على نحوٍ واضح. وظل، للحظات قصيرة، يُفكر.

ثم غمغمَ قائلًا: «أنت رجل راجحُ العقل، للغاية، يا طومسون، لكنها أكثرُ تهمةٍ مثيرة للدهشة سمعتُها على الإطلاق.»

أجاب طومسون: «إنها أكثرُ مؤامرةٍ مثيرة للدهشة. لقد كنت في ألمانيا قبل بضعة أسابيع، كما تعلم.»

«لقد سمعت كلَّ شيء عن تلك المهمة. إنها مهمة بطولية رائعة للغاية، ولكنها خطيرةٌ للغاية أيضًا تلك التي قمتَ بها، يا طومسون.»

تابع الأخير قائلًا: «سأخبرك بانطباعاتي يا سيدي، إن الجهل الذي تُظهره الصحف الألمانية بشأن إنجلترا هو بالكامل مسألةُ رقابة. لكن معلوماتهم الفعلية عن كل تفاصيلِ وضعنا العسكري هي ببساطةٍ مذهلةٌ. إنهم يعرفون بالضبط ما هي الذخائر التي تصل إلى شواطئنا من الخارج، ويعرفون كيف ندفع مقابلها، ويعرفون تمامًا وضعَنا المالي، ويعرفون كلَّ شيء عن أسلحتنا الجديدة، ويعرفون عدد الرجال الذين يُمكننا إرسالهم إلى فرنسا غدًا، وكم من يمكننا استقدامهم في غضون ثلاثة أشهر. إنهم يعرفون وجهات النظر الخاصةَ لكلِّ واحد من وزراء الحكومة. وكانوا يعرفون في برلين أمسِ ما حدث في مجلس الوزراء في اليوم الذي سبقه. لا بد أنك تُدرك أنت نفسك أنَّ بعضًا من هذا صحيح. فكيف تصل المعلومات إليهم؟»

اعترف المدير قائلًا: «هناك جواسيس، بالطبع.»

«ليس بإمكان الجاسوس العاديِّ تقديمُ مثل هذه التقارير التي يحصل عليها الألمانُ على مدار الساعة. ولكي أنجح في وظيفتي، فأنا أريد رسائلَ السير ألفريد أنسيلمان.»

بحث المدير الأمر في ذهنِه عدة لحظات. ثم كتب بضعة أسطر على ورقة.

وقال ببساطة: «ستُصبح العواقب وخيمة. سيتوافد علينا وزراءُ في مجلس الوزراء زحفًا مثل الخنافس السوداء. ماذا حدث لرأسك؟»

أوضح طومسون قائلًا: «لقد أُطلِقت نحوي رصاصةٌ في الحديقة. صوَّبها رجلٌ من داخل سيارة تسير بسرعة هائلة.»

«هل قُبض عليه؟»

هز طومسون رأسه.

وأجاب: «لم أحاول أن أفعل. فأنا أريده طليقًا. سيأتي وقتُه عندما أُفكِّك هذه المؤامرة، إذا كنت سأتمكن من تفكيكها.»

بدا المديرُ متأثرًا بعض الشيء.

وقال في تذمُّرٍ: «لم يُطلق أحدٌ حتى بندقيةَ فلِّين في وجهي. لا بد أنهم يعتقدون أنك أخطر الاثنَين، يا طومسون. عليك أن تستفيد من هذا التصريح في أسرعِ وقت ممكن. فأنا لا أعرف متى سأُضطرُّ إلى إلغائه.»

أخذ طومسون التصريحَ وغادر. ثم عاد بسرعة إلى غرفته، ووضع التصريح الذي تلقاه في مظروف، وأرسله إلى قسم الرقيب.

الفصل السابع والعشرون

نظر السيد جوردون جونز، الذي نقل كرسيَّه إلى مسافةٍ أقرب قليلًا بجوار مضيفه، بتمعُّن حول غرفة الطعام وهو يرتشف مشروبَه. حيث بقي كبيرُ الخدم على مضضٍ بسبب شيب شعره، لكن خدم المائدة، الذين كانوا نوعًا ما سِمةً من سمات بيت أنسيلمان، غادروا، وحلَّت محلَّهم ستُّ خادماتٍ جميلات، لا تزال واحدةٌ أو اثنتان منهن موجودة.

ومن ثم قال: «إن بيتك بالتأكيد واحدٌ من أكثر البيوت الوطنية التي دخلت إليها، يا سير ألفريد. قل لي مرةً أخرى، كم عدد الخدم الذين أرسلتهم إلى الحرب؟»

ابتسم السير ألفريد وبدا كشخصٍ فَخورٍ قليلًا بالرقم الذي حقَّقه.

وأجاب: «أربعةُ خدم وسائقان من هنا، وأحدَ عشر بستانيًّا وثلاثة خدم داخليِّين من الريف. هذا بخلاف المزارع، حيث تركتُ الأمور في أيدي وكلائي. وأنا أدفع الأجور كاملة لكل واحدٍ منهم.»

قال الوزير، وهو يبتسم: «والحمد لله، لا يزال يتعين عليك دفعُ القليل من الضرائب الإضافية.»

لم يجد السير ألفريد شيئًا يُزعجه في هذا القول.

فوعده قائلًا: «ستحصل على كل قرش منها، يا صديقي. لقد أخذتُ ربع مليون من قرضك الحربي وسآخذ المبلغ نفسَه من قرضِك التالي. فأنا أقضي كلَّ وقتي في لجانك، وشئوني الخاصة بالكاد تُهمني، ومع ذلك كنتُ أفكر اليومَ، عندما أوقفتُ سيارتي للسماح لجمعٍ من لندن ريجيمنت بالسير إلى تشيرينج كروس، أنه ليس هناك واحدٌ من هؤلاء الشباب الذين يرتدون الزيَّ الكاكي لم يُقدم أكثرَ مني.»

انحنى الأسقفُ للأمام من مكانه.

وقال: «هذه كلمات جديرة بالملاحظة، يا سير ألفريد. لا يوجد شيء في العالم كلِّه يبدو أمام أنفسنا غيرَ فعال تمامًا مثل امتناننا العاطفيِّ عندما نفكر في كل هؤلاء الشباب ... ليس الجنود، كما تعلمون، ولكن شباب السلام، المولعين بمتعهم، وألعابهم، وأحبابهم، وعملهم ... الذين تركوا كل ذلك، ويمرون إلى حياةٍ أخرى، يمرون إلى وادي الظلال. أنا أيضًا رأيتُ هؤلاء الشباب، يا سير ألفريد.»

أصبحَت المحادثة عامة. وأسند مضيفُ حفل العشاء الصغير ظهرَه إلى الخلف للحظة، منغمسًا في التفكير. لقد كانت صحبة مميزة للغاية، رغم أنها صغيرة. كان هناك ثلاثةُ وزراء، ومسئول رفيع في مكتب الحرب، وأسقفٌ، وجندي من العائلة الملَكية عاد لبضعة أيام من الجبهة، وابن أخيه ... جرانيت. فجلس ونظر حوله نحوَهم بينما تتراقص على شفتَيه ابتسامةٌ صغيرة غريبة. إذا كانت الحقيقة فقط معروفة، فإن العالم لم يرَ قط تجمعًا أكثرَ غرابة. لقد كانت صحبة ربما كان الملك نفسُه سيفتخرُ بجَمْعها حوله؛ رجال إنجليز جادُّون ويُمثِّلون الرجل الإنجليزي — وهم أيضًا يتمتعون بمكانةٍ عالية. لم يكن هناك واحدٌ منهم لم يقبل دعوتَه بسهولة، ولم يكن هناك واحد منهم غير فخورٍ بالجلوس على مائدته، ولم يكن هناك واحد منهم لم يُنظر إليه على أنه إحدى دعائم الإمبراطورية.

وبينما هو مستغرقٌ في أفكاره، سمع حفيفًا بسيطًا بينما تسير إحدى خادمات الاستقبال الجدُد بسلاسةٍ إلى جانبه ثم قدَّمت له طبقًا فِضيًّا. فأخذ منها الخطابَ الموضوع على الطبق، ونظر إليه للحظة بلا مبالاة، ثم شعر كأنَّ الأصابع التي تُمسكه قد ثقبت بأسلاكٍ ملتهبة. وبدا أن الصحبة الصغيرة اللامعة تتلاشى فجأةً من أمام عينيه. ولم يعد يرى شيئًا سوى العلامات الموجودة على ذلك الخطاب، التي تكبر وتكبر كلما نظَر إليها، حيث طبعت الكتابة الحقيقية للقدر على الظرف بختمٍ مطَّاطي — ربما بيدِ كاتب (فتحه الرقيب).

كان هناك طنينٌ خاطف في أذنيه. نظر إلى كأسه، ووجدها ممتلئةً، فرفعها إلى شفتَيه وتجرَّعها بالكامل. مرَّت اللحظة المروعة للحركة المتوقفة مؤقتًا. لم يعد يشعر بأنه في غرفةٍ سُحب منها كل الهواء. لقد تمالك نفسه مرةً أخرى ولكن الرسالة ما زالت هناك. وانحنى السيد جوردون جونز، الذي كان يتحدث إلى الأسقف، نحوه وأشار إلى الظرف.

وسأل: «هل هذا لك، يا سير ألفريد؟»

أومأ السير ألفريد برأسه.

وقال، بينما يرفعُه لأعلى: «لقد أصبحت الأمور أكثرَ صرامة، كما أرى.»

أجاب الآخر: «أعتقد أنني ميزت العلامة. إن هذا خطأ شائن! أنا سعيد جدًّا لأنني لاحظتُ هذا. أنت غير خاضع على الإطلاق لرقابة الرقيب، يا سير ألفريد.»

قال السير ألفريد: «أنا نفسي اعتقدت ذلك. ومع ذلك، أعتقد أنه من غير المهمِّ التساؤلُ عن خطأٍ عرَضي. لا تُقلقهم حيال ذلك، من فضلك. إن خطاباتي الألمانية هي ببساطة سجلاتٌ للأرصدة في بنوكي المختلفة، مجرد تفاصيل مالية.»

قال السيد جوردون جونز في إصرار: «رغم ذلك، لقد حدث إهمالٌ جسيم في مكانٍ ما. سأتأكد من الاستفسار عن الأمر في صباح الغد.»

قال السير ألفريد: «هذا لطفٌ كبير منك. وكما تعلم، لقد كنت أتمكَّن من منحك أجزاء من المعلومات بين الحينِ والآخر وهذا سيتوقَّف فورًا، بالطبع، إذا كانت مراسلاتي ككلٍّ تخضع للرقابة. خطأ عرَضي مثلُ هذا ليس شيئًا.»

ومن ثَم حدثت مقاطعةٌ أخرى. هذه المرة وصلَت رسالةٌ من البرلمان — حيث يجب حضور الوزراء خلال الدقائق العشرين القادمة. وهكذا انفضَّت الحفلة الصغيرة — التي كانت حفلةَ عشاء للرجال فقط — وانتهت. وسرعان ما تُرك السير ألفريد وابنُ أخيه وحدهما. واهتزَّت أصابع السير ألفريد للحظة وهو يُمزق ختم خطابه. ونظر على الأسطر القليلة التي يحتوي عليها وتنفَّس الصُّعداء.

وقال: «تعالَ معي، يا روني.»

غادَرا غرفة الطعام وتجنَّبا الكمالياتِ الجذابةَ لغرفة البلياردو والمكتبة، وانتقلا إلى غرفةٍ صغيرة في الخلف، مؤثَّثة بشكل بسيط كمكتبٍ لرجل أعمال. وأمسك جرانيت عمَّه من ذراعه.

«إنه مشفَّر، أليس كذلك؟»

أومأ السير ألفريد برأسه.

قال بينما يُشير بإصبعه إلى الخطاب: «إنه مشفَّر، يا روني، وأُسِرُّ إليك أني لا أعتقد أنهم سيتمكَّنون من فكِّ الشفرة، لكن مَن فعل ذلك؟»

غمغمَ جرانيت قائلًا: «لا بد أنه كان خطأً.»

نظر السير ألفريد إلى الباب المغلق. وبلا شكٍّ كانا وحدهما.

وقال: «لا أعرف. إن أخطاء من هذا النوع لا تحدث غالبًا. بينما كنتُ أنظر حولي الليلة، يا روني، فكَّرت ... لم أستطع منع نفسي من التفكير في أنَّ موقفنا كان رائعًا إلى حدٍّ ما. هل يعني هذا أن هذه هي أولُ نسمةِ اشتباهٍ، إني أتساءل؟ هل الأمر مجردُ تخيُّل مني فقط، أم أنني سمعتُ هذه الليلةَ الدمدمةَ الأولى للعاصفة؟»

قال جرانيت: «لا أحد يمكن تحت أيِّ احتمال أن يشتبه، لا أحد ممَّن يملكون النفوذ الكافيَ لإلغاء حصانتك من التعرض للرقابة. لا بد أنه كان حادثًا.»

غمغم السير ألفريد قائلًا: «أنا مندهش!»

وسأل جرانيت بلهفة: «هل يُمكنك فكُّ الشفرة؟ ربما هناك أخبار.»

عاد السير ألفريد إلى المكتبة الكبيرة وغاب عدةَ دقائق. وعندما عاد، كانت الرسالة مكتوبةً بقلم رصاص:

اترك لندن في ٤ يونيو. أشعِل الوهج في منتصف الليل عند قصر باكنجهام، ودرجات سلم سانت بول، والحدائق أمام سافوي. استلمنا تقريرَك الأخير.

نظر جرانيت بحماسٍ إلى الرسالة الأصلية. وهي تتألف من بِضع جُمل غير مؤذية تمامًا، تتعلق بأسعار الصرف المختلفة. وأعطاها لعمه مع ابتسامة.

وقال: «لا ينبغي القلقُ بشأن ذلك، يا سيدي.»

قال السير ألفريد بتمعُّن: «هذا ليس الشيءَ الذي يُقلقني في حد ذاته؛ فهم لن يتمكَّنوا من فكِّ تشفير هذه الرسالة أبدًا. إنه الشيء الذي يكمُن وراءه. إنه إصبع الاتهام، يا روني. لقد اعتقدت أننا قد تخلَّصنا منه، على أي حال. تبدو الأمور مختلفة الآن. أنت جادٌّ، أليس كذلك؟ هل لا زلت تريد الذَّهاب إلى أمريكا؟»

أجاب جرانيت بجدية: «كلا. لقد انتهى كلُّ هذا، في الوقت الحاضر. أنت تعرف جيدًا ما أريده.»

عبس السير ألفريد.

وقال: «هناك الكثيرُ من المشاريع الجامحة على وشك التنفيذ، لكنني لست واثقًا، في نهاية الأمر، من أنني أرغب في أن تشارك أنت فيها بشكلٍ خاص.»

تذمَّر ابن أخيه قائلًا: «لا يمكنني إضاعة الوقت هنا مدةً أطول. أشعر بالحماسة في دمي لأفعلَ شيئًا ما. لقد حاولت محاولةً هذا الصباح.»

نظر إليه عمُّه للحظة.

وكرَّر: «هذا الصباح. ماذا فعلت؟»

وضع جرانيت يدَيه في جيبَي بنطاله. بينما ارتسم عبوس على جبهته الجميلة.

وقال بمرارة: «إنه ذلك الرجل الذي أخبرتك عنه ... الرجل الذي أكرهه. إنه ليس شخصًا ذا قيمة، لكن يبدو أنه دائمًا ما يشارك في أيِّ مشكلة صغيرة أجد نفسي فيها. لقد خرجت من تلك العملية في ماركت بيرنهام دون أدنى مشكلة، وبعد ذلك، كما تعلم، أرسله

مكتب الحرب، من بين جميع الناس على وجه الأرض، لإجراء تحقيق. أعتقد أحيانًا أنه يشتبه بي. لقد قابلته في لحظةٍ حرجة في ساحة المعركة بالقرب من نيمن. ولطالما ظننتُ أنه سمعني أتحدث الألمانية — كان ذلك بعد أن عدتُ عبر الخطوط. ومنذ عدة أيام، حسنًا، لقد أخبرتُك بذلك. لولا أن إيزابيل وورث أنقذَتني لما عرفت أين كان ينبغي أن أكون. أعتقد أنني سأقتل ذلك الرجل!»

سأل السير ألفريد بلهفةٍ مفاجئة: «ماذا قلتَ عن اسمه؟»

«طومسون.»

ساد الصمتُ للحظة. وأصبحت تعبيرات السير ألفريد متوترة بشكل غريب. ثم انحنى عبر الطاولة نحو ابن أخيه.

وكرَّر: «هل قلتَ طومسون؟ يا إلهي! كنت أعلم أن هناك شيئًا ما قصدتُ أن أخبرك به. ألا تعرف، يا روني؟ ... لكنك بالطبع لا تعرف ذلك. هل أنت متأكد من أنه طومسون، الجراح الميجور طومسون؟»

«أجل هذا هو.»

قال السير ألفريد بصوتٍ متحشرج: «إنه الرجل الذي يشغل المنصب الجديد. إنه مديرُ إدارة المخابرات العسكرية بكاملها! لقد وضَعوه في مكتب الحرب. لقد منحوه عمليًّا صلاحياتٍ بلا حدود.»

أطلق جرانيت شهقةً وهو يقول: «عجبًا، لقد كنت أعتقد أنه مفتش المستشفيات الميدانية!»

قال عمه بصوتٍ خفيض: «يا لك من أعمى! إنه لا شيء من هذا القبيل. إنه الرجل المقرَّب من كتشنر نفسِه» وأضاف، وهو ينظر إلى الرسالة: «لا بد أنه مَن وضع رسائلي تحت الرقابة!»

الفصل الثامن والعشرون

نظر الجراح الميجور طومسون إلى الأعلى بلهفة عندما دخل أمبروز غرفته في صباح اليوم التالي. حيث بدا الحزن على الشاب كما ظهرَت خطوط سوداء تحت عينيه. وقد أجاب على سؤال رئيسه غيرِ المعلن بهزةٍ صغيرة من الرأس.

وقال: «لم يحالفني الحظ، يا سيدي. لقد أمضيت الليلة الماضية كلَّها في العمل عليها أيضًا ... ولم أذهب إلى الفراش على الإطلاق. لقد جرَّبتها باستخدام واحدة وثلاثين شفرة. ثم أخذت أول سطر أو سطرين وحاولت كلَّ تغيير ممكن.»

قال طومسون، وهو ينظر إلى الورقة التي كانت مبسوطةً أمامه في تلك اللحظة: «لم أتمكن أنا نفسي من فك أيِّ شيء منها. ومع ذلك، يا أمبروز، أنا لا أظنها رسالةً عادية.»

وافقه الآخر بلهفة قائلًا: «وأنا كذلك، يا سيدي. سأحاول مرةً أخرى بعد ظُهر هذا اليوم. ربما سيكون هناك المزيد من الرسائل في ذلك الوقت، ويُمكننا معرفة ما إذا كان هناك أي تشابه.»

عبس طومسون.

وقال: «لديَّ شعورٌ ما، يا أمبروز، أننا لن نحصل على الكثير من هذه الرسائل.»

«لماذا يا سيدي؟»

قال طومسون: «لقد أُبلِغت عبر الهاتف، قبل مجيئك مباشرة، أن شخصًا مميزًا للغاية في طريقه لمقابلتي. والوزراء لا يأتون إلى هنا إلا من أجل سببٍ محدد، ويتصادف أن هذا الوزير هو صديقٌ للسير ألفريد.»

تنهَّد أمبروز.

وقال بصوتٍ منخفض: «مزيد من التدخل، يا سيدي، لا أفهم كيف يُمكنهم أن يتوقَّعوا منا أن نُدير إدارتنا بينما المدنيُّون يتدخَّلون في أي مكان يُعجبهم. إنهم يُريدون منا إنقاذَ البلد ثم ينسبون الفضلَ لأنفسهم في ذلك.»

ومن ثم طرق الباب. ودخل فتى كشَّافة. كانت عيناه جاحظتَين قليلًا، وطريقته تُشير إلى الرهبة.

«السيد جوردون جونز، يا سيدي!»

دخل السيد جوردون جونز دون انتظار أيِّ إعلان آخر. فنهض طومسون على قدمَيه وتلقَّى مصافحةً لطيفة، وبعد ذلك نظر الوافد الجديد إلى أمبروز. فأشار طومسون لمساعده كي يُغادر الغرفة.

قال الوزير بشكل مؤثِّر، بينما يجلس على كرسيِّه: «ميجور طومسون، لقد جئتُ إلى هنا لأتشاور معك، معتمدًا، إلى حدٍّ ما، على تفهُّمك وحسِّك السليم» أضاف ذلك، وهو يتحدث بطريقةِ رجل واثق من نفوذه ومن نفسه.

فقال طومسون ببطء: «لقد أتيتَ للاحتجاج، على ما أظن، ضدَّ تصرفنا ...»

قاطعه الآخَر: «لم آتِ لأحتجَّ، يا سيدي العزيز. لقد أتيتُ ببساطة كي أوضح لك، كما أوضحتُ للتو لمديرك، أنه بينما نمتلك كلَّ التعاطف والرغبة في منحِكم حريةَ أداء مهامكم من خلال وجهة النظر العسكرية، هناك أمرٌ أو اثنان من الأمور الصغيرة جدًّا التي لا بد أن نُطالب بوجودِ رأي لنا فيها. ومن ثَم فنحن لدينا، كما تعلم، قائمة محصَّنة من الخضوع للرقابة. وكل من وضع اسمه فيها فهو فوق مستوى الشبهات. وقد علمت أن الرسالة الموجهة إلى السير ألفريد أنسيلمان قد فُتحت أمس. وحينما ذهبتُ لمقابلة مديرك هذا الصباح بخصوص هذا الأمر. أحالني إليك.»

فقال طومسون: «لقد فُتحت الرسالة بأوامرَ مني.»

واستطرد السيد جوردون جونز: «لقد تصادف أن كنتُ أتناول العشاء في منزل السير ألفريد عندما وصله الخطاب. يجب أن أقول إن السير ألفريد قد تعامل مع الأمر بشكل جيدٍ للغاية. في الوقت نفسِه، قررتُ أن أتولَّى مهمة التأكد من ألَّا يحدث ذلك مرةً أخرى.»

لم يُبدِ طومسون أي علامة. ومع ذلك، ارتفع حاجباه لأعلى قليلًا.

وتابع زائره: «ستعرف البلادُ يومًا ما مقدارَ ما هي مَدينةٌ به للسير ألفريد أنسيلمان. في الوقت الحاليِّ لا يمكنني إلا أن أعبر، وهذا قليل جدًّا، عن شعوري بالامتنان الشخصي تجاهه. فقد قدم مساعدةً كبرى للحكومة في لندن وفي كل مكان آخر. وإسهاماته في

صناديقنا كانت رائعة؛ ونصائحه وتعاطفه لا يُقدَّران بثمن. إنه رجل ملهمٌ بأعلى المشاعر الوطنية، وهو من أول وأهم المواطنين البريطانيين.»

استمع طومسون في صمتٍ ودون مقاطعة. واستقبل الخطبة المنمقة لزائره دون تعليق.

ختم السيد جوردون جونز كلامه، مع بعض الحِدة في أسلوبه قائلًا: «آمُل أن أسمع أن الظرف الذي أشرتُ إليه كان عرَضيًّا ولن يتكرَّر.»

نظر الميجور طومسون بتمعُّن نحو كومةٍ صغيرة من الوثائق بجانبه. ثم نظر ببرودٍ نحو زائره وأعطاه، ربما، واحدةً من أكثر المفاجآت اكتمالًا في حياته.

إذ قال: «أنا آسف، يا سيد جوردون جونز، لكن هذه ليست مسألةً يمكنني مناقشتُها معك.»

ارتسم الذهول على وجه الوزير.

وكرَّر الكلمات بخواءٍ قائلًا: «هل قلت ليست مسألة يمكنك مناقشتها معي؟»

هز الميجور طومسون رأسه.

وقال بهدوء: «لقد سُلِّمَت مسئوليات معينة، ذات صلة بالتصرف الآمن لهذا البلد، إلى السلطات العسكرية، والتي أمثلها أنا في هذه الحالة بالذات. نحن لسنا في وضع يسمحُ لنا بالمجاملات. إن بلدنا يُواجه خطرًا جسيمًا ولا شيء آخر له أدنى أهميةٍ ممكنة. وسوف نضطلعُ بالمسئولية التي قبلناها مع مراعاة شيءٍ واحد فقط، وهي فكرتنا عما يُعزى إلى السلامة العامة.»

صاح السيد جوردون جونز قائلًا: «هل تقصد، بكلماتٍ واضحة، أنك لن تُقيم وزنًا، لأي طلبات مني أو لنقُل، على سبيل المثال، مِن رئيس الوزراء؟»

أجاب الميجور طومسون ببرود: «لن أقبل أيَّ طلبات أيًّا كانت. وبدون الرغبة في أن يؤخذ كلامي على نحوٍ شخصي بأيِّ شكل من الأشكال، يمكنني القول إن هناك رجالَ دولة في حكومتك، يجب أن تتحمَّل قدرًا معينًا من المسئولية تجاههم، قد لعبوا دورًا فعالًا إلى حدٍّ كبير في جلب هذا الخطر البشع على البلاد. فأنتم كجمعٍ من صناع القوانين، قد تكونون أو لا تكونون أشخاصًا ممتازين؛ وهذا، على ما أعتقد، وَفقًا للآراء السياسية للفرد. ولكن كجمعٍ من الرجال المؤهَّلين للإشراف على اتجاهِ بلد في حالة حرب، يجب أن تسمح لي بقولِ إنني أعتبر أنكم أحسنتم صنعًا بوضع بعضِ الأمور بين أيدينا، وأنكم ستُحسنون صنعًا أكثرَ بعدم تدخلكم فيها.»

جلس السيد جوردون جونز ساكنًا تمامًا عدةَ لحظات.

ثم قال في النهاية: «ميجور طومسون، أنا لم أسمع عن وجهة نظرك من قبل، ولستُ مستعدًّا لحظةً لقول إنني أتعاطف مع وجهة نظرك. لكن من المريح على الأقلِّ سماعُ أي شخص يتحدث عن رأيه بهذه الصراحة. ويجب عليَّ الآن أن أطرح عليك سؤالًا واحدًا، سواءٌ اخترتَ الإجابة عنه أو لا. هل استطعتَ العثور في الرسالة التي فتحتها، والموجهة إلى السير ألفريد — على أي أمر يُثير الاشتباه؟»

قال الميجور طومسون: «لقد كانت رسالةً غير ضارة على ما يبدو.»

«هل تنوي أن تفتحَ المزيد؟»

هز طومسون رأسَه.

«هذا يخضع لتقديرنا، يا سيدي.»

قاوم السيد جوردون جونز انزعاجَه الواضح.

وقال، في محاولة منه ليُصبح الحوار أكثرَ ودية: «انظر هنا، يمكنك على الأقل التخلِّي عن الموقف الرسمي للحظة معي. قل لي لماذا، من بين جميع الرجالِ في العالم، اخترتَ أن تشتبهَ في السير ألفريد أنسيلمان؟»

أجاب طومسون بصلابة: «أنا آسف، لكن هذه ليست مسألةً يمكنني مناقشتُها بأي طريقة أخرى إلا رسميًّا، ولا أدرك أن لديك أيَّ إذن خاص للحصول على معلومات.»

نهض الوزير واقفًا. إذ كانت تلك الدقائق القليلة بمثابة حقبة في حياته الرسمية.

وقال: «إنك تتبنَّى موقفًا، يا سيدي، مهما كنتَ معجبًا به من وجهة نظر معينة، يبدو لي أنه لا يأخذ في الاعتبار حقائقَ الوضع.»

لم يردَّ طومسون. ونهض واقفًا. وقد أشار تصرفُه بوضوح إلى أنه اعتبر المقابلة في نهايتها. فكتمَ السيد جوردون جونز استياءه.

واختتم حديثه قائلًا: «عندما تريد وظيفةً مدنيَّة، يا ميجور طومسون، تعالَ لزيارتنا. أتمنى لك صباحًا طيبًا!»

الفصل التاسع والعشرون

قال جارفيس بصوت خفيض: «ثمة سيدة تريد مقابلتك، يا سيدي.»

فاستدار جرانيت بسرعة في كرسيِّه. وبشكل غريزي تقريبًا أغلق الجزء العلوي من المكتب الذي كان يجلس أمامه. ثم نهض واقفًا وشبك يده. وتمكَّن بجهد من إخفاء القلق الذي أعقب شعوره الأول بالمفاجأة.

وصاح قائلًا: «آنسة وورث!»

فتقدمَت نحوه بثقة، ويداها ممدودتان، وبدَت نحيفة، وترتدي ملابسَ سوداء رصينة، ووجنتاها شاحبتان أكثر من أي وقتٍ مضى، وعيناها أكثرُ لمعانًا. ثم ألقت الفِراء الذي تُدفئ به يدها على كرسيٍّ وبعد لحظةٍ جلست عليه بنفسها.

سألته بلهفة: «هل كنتَ تتوقع قدومي؟»

كان جرانيت متفاجئًا بعض الشيء.

وقال لها: «كنت أتمنَّى أن تُراسليني. فقد طلبتِ مني، إذا كنتِ تتذكرين، ألا أراسلك.»

وافقَت على ذلك قائلة: «كان ذلك أفضل. إذ حتى بعد مغادرتِك فقد واجهتُ الكثير من المتاعب. حيث وضعني ذلك الرجلُ البغيض، الميجور طومسون، قيد استجواب منتظم مرةً أخرى، واضطُررت إلى إخباره في النهاية ...»

صاح جرانيت بقلق: «بم؟»

قالت: «أننا مخطوبانِ لكي نتزوج. لم تكن هناك حقًّا طريقةٌ أخرى للخروج من المأزق.»

كرَّر جرانيت في خواء: «أننا مخطوبان.»

أومأت برأسها.

وتابعت: «لقد ضغط عليَّ بشدة، وللأسف قدمت بعض الاعترافات ... حسنًا، كانت هناك ضرورة ... وهي، على أقلِّ تقدير، كانت مساوَمة. لم تكن هناك سوى طريقةٍ واحدة للخروج بشكل لائق بالنسبة إليَّ، وقد استخدمتها. هل تُمانع في ذلك؟»

أجاب: «بالطبع لا.»

وتابعت: «وكان يجب مراعاة مشاعرِ والدي. حيث كان غاضبًا في البداية ...»

قاطعها قائلًا: «هل أخبرتِ والدك؟»

أوضحت قائلة، وهي تتحسَّس الفراء: «كان عليَّ أن أفعل ذلك. فقد كان موجودًا طوال الوقت الذي استجوبني فيه ذلك الرجل طومسون.»

«هل يعتقد والدك إذن أننا مخطوبان، أيضًا؟»

أجابت بجفاء: «أجل، وإلا فللأسف كنتَ ستخضع لمزيدٍ من تحقيق الميجور طومسون مرةً أخرى. ومنذ تلك الليلة، أصبح من المستحيل تحملُ العيش مع أبي. ويقول إنه يجب أن يُعيد بناء جزءٍ من عمله مرة أخرى.»

فسألها: «هل تسبَّبت القنابل بالفعل في بعض الأضرار، إذن؟»

أومأت برأسها، وهي تنظر إليه بفضولٍ للحظة.

وقالت: «أجل، لقد تسببَت في ضرر أكثر مما يعرفه أي شخص. لقد أصبح المكانُ مثل القلعة الآن. وهم يقولون إنهم إذا تمكنوا من العثور على الرجل الآخر الذي ساعد في إشعال ذلك الوهج، فسيُعدَم رميًا بالرصاص في غضون خمس دقائق.»

انحنى جرانيت، الذي كان يقف واضعًا مرفقه على رفِّ المدفأة، وأخذ سيجارةً من صندوق.

وقال: «إذن، من أجل صالحه، دعينا نأمُلْ ألا يجدوه.»

قالت بهدوء: «وصالحنا.»

وقف جرانيت ونظر إليها بثبات، بينما يحترق عود الثقاب بين أصابعه. ثم رمى به بعيدًا وأشعل آخَر. كانت الفترة الفاصلة مليئةً بالتوتر غيرِ المعلن، الذي مرَّ فجأة.

ثم سألت: «هل ستظنني شرهةً للغاية، إذا قلتُ إنني أريد بعض الطعام؟ فأنا أتضوَّر جوعًا.»

شعر جرانيت للحظة بالدهشة. ثم تحرك باتجاه الجرس.

وصاح: «كم هو سخيفٌ مني! بالطبع، لقد وصلتِ للتو، أليس كذلك؟»

أجابت: «لقد جئت مباشرةً من المحطة إلى هنا.»

فتوقف وسألها.

«أين تقيمين، إذن؟»

هزت رأسها.

وقالت: «لا أعرف بعد.»

كرَّر قائلًا: «لا تعرفين بعد.»

قابلت نظرتَه دون أن تجفل. بينما احمرَّ خداها قليلًا، رغم ذلك، وارتجفت شفتاها.

ثم أوضحت قائلة: «انظر، لقد أصبحت الأمورُ مستحيلة تمامًا بالنسبة إليَّ في ماركت بيرنهام. لن أقول إنهم لا يصدقونني — ليس والدي، بأيِّ حال من الأحوال — لكن يبدو أنه يُعتقد أن ما حدث هو خطئي بطريقةٍ ما، وأنك لو لم تكن هناك في تلك الليلة لما حدث الأمر. وأنا مراقَبة طوال الوقت، في الواقع لم يتحدث معي أحد بكلمةٍ لطيفة ... منذ أن غادرتَ. أنا فقط لم أستطع التحمُّل أكثر من ذلك. فحزمتُ أمتعتي هذا الصباح ورحلت إلى هنا دون أن أنبس ببنتِ شفةٍ لأحد.»

نظر جرانيت إلى الساعة. كانت الساعة العاشرة والربع.

فقال، وهو يرن الجرس: «حسنًا، أولُ شيء نفعله هو أن نُحضر لكِ شيئًا لتأكليه. هل تمانعين في الحصول على شيءٍ هنا أم أنكِ ترغبين في الذَّهاب إلى مطعم؟»

قالت: «أنا أفضل تناول الطعام هنا. فلستُ لائقة للذهاب إلى أي مكان، كما أني متعَبة.»

ومن ثم رن الجرسَ وأعطى جارفيس بعض الأوامر. بينما وقفت الفتاة أمام المرآة وخلعت قبعتها وعدلَت شعرها بيديها. كانت تتصرفُ وكأنها في منزلها تمامًا.

فسألها: «هل أتيتِ بدون أي أمتعة على الإطلاق؟»

هزت رأسها.

وقالت: «لديَّ حقيبة ملابس وبعض الأشياء بالأسفل في سيارة أجرة.» وأضافت وهي تستدير: «لقد طلبتُ من السائق أن يوقف محركه وينتظرَ بعض الوقت — حتى أقابلك.»

كانت هناك ابتسامةٌ طفيفة على شفتيها، وبريقٌ جذاب في عينيها. فأمسك جرانيت بيدها وربت عليها بلطف. وكان ردُّها هستيريًّا تقريبًا.

وقال: «إنه لطفٌ منكِ أن تثقي بي هكذا. سوف يجلب لكِ جارفيس شيئًا لتأكليه، ثم سأصطحبكِ إلى بيت عمتك. أين تعيش؟ في مكانٍ ما في كنسينجتون، أليس كذلك؟ وغدًا يجب أن نتحدَّث عن الأمور.»

فألقَتْ بنفسها مرةً أخرى على الكرسي المريح ونظرت حولها.

وقالت: «أنا أودُّ التحدث الآن.»

فنظر نحو الباب.

وقال: «كما يحلو لك، لكن جارفيس سيحضر الآن ومعه شطائرك مباشرة.»

تجاهلت احتجاجَه.

وقالت: «لقد اضطُررتُ إلى القول إنني مخطوبةٌ لك، لإنقاذك من شيء ما — لا أعرف ما هو. وكلما فكَّرت في الأمر، بدا أكثرَ فظاعة. لن أسألك حتى عن أي تفسير. فأنا ... أنا لا أجرؤ.»

نظر جرانيت إلى سيجارته للحظة بتمعُّن. ثم ألقى بها في المدفأة.

وقال ببرود: «ربما أنت حكيمة. ومع ذلك، عندما يحين الوقت سيُصبح هناك تفسير.»

فتابعت قائلة: «إنه الحاضر الذي أصبح يُمثل مشكلة. فقد اضطُررت إلى مغادرة المنزل، ولا أعتقد أنني أستطيع العودة مرةً أخرى. ووالدي ببساطة غاضبٌ مني، ويبدو أن كل شخص حول المكان تُسيطر عليه فكرة أنني، بطريقةٍ ما، السببُ فيما حدث في تلك الليلة.»

احتجَّ قائلًا: «يبدو لي هذا ظلمًا بعض الشيء.»

ردَّت على نحوٍ فظ: «هذا ليس ظلمًا على الإطلاق. لقد قلتُ لهم كلَّ الأكاذيب، وعليَّ أن أدفع ثمنها. لقد أتيت إليك ... حسنًا، لم يكن هناك أيُّ شيء آخر لأفعله، أليس كذلك؟ أتمنى ألا تعتقدَ أنني وقحةٌ بشكل رهيب. أنا على استعدادٍ تام للاعتراف بأنني معجبةٌ بك، وأنني قد أعجبتُ بك منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها في غداء الليدي أنسيلمان. وفي الوقت نفسِه، إذا لم تُغير تلك الليلةُ الفظيعة كلَّ شيء، كنتُ سأتصرف تمامًا مثل أيِّ امرأة شابة أخرى تَرَبَّت على مفاهيمَ غبية ولائقة؛ فأنتظر وأتمنَّى، وأجعل من نفسي حمقاءَ كلما رأيتُك في الجوار، وفي النهاية، على ما أظن، أُصاب بخيبةِ أمل. كما ترى، لقد غيَّر القدرُ ذلك. كان عليَّ أن أدَّعيَ خطوبتنا لإنقاذك ... وها أنا ذا» أضافت مع ضحكة عصبية صغيرة، وهي تدير رأسها بينما يُفتح الباب.

دخل جارفيس مع الشطائر ووضعها على طاولة صغيرة بجانبها. وسكب جرانيت مشروبًا من أجلها، وخلط لنفسه مشروبًا مع الصودا، وأخذ شطيرةً من الطبق أيضًا.

ثم قال، بمجرد خروج جارفيس: «أخبريني الآن، ما الذي يدور في ذهنكِ بشأن وجودي هناك في ماركت بيرنهام في تلك الليلة؟»

وضعت شطيرتها جانبًا. وارتجَف صوتها لأول مرة. فأدرك جرانيت أنه تحت كلِّ هذا السلوك الهادئ كان هناك بركان يفور.

وقالت بحزم: «لقد أخبرتُك أنني لا أريد أن أفكر في تلك الليلة. فأنا ببساطة لا أفهم.»

قال في إصرار: «هل لديكِ تصورٌ للأمر في عقلك؟ أنتِ لا تُصدقين، حقًّا، أن ذلك الرجل كولينز، الذي عثر عليه مضروبًا بالرصاص ...»

نظرَت إلى الباب.

ثم قاطعته: «لقد أصابني الأرقُ في تلك الليلة. وسمعت صوت سيارتك عندما وصلت، ورأيتُكما معًا، أنت والرجل الذي ضُرب بالرصاص. ورأيتُ ... أكثر من ذلك. لم أكن أنوي أن أخبرك بذلك ولكن ربما هذا أفضل. وأنا لا أطلب منك أي تفسير. كما ترى، أنا إنسانة ذاتُ نزعة فردية. وأنا فقط أريد شيئًا واحدًا، أما الباقي فأنا ببساطةٍ لا أهتم به. بالنسبة إليَّ، إلى نفسي، إلى مستقبلي، بالنسبة إلى سعادتي فإن أي شيء آخر ليس له أهمية، وأنا لا أتظاهر أبدًا بأنني أيُّ شيء آخر سوى إنسانة أنانية للغاية. أنت فقط تعرف الآن أنني قد كذبت، على نحوٍ بشع.»

فقال: «لقد فهمت. تناوَلي شطائركِ وسوف آخذُكِ إلى منزل عمتك. وغدًا سأرسل رسالةً إلى والدك.»

تنهدَت تنهيدة طفيفة.

وقالت: «سأفعل أيَّ شيء تقوله، فقط ... من فضلك انظر إليَّ.»

انحنى قليلًا. فأمسكَت معصمَيْه، وفجأة أصبح صوتها أجش.

وسألَتْه: «أنت لم تكن تتظاهرُ بكل تلك المشاعر؟ لا تجعلني أشعر بأنني كنتُ غبية للغاية. هل تهتم بي ولو قليلًا؟ أم أن كلامك كان مجردَ هراء؟»

كانت ستجذبه إلى أسفلَ أكثر، لكنه ابتعد.

وقال: «اسمعي، عندما أخبركِ أنني سأرسل رسالةً إلى والدكِ غدًا، فأنتِ تعرفين ماذا يعني ذلك. أما بالنسبة إلى البقية، فيجب أن أفكر. ربما هذا هو المخرج الوحيد. بالطبع أنا معجب بك، ولكن الحقيقة أفضل، أليس كذلك؟ لم أكن أفكر في كل هذا. في الواقع، أنا أحبُّ امرأة أخرى.»

التقطت أنفاسها للحظة، وأغلقَت نصف عينيها كما لو أنها تتغاضى عن شيءٍ بغيض.

وغمغمت قائلةً: «أنا لا يُهمني ذلك. أترى إلى أيِّ مستوًى وضيع وصلت — سأتحمل حتى ذلك. تعالَ» وأضافت، بينما تنهضُ واقفة: «إن عمتي تذهب إلى الفراش قبل الحادية عشرة. يمكنك أن توصلني إلى هناك، إذا أردت. هل ستُقبِّلني؟»

انحنى نحوها بطريقةٍ تخلو من العاطفة ولمست شفتاه جبهتها. فأمسكت بوجهه فجأةً بين يديها وقبَّلتْه على شفتيه. ثم استدارت نحو الباب.

وصاحت قائلة: «بالطبع، أنا أشعر بالخجل الشديد، لكن بعد ذلك ... حسنًا، أنا على طبيعتي. تعالَ معي، من فضلك.»

فتبعها إلى أسفل وركبا سيارة الأجرة، وانطلقا نحو كنسينجتون.

وسألتْه فجأةً: «منذ متى وأنت تعرف الفتاة الأخرى؟»

فأجاب: «قبل أن أتعرف عليك بقليل.»

فخلعت قفازها. وشعر أن يدَها تتسلَّل لتلمس يده.

ورَجَته قائلة: «ستحاول قليلًا أن تُعجب بي، أليس كذلك؟ فأنا لم يكن هناك أيُّ شخص يهتم بي لسنوات عديدة — ليس طوال حياتي. عندما بدأت أختلط اجتماعيًّا بالناس ... منذ أن بدأت ... كنت أتصرفُ تمامًا مثل الفتيات الأخريات المهذبات، واللواتي تربَّين بشكل جيد. وقد جلست فقط وانتظرت. كما فضلتُ تجنُّب الرجال بدلًا من التعرف عليهم. وجلست وانتظرت. لم تُعجب الفتيات بي كثيرًا. وقلن إنني غريبة الأطوار. وأنا الآن في الثامنة والعشرين، كما تعلم. ولم أستمتع بالسنوات الستِّ الماضية. حيث انشغل والدي في عمله. وهو يظن أنه قد أدَّى ما عليه إذا ما أرسلني إلى لندن أحيانًا لزيارة عمتي. وهي تُشبهه كثيرًا، لكنها منشغلة بالإرساليات بدلًا من العلم. يبدو أن أيًّا منهما ليس لديه الوقت ليصبح إنسانًا.»

قال جرانيت بلطف: «لا بد أنكِ تعيشين في مأساة.»

أمسكت يده بيدها، واقتربَت منه قليلًا.

وغمغمت: «واستمرَّ الحال هكذا عامًا بعد عام. لو كنت جميلة، لكنت هربتُ وأصبحت ممثلة. لو كنت ذكية، لكنت غادرت المنزل وفعلتُ شيئًا. لكنني مثل الملايين من الأخريات — أنا لستُ مختلفةً عنهن. كان عليَّ أن أجلس وأنتظر. وعندما قابلتك، بدأت فجأةً في إدراك كيف هو الإحساس عندما أعجب بشخصٍ ما. وكنت أعلم أنه ليس هناك أي فائدة. ثم حدثَت هذه المعجزة. فلم أستطع كبح جماح نفسي.» وواصلَت بإصرار: «لم أفكر بهذه الفكرة في البداية. لكنها جاءت لي مثل وميضٍ رائع أن الطريقة الوحيدة لإنقاذك ...»

سألها: «لإنقاذي من ماذا؟»

أجابت بسرعة: «مِن إعدامك رميًا بالرصاص كجاسوس. هذه هي الحقيقة! فأنا لست بلهاء، كما تعلم. قد تظن أنني بلهاءُ فيما يتعلق بك، ولكني لستُ كذلك بشكل عام. إلى

اللقاء! هذا هو منزل عمتي. لا داعي لأن تدخل معي. اتصل بي على الهاتف صباحَ الغد. سألتقي بك في أي مكان. إلى اللقاء، من فضلك! أريد أن أهرب.»

راقبَها وهي تذهب، بينما هو مذهولٌ قليلًا. فتحَت لها البابَ خادمةٌ أنيقة، وبعد بضع كلمات من الشرح، أشرفت على إدخال أمتعتها إلى القاعة. ثم عاد سائق سيارة الأجرة.

فغمغمَ جرانيت: «عُد بنا إلى ساكفيل ستريت.»

الفصل الثلاثون

دفع جرانيت، عند عودته إلى ساكفيل ستريت، الأجرةَ لسائق سيارة الأجرة، ثم صعد السلم ودخل شقته وبدا كرجلٍ مر بحلم. لكن نظرة واحدة حوله، مع ذلك، جعلته يعود إلى الواقع ليُدرك آثار زائرته غيرِ المرحَّب بها. حيث كان طبق الشطائر الصغير، التي أُكِلَ نصفها، وزجاجة المشروب الفارغة تقريبًا، لا تزال موجودة. كما ألقت إحدى قفازاتها في زاوية الكرسيِّ المريح. فالتقطها، وراح يعبث بها بأصابعه للحظة، ثم كوَّرها في قبضته وألقى بها في المدفأة. وجاء جارفيس، الذي سمعه يدخل، من إحدى الغرف الخلفية.

فأمره سيده قائلًا: «خُذ هذه الأشياءَ بعيدًا، يا جارفيس، واترك المشروبَ والصودا والتبغ على الطاولة. فقد أسهر.»

أطاع جارفيس الأمرَ في صمت. وبمجرد أن أصبح بمفرده، ألقى جرانيت نفسَه على الكرسيِّ المريح. كان يملؤه إحساسٌ مريرٌ بأنه قد وقع في شرَك. لقد تهوَّر قليلًا في ماركت بيرنهام، ربما، ولكن لو أن أيَّ رجلٍ آخرَ باستثناء طومسون قد أُرسلَ إلى هناك، لتقبَّل تفسيراته دون كلمةٍ واحدة، وكان من الممكن تجنُّبُ كلِّ هذه التعقيدات البائسة. ثم فكَّر في مجيء إيزابيل، وكل ما قالته. لم تترك له ثغرة. فهي تبدو فتاةً تعرف جيدًا ما تريد. إنَّ كلمةً واحدةً منها إلى طومسون قد تؤدِّي إلى انهيار كلِّ المظهر الخادع لحياته المبنيَّة ببراعة. جلس طاويًا ذراعَيْه في موقفٍ قاتمٍ من الاضطراب، يفكِّر في أفكارٍ مريرة. طافَت بعقله مثلَ الظلال السوداء. لقد كان صادقًا في المقام الأول. مع أسلافه من كلا البلدَين، اختار عن عمدٍ البلدَ الذي شعر معه بقدرٍ أكبرَ من الارتباط. لقد تذكر رحلاته الطويلة في ألمانيا، وتذكر عند عودته رفضَه المتزايدَ للتراخي الإنجليزي، وانحلال إنجلترا المادي والمعنوي. لم تورثه عيوبها حزن أحد أبنائها الحقيقيين، ولكن ازدراء رجل يرتبط بها نصفَ ارتباط

بعلاقاتٍ طبيعية. كانت الأرضُ مهيَّأة للسم. لقد بدأ بأمانة كافية. كانت فلسفته تُرضي نفسه. لم يشعر بأي تدهورٍ أخلاقيٍّ في ارتداء زي بلدٍ ما لصالح دولةٍ أخرى. كل هذا الاشمئزاز الذاتي الذي أصبحَ يشعر به حدث منذ ظهور جيرالدين كونيرز في حياته. وهو الآن يشعر بالضجر من كلِّ شيء، وجهًا لوجه، أيضًا، مع مشكلةٍ بغيضةٍ ومُلحَّة.

انتفض فجأةً في كرسيِّه. حيث قطع حبلَ أفكارِه أمرٌ عادي للغاية، لكنه ذو تأثيرٍ يبعث على الانتفاض. كان الهاتف على طاولته يرن بإصرار. فنهض واقفًا ونظر إلى الساعة وهو يعبر الغرفة. كانت الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق. وعندما رفع السماعة استقبله صوتٌ مألوف.

«هل هذا روني؟ أجل، هذه الليدي أنسيلمان. لقد طلب مني عمُّك الاتصالَ بك لمعرفة ما إذا كنت بالمنزل. إنه يريدك أن تذهب إليه.»

«ماذا، الليلة؟»

قالت عمته: «عليك أن تأتيَ، يا روني. لا أظن أنه شيءٌ مهم، ولكن يبدو أن عمَّك يريد ذلك. كلا، أنا لن أقابلك. أنا سأخلد للنوم. لقد كنتُ ألعب البريدج. أنا متأكدةٌ من أن الدوقة تغشُّ — لم أفُزْ قطُّ في منزلها في حياتي. سأخبر عمك أنك ستأتي إذن يا روني ... تُصبح على خير!»

وضع جرانيت السماعة. وبطريقةٍ أو بأخرى، كانت فكرة مغادرة المنزل، حتى في تلك الساعة من الليل، مصدرَ ارتياح له. فنادى على جارفيس وأعطاه بعضَ الأوامر. وبعد ذلك، غادر وسار في الشوارع — وقد بدَت له مضاءةً ومزدحمة بشكل غريب — متجهًا إلى زاوية بارك لين، وإلى القصر الكبير المواجه للحديقة، الذي هو ملكٌ لعائلة أنسيلمان على مدى جيلَين. كان هناك القليلُ من الأضواء في النوافذ. سُمِح له بالدخول على الفور وقابله خادمُ عمِّه الخاص.

قال الأخير: «السير ألفريد في المكتب، من هنا إذا تفضَّلت.»

عبَر جرانيت القاعةَ الدائرية التي علقت على حوائطها مفارش رائعة، ومر عبر المكتبة المؤثَّثة بفخامة إلى مكتب رجل الأعمال، حيث يقضي السير ألفريد معظمَ وقته. وقد وُضِعت على مكتبه عدة هواتف، وآلة شرائط، وآلة خاصة متصلة بإدارة البرقيات. كان يوجد مكتبٌ لسكرتيره، وهو شاغرٌ الآن، وخلفه، في ظلالِ الغرفة، خزائنُ كتب ممتدة تحتوي على مجموعةٍ من الإصدارات الفاخرة، والطبعات الأولى، ومجموعة كبيرة من كتب الأدب الألماني والروسي، وهي فريدةٌ من نوعها. كان السير ألفريد جالسًا على مكتبه، يكتب رسالة. واستقبل ابنَ أخيه بإيماءته المبهجة المعتادة.

قال لخادمه: «انتظِر قبل أن تذهب، يا هاريسون. هل ستتناول أي شيء، يا رونالد؟ يوجد سيجار وسجائرُ هنا ولكن لا يوجد مشروبات. هاريسون، يمكنك وضعُ المشروب والصودا على الجانب، على أي حال، ثم يُمكنك انتظاري في غرفتي. لن أطلب أيَّ خدمة أخرى هذه الليلة. وعلى شخصٍ ما أن يبقى كي يصحَب الكابتن جرانيت عند خروجه. هل تفهم؟»

أجاب الرجل: «تمامًا، يا سيدي.»

قال السير ألفريد: «إذا كنت لا تمانع، يا روني، فسوف أنهي هذه الرسالةَ بينما يحضر المشروب والصودا.»

تجوَّل الكابتن جرانيت في الغرفة. لم يكن هناك صوتٌ للحظاتٍ سوى خدشِ قلم الريشة الخاص بالسير ألفريد على الورقة. ثم عاد هاريسون مع المشروب والصودا. وسلمه السير ألفريد مذكرة.

وقال: «يجب إرسالُها الليلة، يا هاريسون؛ بلا رد.»

فخرج الرجل، وأغلق البابَ خلفه. بينما أخذ السير ألفريد، يمشي ببطءٍ حول الغرفة، ويداه في جيبَيْه. وعندما عاد للجلوس، كان قد أطفأ جميعَ الأنوار ما عدا المصباح الخافت فوق مكتبه، وأشار إلى ابن أخيه كي يسحبَ كرسيَّه المريح إلى جانبه.

ثم قال: «حسنًا، يا روني، أظن أنك تتساءل لماذا أرسلت في طلبك في هذه الساعة من الليل؟»

قال جرانيت بصراحة: «أجل. هل هناك أي أخبار؟ ... أي شيء وراء الأخبار، ربما بمعنًى آخر؟»

أجاب السير ألفريد: «ما ورد من أخبار، ليس له أهمية. سوف نتحدَّث أنت وأنا عن الطبيعة البشرية النقية، في الساعة القادمة. إن مصير الإمبراطوريات هو أمرٌ يهتمُّ به المؤرخون. أما مصيرك ومصيري فهو الأمر الذي يهم الآن أكثر من غيره.»

فسأل جرانيت بسرعة: «هل ظهرت مشكلة؟ ... اشتباه؟»

كرَّر السير ألفريد بحزم: «لا توجد أيُّ مشكلات على الإطلاق. لم يكن موقفي أكثرَ أمانًا مما هو عليه الآن. أنا الشخص المؤتمن المقرَّب من مجلس الوزراء. لقد أديت، ليس فقط ظاهريًّا ولكن في الواقع، أعمالًا مهمة للغاية بالنسبة إليهم. من الناحية المالية، أيضًا، كان نفوذي ومواردي بمثابة مساعدةٍ كبيرة لهذا البلد.»

أومأ جرانيت برأسه وانتظر. كان يعرف ما يكفي عن عمه ليُدرك أنه سيتطرَّق إلى هدفه من هذا الحوار بطريقته الخاصة.

تابع السير ألفريد: «عندما يسير كلُّ شيء على ما يُرام، عندما يبدو كل شيء هادئًا وآمنًا تمامًا، في بعض الأحيان يُصبح هذا هو الوقت المناسب للتوقف والتفكير. وقد حان ذلك الوقت المناسب في هذه اللحظة. لقد كنتَ محظوظًا، خلال أداء مهامِّك، يا روني. حيث تمكَّنتَ ثلاث مرات، أثناء القتال من أجل إنجلترا، من اختراق الخطوط الألمانية وتلقَّيتَ منهم رسائلَ ذات أهميةٍ قصوى. ومنذ عودتك إلى الوطن، كنت تؤدِّي مهام بطرق مختلفة. إن مهمتك الأخيرة في نورفولك لن تنسى. أما بالنسبة إليَّ، فإن الفضل فيما تعرفه ألمانيا عن مركز إنجلترا المالي ونقاط القوة ونقاط الضعف يعود إليَّ. إن امتلاك ألمانيا في الوقت الحاليِّ لأربعين مليونًا من الأموال المملوكة لمدينة لندن، هو أمرٌ يعود الفضل فيه إليَّ أيضًا. إن نفوذي وتأثيري يمكن إدراكُه بعشرات الأمثلة الأخرى. وكما أخبرتك من قبل، لقد نجح كِلانا، في أداء مهامه، لكننا قد وصلنا إلى الحدِّ الأقصى لفعاليتنا.»

فسأله جرانيت: «ماذا يعني ذلك؟»

أوضح السير ألفريد قائلًا: «هذا يعني ما يلي. عندما بدأت هذه الحرب، توقعتُ أنا، من خلال كلِّ الحقائق والملابسات المتاحة لدي، ومع ما لديَّ من معلومات كثيرة، ربما أكثر من أي رجل آخر في العالم، أن تنتهيَ في غضون ثلاثة أشهر. لكنني كنتُ مخطئًا. إن ألمانيا اليومَ في حالة رائعة وغير مهزومة، لكن ألمانيا قد فقدَت فرصتها. ربما تُصبح هذه حربَ استنزاف، أو حتى الآن قد يأتي ما هو غير متوقَّع، ولكن بالنسبة إلى جميع الآثار والأغراض المتوقَّعة من هذه الحرب فإن ألمانيا مهزومة.»

صاح جرانيت وهو غير مصدِّق: «هل تعني ما تقول؟»

قال له عمه: «بالتأكيد. تذكَّر أنني أعرف أكثر مما تعرف. هناك خطر جديد وشيك يُواجه التحالف المزدوج. وهو ما سوف تعرفه قريبًا جدًّا. قد تستمر الحرب أشهرًا عديدة، لكن فرص الانتصار الألماني العظيم الذي حلمنا به، قد ولَّت. إنهم يعرفون ذلك جيدًا كما نعرفه نحن. لقد رأيت نذير الشؤم منذ شهور. لذا أنهيت اليوم جميعَ ترتيباتي. وأوقفت كل المفاوضات مع برلين. لقد تفهَّموا القرار وأعفَوني. فهم يعلمون أنه من الجيد أن يُصبح لديهم صديقٌ هنا عندما يحينُ وقت صياغة المعاهدة.»

أمسك جرانيت بجانبَيْ كرسيِّه بقبضتَيْه. وبدا له من المستحيل أن يُعلَن بهذه الكلمات القليلة العادية مصير أوروبا كلها.

وسأل بحدة: «هل تقصد أن ألمانيا سوف تُسحق؟»

هز السيد ألفريد رأسه.

وقال: «ما زلت أعتقد أنَّ ذلك مستحيل، لكن السلام نتيجة الإرهاق من الحرب الطويلة سيأتي، بكل تأكيد سيأتي، قبل أن تمرَّ شهورٌ عديدة. وقد حان الوقت لأن نفكر في أنفسنا. فيما يتعلق بي، حسنًا، هناك هذا الخطاب الوحيد الذي فتحته الرقابة — وهو غير هامٍّ في حد ذاته، ولكنه سيُصبح خطيرًا للغاية إذا استطاعوا فكَّ شفرته. أما بالنسبة إليك، حسنًا، أنت في مأمنٍ من أي شيء يحدث في فرنسا، وعلى الرغم من أنه يبدو أنك لم تكن محظوظًا إلى حدٍّ ما في نورفولك، يبدو أنك آمنٌ بالنسبة إلى ما حدث هناك. يجب أن تتخذَ قرارك الآن وتحذوَ حَذْوي. اقبَلْ مهمة العمل داخل الوطن، واستمِرَّ في عملك داخل الجيش بهدوء، وهلِّل فرحًا مع الآخرين عندما يأتي يوم السلام. يجب أن تُصبح الأشهر القليلة الماضية هي سِرَّنا الكبير. ربما كنا نتوق من كل قلوبنا إلى أن نطلق على أنفسنا أبناء أمَّة أقوى، لكنَّ القدر ضدنا. يجب أن نظل إنجليزًا.»

قال جرانيت: «لقد صدمتني. دعني أستوعب الأمر للحظة.»

ومن ثم جلس ساكنًا. بينما تدافع في عقله زخمٌ من الأفكار. أولًا وقبل كل شيء فكَّر في جيرالدين. إذا كان بإمكانه التستُّر على آثاره! إذا كان بالفعل قد برئ الآن من تعهداته! ثم تذكر ضيفته هذا المساء فغرق قلبُه بين ضلوعه.

واعترف قائلًا: «انظر هنا، بطريقةٍ ما هذا مصدر ارتياح كبير. فأنا قد اعتقدتُ مثلك أن الأمر سيستمرُّ مدةَ ثلاثة أشهر، واعتقدت أنه يمكنني تحملها. في حين أن الإثارة في الأمر هي أنه كان سهلًا بما فيه الكفاية، لكن اسمع، يا عمي. عملية نورفولك تلك ... أنا لم أخرج منها سالمًا بالفعل.»

سأله السير ألفريد بحدَّة وقلق: «ماذا تقصد؟ ذلك الرجل طومسون؟»

أجاب جرانيت: «طومسون، بالطبع، لكن المشكلة الحقيقية أتت إليَّ بطريقة مختلفة. لقد أخبرتُك أن الفتاة أخرجَتني من تلك الورطة. وهي لم تستطع تحمُّل الاستجواب الثاني. وقد حوصرت بالأسئلة، وفي النهاية، كي تُبرئ نفسها، قالت إننا مخطوبَانِ وسنتزوج. وقد أتت إلى لندن، أتت إليَّ الليلة. وهي تتوقَّع مني أن أتزوجها.»

سأل السير ألفريد: «ما مدى معرفتها بالأمر؟»

قال جرانيت بصوتٍ خفيض: «كل شيء. هي التي أخبرتني بالممر المائيِّ عبر المستنقعات. ورأتني هناك مع كولينز، قبل إشعال الوهج مباشرة. وهي تعلم أنني كذبتُ عليهم عندما وجدوني.»

تنهد السيد ألفريد.

وقال: «إنه ثمنٌ باهظ، يا روني، لكن عليك أن تدفعه. كلما أسرعت في الزواج من الفتاة وإغلاقِ فمها، كان ذلك أفضل.»

غمغمَ جرانيت: «لولا ذلك اللعينُ طومسون، لَما كان هناك اشتباهٌ مطلقًا.»

قال السير ألفريد: «لولا الرجلُ الجريء للغاية نفسُه، لَمَا جرى العبث بمُراسلاتي أبدًا.»

مال جرانيت إلى الأمام قليلًا.

وقال: «إن طومسون هو الخطر الوحيد المتبقي لدينا. لقد شعرت بهذا الشعور منذ أن تعرَّف على ملامحي. لقد التقينا، كما تعلم، في بلجيكا. كان ذلك بالضبط عندما خرجت من الخطوط الألمانية. بطريقةٍ أو بأخرى لا بد أنه كان يتعقَّبني منذ ذلك الحين. أنا لم أُلاحظ ذلك. اعتقدتُ أن السبب ببساطة ... أنه كان على علاقة خطوبةٍ مع جيرالدين كونيرز.»

سأله السير ألفريد: «أنتما متنافسان في الحب أيضًا، أليس كذلك؟»

قال جرانيت: «إن جيرالدين كونيرز هي الفتاة التي أريد الزواجَ منها.»

غمغمَ السير ألفريد في نفسه: «طومسون ... الجراح الميجور هيو طومسون. يبدو أنه الرجل الوحيد، يا روني، الذي نُواجِه منه أقلَّ خطرٍ يمكن أن نخافه. أنا شخصيًّا، أعتقد أنني آمن. لا أعتقد أن ذلك الخطاب الوحيد ستُفكُّ شفرته على الإطلاق، وإذا حدث ذلك، فإن ثلاثةَ أرباع مجلسِ الوزراء هم أصدقائي. كما يُمكنني أن أدمِّر البورصةَ غدًا، وأن أجعل رصيدَ لندن، لبعض الوقت، بأيِّ سعر، أقلَّ من رصيد بلجراد.»

قال جرانيت بجدِّية: «رغم ذلك، يبدو لي أننا سنُصبح أكثرَ راحةً إذا لم يكن هناك الجراح الميجور طومسون.»

تابع السير ألفريد قائلًا: «آخر الرسائل التي كان عليَّ التعاملُ معها، أشارت إليه. أستطيع أن أقول لك إنهم منزعجون من بعضِ أعماله في برلين. من أيِّ نوعٍ من الرجال هو، يا روني؟ هل يمكن شراؤه؟ إن مائة ألف جنيه ستُمثِّل ثروةً لرجلٍ مثل هذا.»

قال جرانيت بضراوة: «هناك طريقةٌ واحدة فقط للتعامل معه. لقد جرَّبتها مرةً واحدة. وأتوقَّع أنني سأضطرُّ إلى المحاولة مرةً أخرى.»

انحنى السير ألفريد على المكتب.

ونصح قائلًا: «لا تكن متسرِّعًا، يا روني. وكذلك، تذكَّر هذا. إن هذا الرجل هو خطرٌ حقيقي عليك وعليَّ. إنه الرجل الوحيد الذي له عَلاقةٌ بإدارة المخابرات هنا، والذي يستحقُّ

التعامل معه بحرص. والآن اذهب إلى المنزل، يا روني. لقد أتيت إلى هنا ... حسنًا، لا تهتمَّ بما كنت عليه عندما أتيت إلى هنا. فأنت عائدٌ كرجلٍ إنجليزي.

إذا لم يُرسلوك إلى الجبهة مرةً أخرى، اطلب منهم القيامَ ببعض الأعمال هنا، والتزم بها. لن أرسلَ لك أيَّ تقارير ولا أي زوار. لقد أوقفتُ النظام بأكمله. أنت وأنا انفصلنا عنه. نحن أحرار. وتذكَّر، ما زلت أعتقد أنه في النهاية سيُهيمن التقدُّم الألماني والثقافة الألمانية على العالم، لكن قد لا يتحقَّق ذلك في وقتنا هذا. لقد تصادف فقط أننا ضرَبنا في وقتٍ مبكرٍ جدًّا. دعنا نُحقِّقْ أفضلَ استغلالٍ للأمور، يا روني. لديك سنواتٌ عديدة في عمرك. وأنا لديَّ السلطة. دعنا نُصبح شاكرين لأننا كنا حُكماء بما يكفي للتوقُّف في الوقت المناسب.»

نهض جرانيت واقفًا. بينما يُراقبه عمُّه بفضول.

وتابع بتساهُل: «أنت شابٌّ بالطبع يا روني، لم تَقُم بعدُ بمواءمة حِملك على كتفَيك بشكلٍ صحيح. إنجلترا أو ألمانيا، لديك بعضٌ من كلٍّ منهما بداخلك. وفي النهاية، ليست مسألةً حيويةً تحت أيِّ رايةٍ ستُسافر. الأمر ليس كذلك تمامًا معي. لقد عشت هنا طوال حياتي ولن أهتمَّ بالعيش في أي مكانٍ آخر، ولكن هذا لأنني أحمل معي بلدي بداخلي. إنه هواءٌ إنجليزي ذلك الذي أتنفَّسه لكنه قلبٌ ألماني ذلك الذي ما زلت أحمله بين ضلوعي. ليلة سعيدة، يا روني! تذكَّر ما قلته عن طومسون.»

ومن ثَم تصافح الرجلان واتجه جرانيت نحو الباب.

وكرَّر في نفسه: «عن طومسون»، بينما يوصله الخادم إلى الباب.

الفصل الحادي والثلاثون

أعلن أمبروز عن قدوم زائر، في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي، مع إبداء بعض الاهتمام.

«يودُّ الكابتن جرانيت مقابلتك يا سيدي. ونحن لدينا الكثير من الملاحظات عنه. هل تودُّ أن أحضر لك الملفَّ الخاص به؟»

هز طومسون رأسه.

وأجاب بجفاء: «شكرًا لك، إنه لديَّ في مكتبي، ولكني أعتقد أنني أستطيع التذكر. هل هو في الخارج الآن؟»

«أجل، يا سيدي! وقال إنه لن يأخذَ من وقتك سِوى بضعِ دقائق، إذا سمحت له بمقابلة قصيرة.»

«هل حالفَك الحظ في الليلة الماضية؟»

تنهَّد أمبروز.

وقال: «لقد ظللتُ مستيقظًا حتى الساعة الثالثة صباحًا مرة أخرى. وظننت خلال إحدى المحاولات أنني على المسار الصحيح. وقد توصَّلت الآن إلى استنتاجٍ مفادُه أنها إحدى تلك الشفرات التي تعتمدُ على تغيير الكميات. وسأبدأُ الليلة من جديدٍ بفكرةٍ مختلفة. هل أُدخِل الكابتن جرانيت، يا سيدي؟»

فوافق طومسون، وبعد بضع دقائق دخل جرانيت إلى الغرفة. ولم يُبادر بأيِّ محاولةٍ للمصافحة أو الجلوس. ونظر إليه طومسون ببرود.

وسأل باقتضابٍ: «حسنًا، ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟»

أجاب جرانيت: «لا أظن أنك تستطيع فِعْل أي شيء، لكنني سأقضي اليومَ وغدًا أيضًا، إذا لزم الأمر، في هذا المكان، أُزعج كلَّ شخصٍ سمعت عنه. وأنت لديك بعض النفوذ، حسبما أعلم. لذا امنَحْني وظيفةً خارج هذا البلد.»

رفع طومسون حاجبَيْه قليلًا.

«هل تريد السفرَ إلى الخارج مرةً أخرى؟»

«إلى أي مكان ... وبأي طريقة! إذا لم يسمحوا لي بالعودة إلى فرنسا، رغم أن الله وحده هو مَن يعلم لماذا لا يريدون ذلك، فهل يمكن إرسالي إلى الدردنيل، أو حتى شرق إفريقيا؟ سأتقبَّل مهامَّ في قوات تيريتوريالز، إذا كنت ترغب في ذلك. سأفعل أيَّ شيءٍ بمجرد أن أُرسَل إلى إحدى هذه البلدات الجهنمية لتدريب الشباب. إذا كنت أنا غيرَ مهتم، فأنا أعلم أنني سأحصل على وظيفةٍ هنا داخل البلاد مباشرة، ولكني لا أريد ذلك.»

تفحَّص طومسون زائرَه، بعناية، للحظة.

ثم قال: «إذن تريد القتالَ مرة أخرى، أليس كذلك؟»

أجاب جرانيت بحزم: «بلى.»

سحب الميجور طومسون سجِلًّا مغلقًا صغيرًا تجاهه، وفكَّه بمِفتاح من سلسلته ووضع يده على صفحة من ملف بداخله. كان من الملاحَظ أن يده اليُمنى قد فتحت الدرج الأيمن من مكتبه بمقدار بضع بوصات.

وقال: «لقد أتيتَ إليَّ، يا كابتن جرانيت، لتطلب مساعدتي في الحصول على وظيفةٍ لك. حسنًا، إذا كان بإمكاني منحك وظيفة في مكانٍ أكون متأكدًا تمامًا من أنه سيُطلق فيه النار عليك وتموت خلال مناوشتك الأولى، فسأقدِّمها لك، بكل سرور. ومع ذلك، في ظل الظروف الحالية، لديَّ انطباع بأنه كلما ابتعدت عن أي قوة قتالية بريطانية، كان ذلك أفضلَ لسلامة وصالح تلك القوة.»

أصبح وجه جرانيت جامدًا فجأة. وازداد شحوبًا بينما لمعت عيناه.

وسأله في حدة: «ماذا تقصد؟»

رفع طومسون يده ونظر إلى الصفحة المفتوحة.

وقال: «لديَّ هنا في هذا الملف بعضُ الملاحظات عنك. لن أقرأها كلَّها ولكن سأقدم لك بعض المقتطفات. مذكورٌ هنا اسمُك الكامل ونسَبُك، ومنه يتَّضح أنك تنحدر من أصول أجنبية. كما يوجد سردٌ حرفيٌّ لتقرير قدَّمه لي العميد قائد كتيبتك، ويبدو فيه أنه أثناء القتال تحت قيادته، وقعتَ في الأسْرِ على ما يبدو ثلاثَ مرات، وهرَبتَ على ما يبدو ثلاث مرات؛ وقد أدَّت المعلومات التي جلبتَها إلى وقوع كارثتَين على الأقل؛ وقد أدَّت المعلومات التي بدَت وكأنها بالضبط في الوقت الذي كنت غائبًا فيه قد وصلَت إلى يد العدو بأعجوبة، إلى مشاكل أكبر بالنسبة إلينا.»

سأل جرانيت بشراسة: «هل تُلمح، إذن، إلى أنني خائن؟»

أجاب طومسون بهدوء: «أنا لا ألمح إلى شيء. بقدر ما نحن معنيَّان بالأمر أنا وأنت، يمكننا أيضًا، حسبما أفترض، أن يفهم أحدُنا الآخر. أنت، بلا شك، تدرك أن منصبي كمفتش للمستشفيات هو سِتار. فأنا، في واقع الأمر، مدير إدارة المخابرات، برتبةٍ اخترتُ ألا أستخدمها في الوقت الحالي. لقد سافرت بنفسي لمقابلة العميد قائد كتيبتك وعدت بهذا التقرير إلى الوطن، وإذا كان من دواعي رضاك أن تعرف ذلك، فقد عدت أيضًا مع طلبٍ عاجل بعدم السماح لك بإعادة الانضمام إلى أي جزءٍ من القوة الخاضعة لقيادته.»

غمغم جرانيت: «لقد كان مجردَ حظ سيئ.»

تابع طومسون قائلًا: «توجد هنا بِضع ملاحظات أخرى. حيث التقيت بك منذ بضعة أسابيع في حفل غداء في فندق ريتز. وكان في الحفل نادلٌ بلجيكي، علمتُ، من خلال تحقيقاتٍ لاحقة، أنه كان موجودًا كسجين في القرية التي كنت أنت أيضًا موجودًا فيها واستُقبلتَ كضيفٍ في المقر الألماني، وقد تعرف عليك في الحفل وكان على وشك الإفصاح عن حقيقتك. لكن الانفعال، رغم ذلك، كان أكبرَ من احتماله ففقد وعيه. وقد أخفي على الفور، تحت رعايتك، وتُوفِّي بعد بضعة أيام، في أحد المنازل الريفية المملوكة لعمِّك، قبل أن يتمكن من الإدلاء بأيِّ تصريح.»

صاح جرانيت: «هذا سخيف! فأنا لم أرَ الرجل من قبل في حياتي.»

أجاب الميجور طومسون، وهو يُقلب صفحة الملف: «سخيف، بلا شك، لكنه صدفة. بعد ذلك بقليلٍ أجدُك مهتمًّا بشكلٍ كبيرٍ بمدمِّراتنا الجديدة، وتُحاول، في الواقع، حثَّ الشاب كونيرز على شرح نظام الشِّباك السلكية لدينا، وتتبعه وتسافر إلى بورتسماوث وتبذل قُصارى جهدك لاكتشاف سرِّ جهاز جديد ملحَق بمدمرته.»

احتجَّ جرانيت قائلًا: «هذا ببساطة غير منطقي. كنت مهتمًّا بالموضوع، كأي ضابط عسكري سيهتم بتطورٍ بحري مهم. وكانت رحلتي إلى بورتسماوث مجردَ مجاملة للآنسة كونيرز وابنة عمها.»

تابع طومسون بثبات قائلًا: «أجدُك بعد ذلك تزور رجلَ الدولة الفرنسيَّ الوحيد الذي نشعر في إنجلترا بالخوف من تصرفاته، بفندقه في لندن. ثم أجد أنه بعد مدة وجيزة جدًّا يتضح أن رجل الدولة هذا بحوزته خطابٌ موقَّع من القيصر، يعرض فيه السلامَ على الشعب الفرنسي بشروطٍ استثنائية. من كان الوسيطَ الذي أحضر تلك الوثيقة، يا كابتن جرانيت؟»

ظلَّ وجه جرانيت جامدًا. وتماسكَ بهدوء بارد.

وقال: «هذه حكايات خرافيَّة. إن بايليتون هو صديقٌ لي. وخلال زيارتي له لم نتحدَّث عن السياسة.»

قال الميجور طومسون: «المزيد من الصدف. ننتقل، إذن، إلى تلك الليلة في ماركت بيرنهام هال، عندما أرشدَ منطادُ زيبلن إلى المكان الذي يُجري فيه السير ميفيل وورث تَجارِبَه لصالح الحكومة البريطانية، وألقى عليه قنابل مدمرة. وقد قُتل رجلٌ برصاصة بجانب الوهج. كان هذا الرجل أحدَ رِفاقك في دورمي هاوس كلوب.»

قال جرانيت في إصرار: «أنا لم أتحدَّث إليه ولم أقابله هناك، إلا كزائرٍ عادي.»

أجاب الميجور طومسون: «وهذا ما أشكُّ فيه. على أي حال، هناك أدلةٌ ظرفية كافية ضدَّك في هذا الملف تُبرر اهتمامي الشديد بمستقبلك. في واقع الأمر، كنت ستُصبح سجينًا في سجن تاور، أو مدفونًا تحته، في هذه اللحظة، لولا الفتاةُ التي ربما شهدَت زورًا من أجل إنقاذك. والآن بعد أن عرَفت رأيي فيك، يا كابتن جرانيت، ستتفهَّم أنني يجب أن أتردد قبل أن أرشحك لأي وظيفةٍ مهما كانت في خدمة هذا البلد.»

تحرك جرانيت حركةً بسيطة للأمام. واقترب قليلًا من المكتب وأصبح على بُعد ياردتين منه. ثم توقف فجأة. كان طومسون قد أغلق درج المكتب الآن بعد أن أخرج منه مسدسًا صغيرًا وأشهره في ثباتٍ بيده اليمنى.

وقال: «جرانيت، هذا النوع من الأشياء لن ينجح. أنت تعرف الآن رأيي فيك. وإلى جانب هذه الحوادث الصغيرة التي أشرت إليها، يشتبه في أنك سلَّمت، متخفيًا في شخصية قسٍّ أمريكي، رسالةً من الحكومة الألمانية إلى وزير إنجليزي، ومن حيث الأمورُ الشخصيةُ بيني وبينك، فأنا نفسي أشتبهُ في أنك حاولتَ اغتيالي مرتَيْن. وفي اعتقادي الراسخ أنك لست أكثر ولا أقلَّ من جاسوس ألماني خطير. اثبت في مكانك!»

نفرت الأوردةُ مثل حبل السوط على جبين جرانيت المتورد. وتمايل على قدمَيْه. وبدا مرتَيْن وكأنه سينقضُّ على خَصمه.

بينما تابع طومسون قائلًا: «الآن استمع إلي. سأذهب يوم الإثنين من ساوثهامبتون إلى بولونيا لمدة ثمانٍ وأربعين ساعةً لحضور محكمةٍ عسكرية هناك. لا يوجد سوى شيء واحد لائق يمكنك القيامُ به. وأنت تعلم ما هو. سأبادلك، إذا كنت ترغب في ذلك، بضابطٍ على الجبهة له رُتبك الحاليَّة نفسُها. وسيتلقَّى قائدك تلميحًا بهذا. سيصبح من واجبك تلقِّي أول رصاصة ألمانية يمكن أن تقضيَ عليك. إذا كنت راضيًا عن ذلك، فسأرتب الأمر لك. وإذا لم تكن ...»

توقف الميجور طومسون عن الكلام. وارتسمت ابتسامة ملتوية غريبة على زوايا شفتَيه.

واختتم كلامه قائلًا: «إذا لم تكن، فهناك ملاحظة صغيرة أخرى ستُضاف في هذا الملف ومن ثَم تكتمل القضية. أنت تعرف الشروط الآن، يا كابتن جرانيت، التي يمكنك من خلالها الذَّهاب إلى الجبهة. سأمنحك عشرة أيام للتفكير فيها.»

احتجَّ جرانيت قائلًا: «إذا قبلتُ عرضًا كهذا، فسأصبح معترفًا بالذنب تجاه كل الهُراء الذي تحدثتَ عنه.»

قال له الميجور طومسون بصرامة: «لولا حقيقةُ أنك قد ارتديتَ الزي العسكري الملكي، وأنك جندي، وأن فظاعة الأمر ستجلبُ الألم لكل رجل شاركَك ذلك الامتياز؛ لأنهيتُ حياتك المهنية بشكل شائن من خلال ما لديَّ من أدلة كافية هنا. سأمنحك فرصتك، ليس من أجل مصلحتك ولكن من أجل شرف الجيش. ما هو ردك؟»

التقط جرانيت قبعته.

وغمغم: «سأفكِّر في الأمر بعناية.»

خرج من الغرفة دون أيِّ تحية، وشق طريقه عبر الممرات، ونزل درجات السلم وخرَج إلى وايتهول. وقد ارتسم على وجهه تعبيرٌ جديد. واشتعلت بداخله كراهية مفاجئة تجاه طومسون. لقد كان محاصَرًا من قِبَل عدوٍّ قاسٍ، الرجل الذي تعقَّبه وأوقع به، كما كان يعتقد بصدق، من خلال الغيرة إلى حدٍّ ما. وسرعان ما تبلورت الأفكار في ذهنه. وسار بعيون زائغة عبر ميدان ترافالجار، وشقَّ طريقه إلى ناديه في بال مول. وهنا كتب بضعة أسطر إلى إيزابيل وورث، معربًا عن أسفه لاستدعائه خارج المدينة في مهمة عسكرية لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة. بعد ذلك استقلَّ سيارة أجرة وذهب إلى شقته، وأخذ يسير ذَهابًا وإيابًا بلا توقف، بينما يضعُ جارفيس بعضَ الملابس في حقيبة، ثم استبدل بملابسه بدلة صوفية خشنة، وقاد سيارته إلى بادينجتون. وبعد بضع دقائق أخذ مكانَه في كورنيش إكسبريس.

الفصل الثاني والثلاثون

خرج جرانيت من فندق تريجارتن في سانت ماري في صباح اليوم التالي، عند الساعة الثامنة والنصف تقريبًا، وتمشَّى على شريط العُشب الضيق الذي يحدُّ شارع القرية. وتقدم اثنان من أصحاب المراكب في الحال لمقابلته. فحيَّاهما جرانيت مبتهجًا.

وقال: «أجل، أنا أريد قاربًا. أودُّ الإبحار قليلًا. لقد كان لديَّ صديق هنا ومعه رجل اسمه روسيل ... جوب روسيل. هل يحمل أيٌّ منكما هذا الاسم، بالصدفة؟»

هز الرجل الأكبرُ رأسَه.

وقال: «اسمي ماثيو نيكولز، وهذا صهري، جو ليثبريدج. لدينا مركب شراعيٌّ قوي، وجميع المستلزمات التي يحتاج إليها المرء. وبالنسبة إلى جوب روسيل، حسنًا، إنه ليس هنا ... في الوقت الحالي، إذا جاز التعبير.»

لم يُطِل جرانيت التفكير في الأمر.

وقال بحسم: «حسنًا، يبدو لي أنني يجب أن أتحدث إلى هذا الرجل روسيل قبل أن أفعل أيَّ شيء. فأنا ملتزم بوعد نوعًا ما.»

نظر البحاران أحدهما إلى الآخَر. وابتعد الشخص الذي خاطبه أولًا قليلًا.

وقال: «كما تحب، يا سيدي. ممَّا لا شك فيه أن روسيل سيوجد هنا في وقتٍ ما بعد الظهر.»

اعترض جرانيت قائلًا: «هل قلت بعد الظهر؟ لكنني أريد الذَّهاب في الحال.»

أزال ماثيو نيكولز غليونَه من فمِه، وبصق على الأرض وهو يفكر.

«أشكُّ فيما إذا كنت ستجدُ جوب روسيل ليبحر معك قبل منتصف اليوم. ولست متأكدًا على الإطلاق من أنه سيُبحر مع هذه الرياح الشمالية الغربية.»

سأل جرانيت: «ما خَطبُه؟ هل هو كَسول؟»

التفت الرجل الذي لم يتكلَّم بعد، نحوه.

وقال: «إنه ليس كسولًا يا سيدي. هذه ليست الكلمة الصحيحة. لكنه تحصَّل على المال بطريقة أو بأخرى، هذا ما حدث مع جوب روسيل. لا أحد منا يعرف كيف، وهذا ليس من شأننا، لكنه يقضي معظمَ وقته في الحانة، ويبدو أنه قد شغف بالإبحار ليلًا بمفرده، وهذا في رأيي، وهناك آخرون منا يقولون نفس الشيء، عمل غير صحي. وهذا كل ما يمكن قوله عن جوب روسيل، حسبما أعلم.»

قال جرانيت بتمعُّن: «وهو كافٍ، أيضًا. أين يعيش؟»

أجاب ماثيو نيكولز، مشيرًا بغليونه: «في المنزل الرابع على اليسار في ذلك الشارع. ربما سيأتي إذا أرسلت في طلبه، وربما لن يفعل.»

قال جرانيت بحسم: «يجبُ أن أحاول الوفاء بوعدي لصديقي. وإذا لم أجده، فسأعود وأبحث عنكما مرةً أخرى أيها الرفيقان.»

ومن ثم عاد إلى حجرة الكتابة الصغيرة، وكتب رسالةً صغيرة وأرسلها مع خادم الفندق. وبعد نحو نصفِ ساعة استُدعي مرةً أخرى للخروج إلى الحديقة. حيث كان يقف هناك رجل ضخم، لا يقوى على الوقوف باعتدال، لم يحلقْ لحيته، وكان يرتدي ملابسَ غير مهندمة، وتدلُّ نظرة عينَيه على أنه كان يشرب الخمر بكثرة.

فسأله جرانيت: «هل أنت جوب روسيل؟»

أجاب الرجل: «هذا اسمي. هل هناك أيُّ خطأ في ذلك؟»

قال جرانيت: «كلا لا يوجد. أريدك أن تأخذَني في رحلةٍ بحرية. هل قاربك جاهز؟»

نظر الرجلُ إلى السماء.

وزمجر قائلًا: «لست متأكدًا من أنني أريد الذَّهاب. فالطقس سيئ.»

حثَّه جرانيت قائلًا: «أعتقد أن عليك الذهاب. فسأدفع لك بسخاءٍ كما يمكنني المساعدة في القارب. دعنا نذهب ونرَه على أي حال.»

سارا معًا إلى الميناء. ولم يتحدث جرانيت إلا قليلًا جدًّا، بينما لم يتحدَّث رفيقُه على الإطلاق. ووقفا على رصيف القوارب الصغيرة وحدَّقا في المكان الذي ترسو فيه القواربُ الشراعية.

ومن ثَم أشار جوب روسيل، وهو يمدُّ إصبع السبابة: «هذا هو سوسي جين.»

نزل جرانيت إلى مركبٍ صغير كان مربوطًا بجانب الجدار الحجري.

وقال: «من الأفضل أن نعتليَ سطح القارب.»

حدق روسيل في وجهه للحظة، لكنَّه رضخ. سحبا المركب إلى أن وصلا إلى سوسي جين واعتلَياه. وأعاد فتًى وجداه على متن القارب المركب الصغير. وضبط روسيل أشرعته ببطء ولكن بدقة. وبدا في اللحظة التي ارتقى فيها متن القارب وكأنه رجلٌ مختلف.

وسأل: «إلى أين تريد أن تذهب؟ سوف تحتاج إلى معطف المطر، بالتأكيد.»

قال جرانيت: «أريد الذَّهاب إلى منارة بيشوب روك بسرعة.»

هز روسيل رأسه.

وقال: «إنه ليس يومًا مناسبًا للإبحار في المحيط الأطلسي، يا سيدي. يمكننا أخذُ جولة حول سانت ماري ووايت آيلاند، إذا كنت ترغب في ذلك.»

ثبَّت جرانيت معطف المطر، وانحنى للحظة لتغيير أحدِ الأشرعة.

وقال، وهو يجلس على مقعد توجيه الدفة: «انظر هنا، هذا هو عرضي، يا جوب روسيل. وسأمنحُك ورقة نقدية بخمسة جنيهات في نهاية اليوم، إذا ذهبت إلى حيث أُخبرك وليس لأيِّ مكان آخر.»

نظر إليه الرجل بتجهُّم. وبعد بضع دقائق كانوا يُبحرون خارج الميناء.

وغمغم: «إنها وظيفة سيئة، أن تؤجِّر قاربك للتنزُّه. لن يُحجم الكثيرُ منا عن بيع أرواحهم مقابل خمسة جنيهات.»

وصلا إلى سانت أجنيس قبل أن يُجريا أولَ تعديل للمسار. ثم، مع ارتطام الرذاذ بوجهَيهما، التفَّا وتوجَّها نحو الفتحة بين الجزيرتَين. ولبعض الوقت، أبقَتْ عمليةُ الإبحار كلاهما مشغولًا. وفي غضون ساعتين كانا يقفان أمامَ منارة بيشوب روك. أخذ جوب روسيل نفَسًا طويلًا وملأ غليونًا بالتبغ. كان يبدو على شخصيته الحقيقية أكثرَ الآن.

وقال: «سأجعله يدور حول النقطة التي هناك، وسنقترب من القناة ونعود عن طريق برايِر.»

أمره جرانيت قائلًا: «لن تفعلَ شيئًا من هذا القبيل. أبقِ رأسه متجهًا نحو البحر المفتوح حتى أُخبرك بأن تلتف.»

نظر روسيل إلى الراكب بوجهٍ مضطرب.

وسأل فجأةً: «هل أنت واحدٌ آخرُ منهم؟»

أجاب جرانيت: «لا تَشغل بالَك بمن أكون. أنا في مهمةٍ سأستكملها. إذا كانت خمسةُ جنيهات غير كافية، فسأجعلها عشَرةً، ولكن استمِرَّ في الذَّهاب إلى حيث أريد.»

أطاعه روسيل، لكن وجهه أصبح أكثرَ تجهمًا. وانحنى نحو الراكب الذي بصحبته.

سأل في حدةٍ وبصوتٍ أجش: «ما هي لعبتك؟ هناك بعضٌ منهم على الجزيرة سيُقطع عنقي إذا علموا فقط الأشياءَ التي يمكنني إخبارهم بها. ما هي لعبتك هنا، ها؟ هل تقوم بعملٍ غير شريف؟»

أجاب جرانيت: «كلا، وإلا لم أكن بحاجةٍ إلى إحضارك إلى البحر. أنا أعرف كلَّ شيء عنك، يا جوب روسيل. أنت تُبلي بلاءً حسنًا وقد يصبح أداؤك أفضل قليلًا بمرور الوقت. والآن اصبر واحتفِظ بلسانك داخل فمك.»

كانا وسط جزءٍ غريب من مجموعة الجزر الصخرية المكسورة. كانت هناك فجوةٌ كبيرة في الصخور يُصدر البحر عبرها صريرًا؛ وإلى اليسار، حول الزاوية، توجد المَنارة. فسحب جرانيت ما بدا أنه منديلُ جيب كبيرٌ من الجيب الداخليِّ لمعطفه، وأنزل راية القارب بأصابعَ رشيقة، وربط أخرى بدلًا منها ورفعها. فحدَّق فيه جوب روسيل.

«ما هذا؟»

أجاب جرانيت: «إنه العلَم الألماني، أيها الأحمق.»

قال الرجل بعنف: «لن أرفع ذلك على قاربي. خمسة جنيهات غريبة من أجل لطف ...»

انفجر جرانيت، وسحب مسدسَه من جيبه وهو يقول: «اخرس! عليك أن تقود القاربَ في صمت، يا روسيل. أنا لم أُبحر إلى هنا كي أنخدع ... يا إلهي!»

ظهر منظارُ غواصة فجأةً إلى جانبهم تقريبًا.

وارتفع ببطءٍ إلى السطح. وصعد ضابطٌ يرتدي الزيَّ البحري الألماني وهو يصيح. فتحدثَ إليه جرانيت بسرعةٍ باللغة الألمانية. وانتفضَ جوب روسيل بسببهما، ثم سحب قارورةً من جيبه وأخذ جرعة كبيرة. واقتربت الغواصة فألقى جرانيت بلفةٍ صغيرة من الورق عبر هوَّة المياه. وكان كل ما دار بين الرجلين غيرَ مفهوم لجوب روسيل. ومع ذلك، فإن الكلمات القليلة الأخيرة، كرَّرها الرجل الألماني باللغة الإنجليزية.

حيث كرَّرها بعناية: «برنسيس هيلدا من ساوثهامبتون، غدًا عند منتصف الليل. حسنًا، إنها مهمة كبيرة.»

أكد له جرانيت: «إنها تستحقُّ ذلك. ربما يُطلقون عليها اسم سفينة مستشفى، لكنها ليست كذلك. أنا مقتنعٌ بأن الرجل الوحيد الذي هو أكثرُ خطورةً علينا من أي إنجليزيٍّ آخر، سيكون على متنها.»

وعدَه الآخرُ قائلًا: «إذن يجب إتمام الأمر. ما دام بهذه الخطورة!»

نظر إلى أعلى نحوَ العلَم وحيًّا جرانيت. وابتعد أحدُهما عن الآخَر قليلًا. فأنزل جرانيت العلم الألماني، وربط حجرًا بداخله وألقاه في البحر.

ثم قال للبحار: «يمكنك أن تُعيدني الآن.»

لقد استغرق الأمر أربعَ ساعات للوصول إلى المرفأ. حيث فشلا ثلاث مرات في الالتفاف حول النقطة الأخيرة؛ إذ أعاقتهما في كل مرة سحبٌ ممطرة. وعندما تمكَّنا من الدخول أخيرًا، كان هناك حشدٌ صغير لمشاهدتهما. فقد وقف نيكولز وليثبريدج على جانبٍ واحد بوجهَين متجهمَيْن.

وقال نيكولاس لجوب روسيل، وهو يصعد الدرجاتِ الرطبة للرصيف: «إنه يومٌ غريب للتنزُّه في البحر.»

غمغم روسيل، وهو يشقُّ طريقه عبر الرصيف: «إنه مناسب للحصول على المال، على أي حال. إذا كان هناك أيٌّ منكما يودُّ تناول الشراب، فسأدعوكما عليه. ما رأيك، يا نيكولز؟ ... ليثبريدج؟»

غمغم ليثبريدج بشيءٍ واستدار بعيدًا. ورفض نيكولز أيضًا.

وقال الأخير: «لست متأكدًا، يا جوب روسيل، من أنني تُعجبني أموالك ولا الطريقة التي تكسبها بها.»

توقَّف جوب روسيل لمدة دقيقة. كانت هناك نظرةٌ قبيحةٌ على وجهه المتجهم.

وقال: «إذا لم تكن صِهري، يا ماثيو نيكولز، كنت سأردُّ لك الصاع صاعَيْن.»

ردَّ نيكولز، وهو يبتعد: «وإذا لم تكن زوجَ أختي، كنت سأقوم برحلةٍ صغيرة إلى بنزانس، وأبلغ عنك في مركز الشرطة هناك.»

ضحك جرانيت بمرح.

وقال: «لا داعي لأن يحتدَّ أحدُكم على الآخَر يا رفاق. انظروا، سأمكث هنا لثلاثة أيام. سآخذ واحدًا منكم كلَّ يوم ... وهكذا يُصبح الأمر عادلًا، أليس كذلك؟ أنت غدًا، يا نيكولز، وأنت في اليوم التالي يا ليثبريدج. أنا لا أعبأ بالطقس، كما يمكن أن يُخبركما جوب روسيل، وأجيد الإبحار بقارب منذ أن كنت صبيًّا. وأنا مغرم بالإبحار، أليس كذلك، يا روسيل؟»

قال روسيل، وهو ينظر من فوق كتفه للخلف: «أجل، يمكنك الإبحارُ بالقارب على نحوٍ جيد. يمكنك أن تُبحر به إلى الجحيم نفسِه، إذا سمَح لك أحدٌ بذلك. تعالَوا، أيها الأولاد، إذا كان هناك أحدٌ منكم يرغب في المشروب. فأنا مبلَّل للغاية.»

ومن ثَم جُهِّز قارب نيكولز على النحو الواجب في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي. وصاح ليثبريدج من على الرصيف.

«لقد غيَّر الرجل رأيه، حسبما أعتقد. فقد غادر على متن قاربٍ الساعة الثامنة متجهًا إلى بنزانس.»

بدأ نيكولز بهدوءٍ في طيِّ أشرعته مرة أخرى.

وقال وهو يصعد إلى المركب الصغير: «أعتقد يا ليثبريدج أن هناك أشياءَ تحدث في هذه الجزيرة لا نفهمها أنا ولا أنت. وسأتبادل بِضع كلماتٍ واضحةٍ مع جوب روسيل، رغم أنه زوج أختي.»

أجاب ليثبريدج على نحوٍ كئيب: «لن تستطيع الحصول على هذه الكلمات الواضحة من جوب. لقد نام الليلةَ الماضية على الأرضية في بلو كراون، وما زال هناك هذا الصباح، يُطالب بتناول المشروب ويضرب بيده في الهواء. لقد تملَّكته الشياطين الزرقاء، هذا هو ما حدث.»

قال نيكولز بجدية: «هناك مال، بعض المال، لا يُفيد أحدًا.»

الفصل الثالث والثلاثون

انطلقت صافرة حادةٌ من قمرة القبطان، والباخرة، التي لم تتحرك بعد، وهي تتأرجحُ ببطء. واندفع نحوها عبر الضباب لنش صغيرٌ تابع للبحرية الملكية يجلس في مؤخرته رجلٌ واحد. وفي لحظاتٍ خاطفة توقف اللنش بجوار الباخرة، وتسلق الراكب سلَّم الحبال، وابتعد اللنش وتحركت الباخرة متجهةً مرة أخرى نحو القناة.

كان الراكب الذي وصل حديثًا يشق طريقه نحو الصالون عندما أوقف تقدمَه صوتٌ بدا أنه يأتي من خلف كومةٍ من الأغطية الملفوفة حول كرسي.

«هيو! ميجور طومسون!»

فتوقف للحظة. أزاحت جيرالدين الأغطيةَ ونهضت. ونظر أحدُهما إلى الآخر في دهشة.

وصاح: «عجبًا، يا جيرالدين، إلى أين أنت ذاهبة؟»

فأجابت: «إلى بولونيا بالطبع. لا تتظاهرْ بأنك متفاجئ. عجبًا، لقد حصلتَ لي على الوظيفة بنفسك.»

قال: «بالطبع، أنا فقط لم يكن لدي أيُّ فكرة أنكِ ستذهبين الآن، أو أنكِ تُسافرين على متن هذه الباخرة.»

فقالَت، بينما يضع كرسيًّا إلى جانبها: «لقد طلبوا مني الذهاب هذا الأسبوع، وكان الكثير من الممرضات والأطباء مسافرين على متن هذه الباخرة، فقررتُ أن أستقلَّها أيضًا. وأشعر بأنني محترفةٌ بالفعل. تقريبًا كل النساء هنا يرتدين زيَّ الممرضات، وثلاثة أرباع الرجال على متن الباخرة هم أطباء. إلى أين أنت ذاهب، يا هيو؟»

فقال: «فقط إلى القاعدة وسأعود مرةً أخرى غدًا. هناك محكمة عسكرية أريد أن أحضرها.»

ضحكت قائلة: «ما زلت غامضًا. ما علاقتك بالمحاكم العسكريَّة، يا هيو؟»

أجاب بخفَّة: «علاقة وثيقة، في الوقت الحاليِّ فقط. هل تُريدين تناوُلَ بعض القهوة أو أي شيء؟»

هزَّت رأسَها.

«كلا، شكرًا لك. لقد تناولت عَشاءً ممتازًا قبل أن نبدأ. وتفقدت بعض الكبائن، لكنني قررتُ قضاء الليل على سطح السفينة. وماذا عنك؟ يبدو أنك قد وصلت على عجل.»

فأوضح قائلًا: «لقد فاتني القطار في لندن. حيث أخَّروني في مكتب الحرب. ثم اضطُرِرت إلى السفر في سيارة حكومية ولم نتمكَّن من اللَّحاق بالباخرة. هل هناك أيُّ أخبارٍ من رالف؟»

أجابَتْه قائلةً: «تلقيت رسالةً منه منذ أيام. أرسلت في هاريتش لكنَّه لم يُفصح عن مكان وجوده، ولا عن أي أخبارٍ بالطبع. وقد عاد والدي من مقرِّ البحرية الملكية أمسِ متحمسًا للغاية، رغم ذلك. وهو يقول إننا أغرقنا أربع أو خمس غواصات أخرى، وإن معدَّات رالف الجديدة حقَّقت نجاحًا هائلًا. بالمناسبة، هل هناك أيُّ خطرٍ من الغواصات هنا؟»

أجاب طومسون: «لا أظنُّ ذلك. إنهم مشغولون للغاية حول جزر سيلي، ولكن يبدو أننا تمكَّنا من إبقائهم خارج القناة. ورغم ذلك، أعتقد أنه كان يجب أن تُرافقنا سفينةٌ حربية للحماية.»

فقالت: «على أيِّ حال، نحن سفينة مستشفًى. وأتوقَّع أنهم سيتركوننا وشأننا.» ثم تابعَت قائلة: «ميجور طومسون، إني أتساءل، هل تُصدق حقًّا كلَّ هذه القصص عن الأعمال الفظيعة للألمان ... الطريقة التي تعاملوا بها مع الغرقى الذين هاجمَتهم غواصاتهم، وهذه القصص البغيضة عن بلجيكا؟ يبدو لي أحيانًا كما لو أن ضباب كراهيةٍ قد انتشر بين البلدَين، ولا يستطيع كِلانا إدراكَ ما يفعله الآخر بوضوح.»

وافق الميجور طومسون على ذلك قائلًا: «أعتقد أن هذا رأيٌ وجيه. ومن ناحية أخرى، أعتقد أن انعدام الرحمة والمبادئ في الحرب هو جزءٌ من العقيدة الألمانية. لقد رأيت أشياء في بلجيكا لن أنساها أبدًا. وبالنسبة إلى موضوع الغواصات، إذا كانت نصف الأشياء التي قرأناها صحيحة، فيبدو أنهم قد تصرَّفوا بهمجية. وهذا أمرٌ غريب أيضًا»، واستدرك: «لأنه كقاعدةٍ عامة فإن البحارة ليسوا قُساةً أبدًا.»

ظلَّا صامتَيْن بعض الوقت. ولسببٍ أو لآخر، تجنَّب كلاهما ذِكْر موضوع واحدٍ كان في ذهنِ كلَيهما. واستمرَّا كذلك بعد أن أحضرَت المضيفة له بعضَ القهوة، وأصبحا في منتصف الطريق، إلى أن سألها طومسون سؤالًا بشكلٍ مفاجئ.

«هل قابلتِ الكابتن جرانيت مؤخرًا؟»

أجابت: «كلا.»

فأدار رأسَه قليلًا تجاهها.

«هل ستنزعجين كثيرًا إذا لم يأتِ لرؤيتكِ مرةً أخرى؟»

كانت تُراقب الفجر الضبابي.

وأجابَت: «لا أعرف، لكنني أظن أنه سيأتي.»

فقال لها: «لست متأكدًا من ذلك.»

فسألتْه بسرعة: «هل تقصد أنه متورطٌ في مشكلةٍ جديدة؟»

قال طومسون: «لا أعتقد أنه يحتاج إلى أيِّ مشكلةٍ جديدةٍ على وجه التحديد، لكن لمَ لا نترك الحديثَ عنه بعض الوقت؟ إن لقاءنا هذا غيرُ متوقَّع للغاية، وبالنسبة إليَّ فهو مصدرُ سرور. دعينا لا نفسده.»

فوافقت على الفور قائلةً: «دعنا نتحدثْ عن أشياءَ أخرى. أخبرني، مثلًا، كيف تبدو الغواصة عندما تنبثق من البحر؟»

قال: «أنا لم أرَ واحدة عن قرب قطُّ إلا وهي على سطح الماء. لماذا تسألين؟»

أشارت بإصبعها إلى بقعةٍ صغيرةٍ تقريبًا بين سحابتَي ضباب.

وأجابَت: «لأنني تخيَّلت للتو أنني رأيت شيئًا يخرج من الماء هناك، ربما كان منظارَ غواصة.»

نظر في الاتجاه الذي أشارَت إليه، لكنه هز رأسه.

قائلًا: «لا أستطيع رؤية أي شيء، لكن على أيِّ حال لا أعتقد أنهم سيهاجمون سفينة مستشفًى. كما أن هذه منطقة خطيرة بالنسبة إليهم. لا بد أن هناك بعضَ المدمِّرات التابعة لنا على مقربة. أتساءل عما إذا كان رالف ...»

ولم يُكمل جملته قطُّ. إذ إن الصدمة التي قرَآ عنها، ولكنهما لم يحلما بتجرِبتها قطُّ، ألقَتْ بهما دون لحظةِ تحذيرٍ على أيديهما وأقدامهما. وبدا أن الباخرة كما لو كانت قد رُفعَت خارج الماء. وسُمع دويٌّ كما لو أن مدفعًا كبيرًا قد أُطلِق بالقرب من آذانهما. وعند النظر عبر امتداد سطح الباخرة، بدا فجأةً لطومسون أن مقدِّمتها أصبحَت تُشير إلى السماء. وأخذ الجزء الخلفي منها، حيث كانا جالسَيْن، يتذبذب ويهتزُّ كما لو أنها ارتطَمت بصخرة، وعلى بُعد أمتار قليلةٍ منهما، باتجاه منتصفها، أصبح سقف الكابينة مكشوفًا للسماء. بينما الأخشاب تتفكَّك وتتشظَّى في كل اتجاه. وكانت هناك فجوةٌ كبيرة

بالفعل في جانب الباخرة، كما لو أن شخصًا ما قد اقتطع جزءًا منها. وعندئذٍ، تعالى فوق صفير البخار المتسرب وتصدُّع الأخشاب، دويُّ صافرات الإنذار من الباخرة طلبًا للمساعدة. وفقدَت جيرالدين أعصابها فورًا. وبدأتْ في الصراخ، وركضَت نحو أقربِ قارب، حيث كان الركابُ يتسلَّقونه مثل النمل. فجذَبها طومسون إلى الخلف.

ورجاها قائلًا: «لا تتسرَّعي. خُذي!»

وفتح باب الكابينة الذي مال نحوَهما، وانتزع اثنين من أطواق النجاة من داخلها، وسرعان ما ثبت أحدهما عليها. وأصبح هناك بعضُ مظاهر النظام على سطح الباخرة الآن بعد أن مرَّ الارتباك الأول. اندفع الرجالُ جميعًا نحو أماكنِ تمركزِهم. وقد فُجِّرت ثلاثة من القوارب إلى شظايا بينما هي معلَّقة على أذرعِ رفعِها. وأنزل الرابع إلى الماء، وهو محمَّل فوق قدرةِ استيعابه، بشكل رهيب. وربَط طومسون، الذي كان يعمل كالمجنون، بعض الأطواق الاحتياطية على طاولةٍ خرجَت طافيةً من الكابينة. وقد غطس القارب أكثر من مرة غطسةً كبيرة واضطُروا إلى التمسك بأبواب الكبائن. كما اندفعت فوقهم موجة ضخمة، وغمرَتهم من الرأس إلى القدم.

أصبح الجزء العلوي من درابزين السطح الآن عند مستوى البحر. فوقف طومسون للحظة ونظر حوله. ثم التفت إلى جيرالدين.

وقال: «انظري هنا، ستأتي الكثيرُ من السفن القريبة لانتشالنا. هذا الشيء لا يُمكن أن يغرق. أبقي طوقَ النجاة عليكِ وتمسكي بذراعيكِ في الطوق الذي ربطته بالطاولة، إذن. أجل هكذا صحيح. تعالَي الآن إلى الجانب.»

صاحت قائلة: «هل ستقفز من فوق السطح؟»

فأوضح قائلًا: «سوف نخطو فقط من فوق السطح؛ فالمياه قريبة. إنها الفرصة الوحيدة. تخلَّصي من عباءة الفرو. اسمعيني، إذا بقينا للحظة أخرى، فستجرنا الباخرة معها لأسفل. يجب أن نبتعد عن تياراتِ سَحْبها لأسفل بينما يمكننا ذلك قبل أن تسحبنا.»

استطرد بسرعة، وهو يتخلصُ من معطفه وسترته: «أستطيع السباحة. هذا الشيء سوف يدعمني بسهولة. صدِّقيني، يا جيرالدين، ليس هناك ما يدعو للخوف. يمكننا إبقاؤه طافيًا لمدة ستِّ ساعات، إذا لزم الأمر، فقط لا تُفلتيه من يدَيْك. وتمسكي به بذراعيك، و... يا إلهي! بسرعة!»

غمرتهما موجة ضخمة. فانقلبَت الباخرة، التي كاد سطحها أن يصل إلى مستوى الماء، وتعالت صرخات النساء، والصياح العالي لإلقاء الأوامر من قمرة القيادة، حيث كان

القبطان يقف ويداه على الدرابزين الذي يَغرق بسرعة. أصبح الماء يصل إلى الخصر الآن. وفي لحظةٍ أصبحا لا يشعران بأي شيء تحت أقدامهما. ووجدتْ جيرالدين نفسها تطفو فجأة. بينما طومسون، يسبح بذراع، ويتشبَّث بالأخرى في طوفهما.

وهمس: «ادفعي نفسَكِ بعيدًا عن كل شيء بقدرِ ما تستطيعين، واعلمي يا جيرالدين ... إذا حدث أيُّ شيء لنا، أنني لم أتغير قطُّ ... ليس للحظة واحدة.»

فبكت بحُرقة، وهي تمدُّ يدها: «وأنا، كذلك، لم أتغير قطُّ.»

غمرتهما موجة أخرى. ثم عادا للطفو، مع ذلك. فأمسك بيدها المبللة للحظة. وكل ما حولهما أشياءُ من أثاث الباخرة، وألواح خشبية مكسورة، ورجالٌ يسبحون هنا وهناك. ومن على مقربة تُدوي صافرة الإنذار المتلاشية.

صاحت جيرالدين: «انظر!»

كانت الغواصة على بُعد خمسين قدمًا تقريبًا منهما. ووقف القبطان مع أربعة أو خمسة رجال على متنها. فصاح طومسون وقال له.

«ألا يُمكنك إنقاذُ بعض هؤلاء النساء؟»

كان الجواب ضحكة غليظة، وحشية، ساخرة. ثم تسلَّلت الغواصة مبتعدة. احتقن وجه طومسون من الغضب، وهو يراقبها تبتعد. لكن في اللحظة التالية تمالكَ نفسه، رغم ذلك. فقد كان بحاجةٍ إلى كل قوته.

ورجاها قائلًا: «لا تستمعي إلى أي شيء يا جيرالدين. فسيُنقذوننا جميعًا تقريبًا. ألا يُمكنكِ سماع صافرات الإنذار بالفعل؟ هناك الكثير من السفن ستأتي لإنقاذنا. تذكري، نحن لن نغرق ما دمنا معلَّقين هنا.»

قالت في تلعثم: «لكنك لا ترتدي طوق نجاة.»

أكَّد لها قائلًا: «لستُ في حاجةٍ إليه. يمكنني أن أظلَّ طافيًا على نحوٍ جيد. هل تشعرين بالبرد؟»

قالت وهي تشهق: «كلا، لكنني أشعرُ بالإحباط الشديد. تبدو السماء فجأةً بعيدة. أوه، ألن يأتيَ أحدٌ لينقذنا!»

تعالت صافراتُ الإنذار الآن، والكثير منها، على مقربة. وشاهدا هيكلًا أسودَ كبيرًا يخرج من الضباب ويقترب.

فصاح قائلًا: «لقد وصَلوا بالفعل لإنقاذنا! تشجَّعي، يا جيرالدين! إنها خمسُ دقائق أخرى فقط.»

ثلاثون ميلًا في الساعة عبر الضباب، مع رذاذ يتساقط مثل النافورة وهسيس مياه البحر مثل موسيقى الشيطان في آذانهم. ثم رفع الضباب مثل الستارة على خشبة المسرح، وانسحب مبتعدًا إلى المنطقة المعتِمة. ووقف ضابطٌ بجانب كونيرز.

«لقد قُصِفَت السفينة المستشفى برنسيس هيلدا بطوربيد من غواصة، يا سيدي. إنهم يلتقطون الناجين بالفعل. نحن متوجهون نحوهم يا سيدي.»

وبينما هو يتحدث، سطَع ضوء القمر. كان هناك مركبًا صيدٍ وزورقُ دورية على مرمى البصر، وعشرون أو ثلاثون قاربًا تُجدف إلى مكان الكارثة. وفجأةً انطلقت صيحة.

«غواصة عند مقدمة السفينة جهةَ اليسار!»

فتأرجحوا. وبدا أن البحر قد تحوَّل إلى كتلةٍ من الرغوة الصابونية.

أمسك كونيرز الدرابزين الذي أمامه بقبضته. وبمجرد أن أصدر الأوامر انطلقَت المدافع. وتوهج الهيكل المغطَّى على السطح السفلي بضوءٍ غير متوقع. وتأرجح المدفع بالأسفل ببطءٍ نحو قاع البحر، موجَّه بواسطة أداة غير مرئية. وتناثرت أعمدةٌ من الرذاذ في الهواء، وكان هدير المدافع يُصمُّ الآذان. ثم تعالت صيحة أخرى ... صيحة حماس غليظة. وعلى بُعد مائة ياردة تقريبًا، ظهرَت الغواصة على السطح، وهي تتمايل بشكل غريب. بينما يرفع ضابط في المؤخرة العلمَ الأبيض.

وصاح: «نحن نغرق! نحن نستسلم!»

فتردَّد كونيرز لثانية واحدة. ثم نظر إلى الأسفل. فوجد جثة امرأة طافية؛ وطفل، مقيَّد إلى طاولة، تتخبَّط في جانب السفينة. ومن ثَم ومضت النيران الحمراء أمام عينيه؛ وكسر هديرُ صوته السكون اللحظي. وامتثالًا لأمره، أطلقت المدافع خطًّا مستويًا من اللهب ... ولم يعد هناك شيءٌ متبقٍّ من الغواصة، أو من الرجال الذين يتشبَّثون بها مثل الذباب. وشاهدهم كونيرز يختفون دون أدنى تغير في تعبيرات وجهه.

وغمغم: «الجحيم هو المكان الوحيد المناسب لهم! أرسل القوارب، يا جونسون، وتفقَّد الموقع. قد يكون هناك ناجون آخَرون كي نلتقطهم.»

نُقل الأمر وجرى تنفيذه وعلى الفور أُنزل أحد القوارب.

أبلغ أحد الضباط كونيرز قائلًا: «رجل وامرأة يتشبَّثان بطاولة، يا سيدي. سوف نُحضرهما على متن المدمرة.»

انتقل كونيرز إلى جانب قمرة القيادة. فرأى جيرالدين تُنتشَل إلى القارب، وحالما تأكد طومسون، أنها أصبحت بأمان، صعد وراءها. وشاهدهما وهما يسحبان إلى سطح المدمرة وفجأةً تعرف عليهما.

فصاح، وهو يندفع إلى أسفل السُّلم: «يا إلهي! إنها جيرالدين!»

كانت تقفُ على السطح، بينما يتساقط الماء منها، وهي تستند على بحار من كلا الجانبَين. فالتقطت أنفاسها عندما رأته. وكانت واعية تمامًا وصوتُها ثابت.

صاحت: «كلانا هنا، يا رالف، هيو وأنا. لقد أنقذ حياتي. شكرًا لله أنكم جئتم لإنقاذنا!»

ومِن ثَم أسرع المضيف نحوهما مع المشروب. فارتشفَت جيرالدين قليلًا وناولت الزجاجة إلى طومسون. ثم التفتت بسرعة إلى أخيها. حيث ارتسمت نظرةٌ غير مألوفة على وجهها.

وغمغمَت: «رالف، لا تهتمَّ بنا. ولا تتوقف لأي شيء آخر. هل يمكنك العثور على تلك الغواصة؟ لقد رأيتهم جميعًا ... الرجال ... يضحكون وهم يبتعدون!»

اشتعلت عينا كونيرز للحظةٍ بالغضب. ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة فرح غريبة لا تتفقُ مع الموقف.

وصاح في انتصار شرس: «إنهم لن يضحَكوا بعد الآن في هذا العالم، يا جيرالدين. إنهم غرقى الآن في قاع البحر، كل رجل وكلب منهم!»

أمسكت بكتفه ... جيرالدين، التي لم تُصب متعمدة أي حشرة بأذًى طوال حياتها.

وقالت بينما تبكي: «رالف، الحمد لله! الحمد لله أنك فعلتَ ذلك!»

الفصل الرابع والثلاثون

كان ذلك قرب نهاية عمل يوم طويل بشكل غير عادي حينما تنهَّد الميجور طومسون بارتياح؛ لأنه أدرك أن غرفة انتظار مكتبه قد أصبحت فارغةً أخيرًا. فأشعل سيجارة وتمدد على كرسيه. لقد قابل جميعَ أنواع الناس، واستمع إلى عشرات القصص المشبوهة. كان عمله معقدًا، وفي بعض الأحيان مليئًا بالتفاصيل. وإجمالًا، كان عمل يوم جيدًا، في رأيه، وقد تلقى الشكر بحرارةٍ عبر برقية من قِبَل العميد في هاريتش؛ لاعتقاله وكشفه لرجل كان بحوزته خطةٌ رائعة للغاية للدفاعات الأرضية في فيلكستو. أشعل سيجارة ونظر إلى ساعته. وعندئذٍ فُتح الباب على عجَل. ودخل أمبروز دون حتى أن يطرق البابَ كالمعتاد. وهو يحمل في يده ورقةً بالية. كان ثَمة رنةُ انتصار في نبرته وهو يرفع نظرَه عنها وينظر نحو مديره.

صاح قائلًا: «لقد فعلتُها يا سيدي! تمكنت من فكِّها بالصدفة البحتة. لقد حصلت على الشفرة بالكامل. إنها تستند إلى المقالات الافتتاحية في صحيفة «التايمز» بتواريخَ معينة. هذه هي الرسالة بعد فكِّ الشفرة: «اترك لندن في ٤ يونيو. أشعل الوهج في منتصف الليل عند قصر باكنجهام، ودرجات سلَّم سانت بول، والحدائق أمام سافوي. استلمنا تقريرَك الأخير».»

كرَّر طومسون، وهو يُلقي نظرةً سريعة على تقويمه: ««اترك لندن في ٤ يونيو» ... أي اليوم! «أشعل الوهج» ... مناطيد زيبلن، يا أمبروز!»

أومأ الموظف برأسه.

ووافق على ذلك قائلًا: «لقد فكرت بهم في الحال يا سيدي. هذا تحذير واضح جدًّا ومميز في شفرةٍ شديدة التعقيد، وهو موجَّه ... إلى السير ألفريد أنسيلمان.»

التمعَت عينا طومسون.

وقال معترفًا: «أمبروز، أنت شخص يُعتمد عليه. أنا لن أنسى هذا. فقط اكتشف على الفور ما إذا كان المدير في غرفته، من فضلك.»

تبع ذلك نصفُ ساعةٍ من الأحداث اللاهثة. إذ من غرفة المدير سارع طومسون إلى مقرِّ البحرية الملكية. وهنا اصطحبه أحدُ الرجال الذي طلب هو مقابلته، إلى سطح المبنى، ووَقَفا هناك متجهَين نحو الشرق. كان الشفق يقترب ولم يكن هناك نسمةٌ من الهواء.

فقال المسئول: «إنها ليلة مناسبة تمامًا. إذا بدَءوا في الوقت المناسب، سيصلون إلى هنا قبل أن يتمكنَ أيُّ شخص من رؤيتهم. ومع ذلك فسوف نُحذر الساحل بأكمله، وستعمل منصات المدافع لدينا طوالَ الليل.»

سأله طومسون: «هل لدينا فرصة، في رأيك، لضرب أيٍّ منهم؟»

غمز البحار.

وقال: «هناك منصتان للمدافع أعرفُ أنهما ليستا بعيدتَين عن هنا. أؤكد لك أن لديهما أسلحةً هناك ستجعل أصدقاءنا يُمزقون شعورهم عندما تنفجر قذائفهم في الهواء. سأحاول الوصول إلى إحدى هاتَيْن المنصتَيْن بنفسي عند منتصف الليل.»

«في أي وقت تعتقد أنهم سيُهاجمون إذا تجاوزوا ذلك؟»

أخرج الآخرُ ساعته وحاول تقدير الوقت.

وقال بينما يُفكر: «بالطبع، سيرغبون في تحقيق أقصى استفادة من الظلام، لكنني أعتقد أن ما سيهدفون إليه أساسًا هو الوصول إلى هنا دون أن يُلاحظهم أحد. لذلك، أعتقد أنهم لن يبدءوا حتى يحلَّ الظلام، ربما من ثلاث أو أربع قواعد مختلفة. هذا يعني أنهم سيَصلون إلى هنا قبل الفجر بقليل. سأنقل فقط مجموعتي إلى هارو وأعود مرةً أخرى بحلول منتصف الليل.»

غادر طومسون مقر البحرية الملكية، بعد ذلك بقليل، واستقلَّ سيارة أجرة إلى بيركلي سكوير. تردد الخادم قليلًا عند سؤاله.

وقال: «الآنسة جيرالدين موجودة، يا سيدي، على ما أعتقد. إنها في غرفة المعيشة في الوقت الحالي.»

قال طومسون: «لن آخذَ الكثير من وقتها. أعلم أنه وقت تناول العشاء تقريبًا.»

فأرشده الرجل عبر البهو، وفتح باب الغرفة الصغيرة في الجزء الخلفي من السُّلم.

ثم أبلغها: «الميجور طومسون، يا سيدتي.»

نهضت جيرالدين ببطءٍ من الأريكة التي تجلس عليها. وعلى بعد بضع أقدامٍ فقط منها، كان جرانيت واقفًا. فنظر الثلاثة كلٌّ منهم إلى الآخر للحظة ولم ينطق أحدٌ بكلمة. كانت جيرالدين هي أول من تمالكت نفسَها.

وصاحت بحرارة: «هيو! عجبًا، أنت زائرٌ آخر غير متوقع!»

قال طومسون موضحًا: «ما كان يجب أن أحضر في مثل هذا الوقت، لكنني أردتُ فقط أن أتحدَّث معكِ حديثًا قصيرًا، يا جيرالدين. وإذا كنتِ مشغولة، يمكنني الحديث مع والدتك.»

قالت جيرالدين: «أنا لستُ مشغولةً على الإطلاق، وكنت أتوقع زيارتك لي طوال اليوم. لقد عدتُ من بولونيا الليلة الماضية.»

قال طومسون: «تبدين بأحسنِ حال، وهذا يُسعدني.»

ارتجفت قليلًا. ثم نظرت إلى وجهه، وقد امتلأت عيناها بأشياءَ غير منطوقة.

وغمغمَت: «والفضل لك.» ثم أضافت مع ضحكةٍ صغيرة: «مع ذلك، لا أريد أن أخيفك، وأعرف ما سيحدث إذا بدأت أتحدث عن مغامرتنا.» وتابعت وهي تلتفتُ نحو المكان الذي يقف فيه جرانيت: «أنا آسفةٌ يا كابتن جرانيت، لكن لا يمكنني قَبول دعوة عمتك. إنها دعوةٌ كريمةٌ منها ولطفٌ منك أن تُريدني بشدةٍ أن أذهب، لكنني لن أستطيع تَرْك والدتي هذه الليلة. لقد كانت تُعاني من نوبةِ قلقٍ تجاه رالف في الأيام القليلة الماضية، وهي تكرهُ تركها بمفردها.»

سأل طومسون بهدوء: «هل يُحاول الكابتن جرانيت إقناعَكِ بمغادرة لندن هذا المساء؟»

أجابَت جيرالدين: «إنه يريدني بشدةٍ أن أذهب إلى منزل الليدي أنسيلمان في ريجيت هذه الليلة. لقد قبلت بالفعل دعوة الليدي أنسيلمان منذ بضعة أيام، ولكن كان ذلك قبل أن تسوء حالة أمي.» وتابعَت، وهي تلتفتُ إليه: «لقد أرسلت رسالةً لعمتك، يا كابتن جرانيت. أرجو أن تشرحَ لها مدى إحباطي، وكان من اللطيف منك أن تأتيَ وتطلبَ مني أن أغير رأيي.»

ساد صمتٌ قصيرٌ ولكن مثيرٌ للفضول. التفت جرانيت عن جيرالدين وكأنه سيخاطبُ طومسون. كان يواجه الآن التحديَ الصامت، وشبهَ المحتقر لعيون الأخير.

قال طومسون: «إن الكابتن جرانيت يُبدي اهتمامًا كبيرًا لراحتكِ وسلامتك.»

نسيَ جرانيت نفسه للحظة. ولمعت عيناه. كان نصف غاضب ونصف مذعور.

وسأل بحدة: «ماذا تقصد؟»

لم يُصدر طومسون إجابةً فورية. وبدا كأنه يُفكِّر في كلماته، وكان تعبيره غامضًا. وأخذت جيرالدين تنقل نظرَها بينهما.

وقالت بصراحة: «هناك شيءٌ بينكما لا أفهمه.»

قال طومسون بهدوء: «هناك الكثير جدًّا عن الكابتن جرانيت بدأت للتو في فهمِه. يجب أن تعتبري تعاطفه مع تحركاتكِ هذا المساء مجاملةً كبيرة، يا جيرالدين. إنه ينبع بالكامل من رغبته في تجنيبكِ صدمة ما قد يتحوَّل إلى كارثةٍ مؤسفةٍ للغاية.»

تنهدت جيرالدين وهي تقول: «إنكما رجلان غير مفهومَين تمامًا. لو تحدَّث فقط أيٌّ منكما بصراحة!»

انحنى طومسون.

وقال: «ربما أكون قادرًا أن أرضيَكِ في الوقت الحالي.» وتابع، وهو يلتفت نحو جرانيت: «بما أنكَ فشِلتَ في إقناع الآنسة كونيرز بمغادرة لندن، يا كابتن جرانيت، فهل يمكنني أن أسأل ما هي تحرُّكاتك المحتملة؟»

كان الرد المنفعل: «لا يمكنك. إنه أمرٌ لا يَعنيك.»

أجاب طومسون: «إنه، للأسف، أمرٌ يَعنيني للغاية. إنه، ولعلك تتذكر، يومك التاسع من المهلة. وأنا لا أرغب في أن تعاني بلا داعٍ لزيارتك الإنسانية هنا، لكنني أريد أن أذكِّرك أنه في ظل هذه الظروف، فإن ذلك يُمثِّل القليل من المجازفة. كلا، لا تقاطعني! كلٌّ منا يفهم الآخر، أنا متأكد تمامًا.»

تراجع جرانيت خطوةً إلى الوراء. وشحب وجهه للحظة، وفُتحت شفتاه لكنهما أغلِقَتا مرة أخرى دون كلام. بينما يراقبه طومسون عن كثب.

وتابع قائلًا: «بالضبط. لقد خمنت الحقيقة، يمكنني إدراك هذا. لقد تمكنا، خلال الساعات القليلة الماضية، من فك شفرة تلك الرسالة الشيقة للغاية التي وصلت إلى عمك منذ بعض الوقت.»

زادت حيرة جيرالدين. إذ يبدو أن صمت جرانيت شبه المذهول يدهشها.

فصاحت: «هيو، ماذا يعني كل هذا؟ هل الكابتن جرانيت في ورطة لأنه جاء إلى هنا ليُحذرني من شيء ما؟ إنه لم يتفوَّه بكلمة سوى أنه رجاني أن أسافر إلى الريف الليلة.»

قال طومسون: «لقد رجاكِ أن تفعلي ذلك، لأنه واحدٌ من أولئك القلائل المحظوظين الذين تلقَّوا تحذيرًا من أن الليلة أو صباح الغد هو الوقت المحدد لغارة زيبلن على لندن التي سمعنا عنها كثيرًا. أوه! إنه يعرف كل شيء عن ذلك، وعمه، وعددٌ كبير من الضيوف الذين

تجمعوا معًا. سيصبحون جميعًا آمنين بدرجةٍ كافية في ريجيت! هيا، يا كابتن جرانيت، ماذا لديك لتقولَه عن ذلك؟»

وقف جرانيت وقفة عسكرية في انتباه. وبدا كجندي في كل ملمح من ملامحه، ومن الغريب أنه بدا في موقفه وتصرفه يحترم الرتبة الأعلى التي تحدَّث طومسون بموجبها.

وقال: «غدًا، كما ذكرتني، هو يومي العاشر، يا سيدي. سأضع نفسي تحت تصرف مكتبِك عند الساعة التاسعة صباحًا. وداعًا يا آنسة كونيرز! آمُل، على الرغم من أنني فشلت، أن يُقنعكِ الميجور طومسون بتغيير رأيك.»

ثم غادر الغرفة. بينما جيرالدين مندهشة للغاية لدرجة أنها لم تُحرك ساكنًا كي ترن الجرس. واستدارت بدلًا من ذلك نحو طومسون.

وقالت في إصرار: «ماذا يعني ذلك؟ يجب عليك أن تُخبرني! أنا لستُ طفلة.»

أجاب طومسون بجدِّية: «هذا يعني أن ما قلته لكِ طوال الوقت هو الحقيقة. لقد كنتِ تظنين، يا جيرالدين، أنني كتوم ومتشكك. لكن لديَّ سلطات ومنصب ومسئوليات، أيضًا، أنت لا تعرفين عنها شيئًا. ذلك الشاب الذي غادر الغرفة لتوِّه هو جاسوسٌ لألمانيا. وكذلك عمه.»

فصاحَت: «ماذا، السير ألفريد أنسيلمان؟ هل أنت مجنون، يا هيو؟»

أجابها قائلًا: «على الإطلاق. هذه حقائق مجردة.»

«لكن السير ألفريد أنسيلمان! قد فعل العديد من الأشياء الرائعة للبلد. إن الجميع يقولون إنه كان يجب أن يصبح وزيرًا. هيو، لا يمكن أن تكون جادًّا!»

قال طومسون بجدية: «أنا جادٌّ للغاية؛ لأننا نجحنا قبل ساعةٍ واحدةٍ فقط في فك شفرة رسالةٍ من هولندا إلى السير ألفريد أنسيلمان، تنصحه بمغادرة لندن اليوم. ونحن نُخمِّن ماذا يعني ذلك. قد نكون على حقٍّ وقد نكون مخطئين. سوف نرى. لقد جئت لأرجوكِ كي تُغادري المدينة مدةَ أربعٍ وعشرين ساعة. فوجدتُ جرانيت في نفس المهمة.»

قالَت في إصرار: «لكن ربما حذروه — ربما أحد أصدقائه الشخصيِّين قد فعل ذلك. إنه رجل له أصدقاء وعلاقات من جميع أنحاء العالم.»

قال طومسون مجادلًا: «لماذا لم يوجه التحذير مباشرةً إلى قيادة البحرية الملكية؟ إذا كان إنجليزيًّا وطنيًّا، فهل تعتقدين أن أي مسار آخر كان مفتوحًا له؟ هذا لن يُجدي، يا جيرالدين. فأنا أعرف المزيد عن الكابتن جرانيت أكثرَ مما سأخبركِ به في الوقت الحالي. هل نترك هذا الموضوع؟ ألا يمكننا أن نفعل شيئًا لإقناع والدتكِ بأخذكِ بعيدًا عن المدينة؟

يمكنكِ اصطحاب بعض أصدقائك، إذا أردت. يجب أن تصحبي أوليف، على سبيل المثال. نحن لا نريد حالة من الذعر، ولكن لا يوجد سبب يمنعكِ من إخبار أيٍّ من أصدقائكِ بهدوء.»

فُتح الباب فجأة. وأطلَّ الأدميرال برأسه من خلاله.

وقال معتذرًا: «آسف! اعتقدت أنني سمعت أن الشابَّ جرانيت كان هنا.»

قالت له جيرالدين: «لقد كان هنا وانصرف يا أبي.» وأضافت، وهي تلتفت نحوَ طومسون: «من الأفضل أن ترى ما يمكنك فعله مع والدي.»

سأل الأدميرال في حدة: «ما المشكلة، ها؟ ما المشكلة؟ ما المشكلة؟»

قال طومسون: «الحقيقة هي، يا سير سيمور، أننا قد تلقينا إخطارًا — ليس إخطارًا على وجه التحديد، لكننا استطعنا فك تشفير رسالةٍ سرية تُعطينا سببًا للاعتقاد بأن غارةَ زيبلن ستجري محاولة تنفيذها في لندن خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة. وقد جئتُ لأحاول حث جيرالدين على جَعْلكم جميعًا تبتعدون حتى ينتهيَ الأمر.»

أطلق الأدميرال صوتًا من حلقه وهو يقول: «اللعنة عليَّ إن فعلت! ماذا، أتسلل هاربًا وأترك خمسة أو ستة ملايين آخرين لم يتم تحذيرهم، كي يتعرَّضوا للهلاك؟ ليس أنا! إذا كان ما تقوله صحيحًا، يا طومسون ... فسأعود مباشرةً إلى مقر البحرية الملكية ... سأذهب إلى إحدى المنصات الجوية بنفسي، ويمكن للنساء البقاءُ في المنزل والاستعداد للمساعدة.»

مرَّرت جيرالدين يدها من خلال ذراع والدها.

وضحكت قائلة وهي تلتفت نحو طومسون: «هذا هو نوع الأشخاص الذي نحن عليه.» ثم أضافت: «مع ذلك، يا هيو، كان من اللطيف جدًّا أن تأتي. لكني لا أستطيع رؤيتنا نفرُّ إلى الريف، كما تعلم. سأحاول إقناع أوليف بالبقاء معي. وأتوقع العودة إلى بولونيا على الفور تقريبًا، إلى المستشفى هناك، لإعادة بعض الجرحى. وقد أحصل على القليل من التدريب هنا.»

التقط طومسون قبعته.

وقال بهدوء: «حسنًا، لا يُمكنني الشكوى من قرارك. ففي نهاية الأمر، هذا هو بالضبط ما كنتُ أتوقعه.»

ثم ودعهما وغادر. بينما أصدَر الأدميرال صوتًا من أنفه وهو يتابعه ببصره من الخلف.

وقال: «إن طومسون، رجل جيد للغاية، لكنه لا يفهم الأمور على نحو جيد. أراهن أن الشابَّ اللطيف جرانيت لن يقترح علينا أبدًا أن نهرب مثل الخراف المرتعبة! تعالي، يا عزيزتي، سنذهب لتناول العشاء.»

الفصل الخامس والثلاثون

عند نحو الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي أُوقِظ طومسون بلمسةٍ خفيفة على كتفه. فنهض سريعًا من الأريكة التي ألقى نفسه عليها. وكان أمبروز يقف فوق رأسه. كان لا يزال بغرفته في مكتب الحرب، مرتديًا ملابسَه الكاملة.

قال أمبروز: «لقد اتصل السيد جوردون جونز من داونينج ستريت، يا سيدي. إنه مع رئيس الوزراء. وهما يريدان معرفة ما إذا كان يمكنك أن تذهب لمقابلتهما.»

فقال طومسون: «سأذهب في الحال ... فقط سأغسل وجهي وأمشط شعري. هل هناك أخبار جديدة، يا أمبروز؟»

أجاب الشاب: «كلا، يا سيدي. لقد اتصلت بنا كلُّ الصحف في لندن ولكننا بالطبع لم نردَّ على أيٍّ منها. هل يمكن أن أنصحك بتوخي الحذر في الخارج، من فضلك؟ فكل أضواء المدينة مطفأة، والشوارع مظلمة للغاية. وقد حاول رجلٌ استخدام مصباح كهربائي يدويٍّ على الجانب الآخر من الطريق منذ قليل، فأطلقوا النارَ عليه. هناك صف مزدوج من الحراس في كل مكان من زاوية وايتهول.»

غمغم طومسون: «لم يستخدموا الوهج هذه المرة، أليس كذلك؟ حسنًا، يا أمبروز، أعتقد أنني أستطيع أن أتحسس طريقي إلى هناك.»

ومن ثم نزل إلى الشارع، لكنه وجد نفسه تائهًا في بحر من الظلام لبضع لحظات. فبقدرِ ما استطاع أن يرى، لم يكن هناك ضوء ولا أيُّ بصيص منه. ووصل إلى زاوية الشارع كرجل أعمى، من خلال النقر على حجر الرصيف بعصاه. وعندما وصل إلى هناك، وقف للحظة في منتصف الطريق، بدون ارتداء قبعته. ولم تكن هناك نسمة من الهواء في أي مكان. شق طريقه بحذرٍ نحو داونينج ستريت، حيث التقى بعدد قليل من الناس، وكان لا يزال مضطرًّا إلى التحسس بدلًا من المشي. على طول داونينج ستريت شقَّ طريقه

بجوار السور، ثم أخيرًا رن الجرس في منزل رئيس الوزراء. فأدخلوه على الفور إلى غرفة المجلس. كان الرجال الأربعة أو الخمسة الذين يجلسون حول طاولة، والذين نظروا نحوه عند دخوله، يحمل كل واحد منهم اسمًا مألوفًا. ومد رئيس الوزراء يده.

وقال: «مساء الخير، أيها الميجور طومسون. من فضلك اجلس وانضمَّ إلينا للحظة.»

فوجئ طومسون قليلًا بهذا التجمع.

وقال: «اعذرني إن قلتُ إنه من المحتمل أن يصبح هذا مكانًا مستهدفًا هذه الليلة.»

ابتسم رئيس الوزراء.

وقال: «حسنًا، لا يُمكنك أن تتوقَّع منا الاختباء، أليس كذلك أيها الميجور طومسون؟ على أي حال، لا يوجد أحدٌ منا غير مستعدٍّ لمشاركة ما يتعين على مواطني لندن الآخرين مواجهته. إن النساء والأطفال هم فقط من يختبئون في الريف، لو كنت تقترح علينا ذلك. لقد أجمعنا، يا سيدي، على أنه من خلالك بشكل رئيسي نحن في موقف محظوظ لأننا مستعدُّون لهذه الليلة.»

أجاب طومسون: «لقد كان من خلال تصرفي في أمر تعرَّض لقدر كبير من النقد حسبما فهمت.»

قال رجل الدولة: «أنا أقرُّ بهذا صراحة. ذلك الأمر بالذات، أمر رقابتك على رسالة معينة، كان موضوعَ مؤتمر جادٍّ وخطير هنا بيننا جميعًا. وقررنا أن نرسل في استدعائك. لقد اتصلنا أولًا بمدير مكتب الحرب، لكنه أخبرنا أنك مدير إدارتك بالكامل وغير مسئول أمام أحد، وأنك — اعذرني — قد حققتَ نجاحًا باهرًا، وأنه لا ينوي التدخلَ مطلقًا في طريقة إدارتك لمهام عملك. وقد أقول إنه ألمح إليَّ أن أفعل مثله عندما ذهبت إليه، وأنا ببساطة غاضب لأنك أزلتَ شخصًا معينًا من قائمة أولئك الذين لا تخضع مراسلاتهم للرقابة.»

سأل طومسون: «ماذا يمكنني أن أفعل من أجلكم، أيها السادة؟»

رجاه السيد جوردون جونز: «أن تستمع إلينا بينما نعرض عليك أمرًا من وجهة نظر الفطرة السليمة. أنت تدرك من نحن. نحن الذين تقع على أكتافنا بالدرجة الأولى مهمة حكم هذا البلد. أريد أن أخبرك أننا قد توصَّلنا إلى قرار بالإجماع. نحن لا نقول أي شيء عن الذنب الأخلاقي أو الفعلي للسير ألفريد أنسيلمان. إلى أي مدًى قد يكون معنيًّا بالتآمر مع أعداء بلدنا هو أمر قد نعرفه في المستقبل، ولكن في الوقت الحاضر ... حسنًا، دعنا نجعل الأمر بسيطًا ... نريدك أن تتركه وشأنَه.»

قال طومسون ببطء: «هل تريده أن يستمر في منصبه الرفيع الحالي؟ ... رجل أُدينَ بالتخابر مع عدونا؟»

تابع السيد جوردون جونز بجدية: «نريدك أن تتركه وشأنه، ليس من أجله هو ولكن من أجلنا. عندما يحينُ الوقت، لاحقًا، قد نتمكن من التعامل معه. أما اليوم، فلا يمكن لأي كلمات مني أن تشرح لك فائدته بالضبط. إنه يتحكم في أسواق المال في العالم. إن لديه ثروة، ثروة كبيرة، ويتحكم في ثروة كبيرة في كل مدينة. بصراحة، هذا الرجل كعدوٍّ مكشوف اليوم يمكن أن يُلحق بنا ضررًا أكثر مما لو انضمَّت أي قوة محايدة يمكنك تسميتها إلى التحالف الثلاثي. تذكَّر، أيضًا، يا ميجور طومسون، أنه قد تكون هناك مزايا لنا في موقف الانتظار هذا. فمنذ تحذيرك، أصبحت رسائلُه تخضع للرقابة. ولديك التحكم في طاقم كبير من المحقِّقين العسكريين؛ وموارد سكوتلاند يارد أيضًا، في خدمتك. أخضِعْه للمراقبة ليل نهار، وفتِّش رسائله، وتتبع كل تحركاته، لكن لا تستفزَّه لفتح العداء. نحن لا نريده في سجن تاور. إن الفضيحة والصدمة الناتجة عن هذا ستُلحقُ بنا ضررًا هائلًا، بصرف النظر عن الذعر المالي الرهيب الذي سيترتب على ذلك. نحن سوف نتأكد من أنه لن يُسبب المزيد من الأذى أكثرَ مما قد سببه بالفعل. نحن نُناشدك جميعًا هنا الليلة. استرشد بنا بالكامل في هذا الأمر. لقد قدمت للبلد خدمة رائعة باكتشافك. فاجعلها أكثر روعة، يا ميجور طومسون، من خلال الحفاظ على سرية هذا الاكتشاف.»

أجاب طومسون بجدِّية: «أنا لن أملي عليكم شروطًا. سأقول على الفور إنني على استعدادٍ تام للخضوع لتقديركم في هذا الأمر. في المقابل لديَّ طلب. لا يزال لدي تهمٌ أكثر خطورة لأوجهها ضد ابن أخي السير ألفريد. فهل تتركون أمر التعامل مع هذا الشاب بين يدَي؟»

وافق رئيس الوزراء قائلًا: «بكل سرور.» وأضاف، وهو ينظر حول الطاولة: «أعتقد، أيها السادة، أننا لا نحتاج إلى تأخير الميجور طومسون أكثرَ من هذا؟ نحن كذلك لا يزال أمامنا القليلُ من الأعمال لننتهي.»

انتهى كلُّ شيء في تلك الدقائق القليلة ووجد طومسون نفسه في الشارع مرةً أخرى. فتحسس طريقه بتلمُّس السور حتى وصل إلى وايتهول. وبدا له أن السواد أصبح الآن أكثرَ قابلية لتكيف العين معه. وبالنظر بثبات باتجاه الشرق بدا وكأنه مدركٌ لبعض البرق الخافت في السماء. وسمع صرير العربات التي تجرُّها الخيول في الطريق، ويقود الخيولَ سائقوها في الغالب. ومن حين لآخر كانت تظهر سيارة أجرة تهربت من أوامر

الشرطة وهي تضيء مصباحًا واحدًا فقط؛ ليتمَّ إيقافها على بُعد بضع ياردات ومرافقتها إلى حافة الرصيف. وعلى طول الطريق حتى وايتهول، كان هناك صفٌّ طويل من سيارات الأجرة، غير قادرة على استئناف العمل أو العثور على طريقها إلى المرائب حتى يطلع النهار. كان عدمُ الاعتياد على منظرها مجتمعةً مثيرًا للانتباه. في نهاية الطريق الواسع، استدار طومسون إلى اليسار عبْر قوس بال مول، وعبَر إلى سانت جيمس بارك. وسار ببطءٍ على طول الطريق حتى وصل إلى الطريق على اليسار، الذي يؤدي إلى مقر البحرية الملكية. وهناك توقف للحظة، واستدار، وأصغى باهتمام. كان يتمتع بحاسة سمع قوية، وبدا له كما لو كان يسمع من بعيد صوتَ ألفِ مِطرقة مكتومة تضرب على سندان؛ صوت اضطراب منهجي، وغريب في الهواء. فأمسك السور بيدٍ واحدة وحدَّق إلى أعلى بعينَيْن متوترتَيْن. في تلك اللحظة فقط رأى بوضوحٍ ما بدا وكأنه وميضٌ من البرق في السماء، تلاه صوتٌ عالٍ بدا وكأنه صوتُ رعد. ثم غطَّى عينَيْه بيدَيْه على نحوٍ غريزي. إذ من اثني عشَر مكانًا — واحدٌ منها قريب للغاية — بدا أن شعاعًا طويلًا ومستقيمًا من الضوء ينطلق باتجاه السحب. وقد انبعث أحدُها من مكانٍ بالقرب من فندق كارلتون، الذي أضاء قوسَ بال مول بالكامل بوضوح مذهل، وأعطاه رؤية مفاجئة لسطح مقرِّ البحرية الملكية، وبينما هو يتابعه، جعله يطلق صرخة من بين شفتيه. إذ على مسافة بعيدة، حتى خارج حدود خط الضوء المهتز، كان هناك شيء في السماء بدا أكثر سوادًا من السحابة. حتى أثناء نظره إليه، انبعث وميض شديد من سطح مقرِّ البحرية الملكية، وصوت هسهسة وصرير قذيفة وهي تُطلَق إلى الأعلى. وعندئذٍ بدت المدينة النائمة مستيقظةً فجأةً وأصبح الليل مخيفًا. وعلى بُعد أقلَّ من خمسين ياردة منه سقط شيء ما في المتنزَّه، وتناثرت كتل من الحصى والتراب حوله. وسقطت شجرةُ دردار كبيرة على السور بالقرب منه. ثم حدث انفجار يصمُّ الآذان، ورعد من حجارة البناء المتساقطة، واشتعلت النيران فجأةً في منزل على جانب القوس. وبعد لحظات قليلة، في مشهد غريب وسط كل هذه الأحداث غير المرغوبة وغير المتوقعة، هُرِعت سيارة إطفاء من تحت القوس، ونجت من الأجزاء المكسورة من الطوب والحجر بفارق ضئيل، وبدأ العديد من الخراطيم في إطفاء المبنى المشتعل.

لقد انتهى الظلام الآن، وكذلك الصمت. كانت هناك منازل على الجانب الآخر من النهر تحترق، ولم تمر لحظة دون سقوط قنبلة. وتعالت الصرخات البائسة لثانية أو ثانيتين من مكانٍ ما باتجاه تشيرينج كروس، وغطى صوتُ انفجارٍ هائل آخر من أقصى الشمال على الصرخات في الحال تقريبًا. وبين الحين والآخر، بالنظر إلى الأعلى في اتجاه

خط الكشافات الطويل، أمكن لطومسون أن يرى بوضوح شكلَ أحد المناطيد التي تحوم. وبمجرد وميض الضوء لأسفل، وبينه وبين قصر باكنجهام، رأى طائرة كبيرة تسقط رأسًا على عقب، وسمعها تضرب الأرض مع تحطم هائل، وسمع صرخة الموت الطويلة، صرخة أشبه بالبكاء. من الرجال الذين هلكوا معها ...

كانت الضجة تزداد في كل لحظةٍ وتصمُّ الآذان. ومن جميع أنواع الأماكن والمباني غير المتوقعة تصاعد صوتُ ارتداد المدافع، تلاه صفيرُ القذائف. ومباشرة فوق أسطح المنازل الواقعة بين المكان الذي كان يقف فيه وبين كارلتون، سقطت طائرة أخرى، وحطمَت المداخن والنوافذ وعَلِقَت هناك مثل خفاشٍ أسودَ عملاق. لم يكن هناك أحد بالقرب منه، ولكن من خلال ومضات الضوء العرضية، تمكن طومسون من رؤية الجنود والناس المسرعة في الميدان أمام مقر البحرية الملكية، وعلى طول ستراند كان يسمع أصواتَ خُطًى على الرصيف. لكنه بقي هو نفسه وحيدًا، كشاهدٍ صامت، ومذهول، ومبهور على ملحمة القتل والخراب هذه.

ثم حدث ما بدا له أنه ذروة الأحداث. إذ شعر على ارتفاع كبير فوق رأسه فجأة بتيار هواءٍ هابط. فنظر إلى الأعلى. وسمع أصوات الصراخ الآتية على ما يبدو من السحب المتساقطة، وهي أصواتٌ غير مألوفة وصادرة من قاع الحلق، وقد حذَّرتْه مما هو قادم. واتخذ الظلام الذي يحيط به من أعلى شكلًا محددًا. فاستدار وركض للنجاة بحياته. وانطلقت على بعد مسافة قصيرة فقط من رأسه عاصفةٌ من الشظايا عبر المدافع المنخفضة داخل مقرِّ البحرية الملكية. وعندما التفت لينظر رأى، على ارتفاع أقلَّ من خمسين ياردة، سقوطَ منطاد زيبلن الضخم. وشعر بنفسه خارج نطاق سقوطه فتوقَّف مؤقتًا، وهو يلهث. ومن ثَم سقط الهيكل الضخم، مع تحطُّمٍ بدا أنه شق الهواء. حيث استقر طرَفُه البعيد، وقد التوى، مقابل ظهر مبنى مقر البحرية الملكية. بينما كان الطرف الآخر على بُعد بضع ياردات فقط من مكانِ وقوف طومسون، أسفل درجات السلم المؤدية إلى بال مول. فوُجِّهت عشَرة كشافات نحو مكان السقوط. وظهر رجالٌ فجأة وكأنهم قد خرَجوا من تحته. وقد وقف بعضهم للحظة وتأرجح مثل الرجال المخمورين، وبدأ آخرون في الجري. ومن خلف الزاوية عبر الميدان أمام مقر البحرية الملكية جاءت سَريَّة صغيرة من الجنود وهم يُشهرون أسلحتهم. وانطلقت صيحة. ورغم ذلك واصل اثنانِ من الرجال الركض.

سمع طومسون طقطقة بندقية ورأى أحدهما يقفز في الهواء وينهار. بينما ترنَّح الآخرُ وسقط على ركبتيه. ومن ثم استسلم عشَرة منهم معًا وأيديهم ممدودةٌ إلى السماء.

ثم أدرك طومسون أن شبح شخص مكسوٍّ بالزيت يتقدم في اتجاهه، نحو درجات السلم، وهو يركض بسرعة متسللًا. فوقع وميض ضوء على الهارب للحظة. كان يرتدي قبعة مثل الخوذة؛ ولم يرَ منه سوى وجهه، المسود بالشحم، وعينَيه المحدقتين. كان يجري مباشرةً نحو طومسون، وهو يتنفس بصعوبة.

فصاح طومسون: «ارفع يديك!»

وجه الرجل ضربةً غاضبة إليه. فأطلق طومسون، الذي سحب مسدسًا من جيبه دون وعي، الرصاصَ عليه في قلبه، وشاهدَه يقفز ويسقط، كجثةٍ هامدة، متكومة أسفل درجات السلم، وبغريزة غريبة من التعطش للدماء، ركض بجوار منطاد زيبلن المحطم باحثًا عن المزيد من الضحايا. ووصل المزيد من الجنود الآن، رغم ذلك، واقتاد بعضُهم الأسرى بعيدًا. بينما تمركزت مجموعةٌ أخرى حول المنطاد الضخم؛ لحراسته. ومن ثَم عاد طومسون مرةً أخرى نحو مقر البحرية الملكية. كانت السماء لا تزال قاتمةً رغم انعكاس العديد من الحرائق، لكن هدير المدافع قد خفَت، ولم تُلقَ أي قنبلة لعدة دقائق. وبينما لا يزال الدخان يتصاعد من المسدس في يده، التقى برجل يعرفه معرفةً بسيطة في مقر البحرية الملكية.

فصاح الرجل: «طومسون، يا إلهي! ماذا تفعل بهذا المسدس؟»

أجاب: «لا أعرف. لقد أطلقت الرصاص للتو على أحد هؤلاء الرجال الذين سقطوا مع منطاد زيبلن. كيف تجري الأمور؟»

أجاب الآخر: «لقد أسقطنا ستة مناطيد زيبلن في مناطق مختلفة، وأربعًا وعشرين طائرة. وولويتش آمنة، ومجلسا البرلمان ووايتهول. ستتوالى أكوامٌ من التقارير القادمة، لكنني لا أعتقد أنهم تسببوا في الكثير من الضرر.»

واصل طومسون سيره. حيث أضيئت الشوارع الآن واكتظَّت بالناس. فاتجه مرةً أخرى نحو ستراند ووقف للحظة في ميدان ترافالجار. وقد تهدَّم أحد أجنحة المعرض الوطني، واشتعلت النيران في فندق جولدن كروس. كما سقطت طائرة أخرى على يونيون كلوب. وتدافعَ الرجال والنساء في كل مكانٍ في انفعال جامح. شق طريقه إلى مكتب الحرب. وبدا من الغريب العثورُ على رجالٍ لا يزالون يعملون في غرفهم. وأرسل أمبروز لإحضار جندي مراسلة وتلقى رسالةً من القيادة.

لم تُقيَّم الأضرار التي لحقت بالمباني والممتلكات العامة. جميع أحواض بناء السفن والترسانات آمنة، والمباني العامة الرئيسية سليمة. وأُبلغ عن ١٧ قتيلًا وأربعين جريحًا فقط حتى خمس دقائق مضت. بينما لحق ضررٌ كبير بقوات العدو؛ وانسحب الباقي

بالكامل، وقد تضرر العديد منها بشدة. وأُسقط منطاد زيبلن في إسيكس، وأربع طائرات في المنطقة الواقعة بين هنا ورومفورد.

وضع طومسون مسدسه.

وغَمْغم في نفسه: «حسنًا، ربما ستصدق لندن الآن أننا في حالة حرب!»

الفصل السادس والثلاثون

كتبتْ صحيفة صباحية كبرى في افتتاحيتها صباح اليوم التالي: «لندن، أيضًا، حصلت على نصيبها من الندوب، ولندن فخورة بها. لقد جاءت غارة «الرعب» الألمانية الأخيرة والضخمة ومرَّت. أغار على لندن قبل الفجر هذا الصباحَ أسطولٌ من ستة عشر منطادَ زيبلن وأربعين طائرة. وأُسقطت سبعة من تلك الوحوش السابقة وتحطمت في أجزاء مختلفة من المدينة، واثنان في إسيكس، وآخَر في نورفولك. وبالنسبة إلى الطائرات، فقد أُسقطَت تسع عشرة طائرة، ولم تردْ أنباء عن بقيتها حتى الآن. إن الضرر الذي يلحق بالأرواح والممتلكات، رغم أنه قد يبدو كبيرًا، إلا أنه أقل بكثير مما كان متوقعًا. وهذه الخسائر التي تكبَّدناها سوف نتحملها بكل فخر وثبات. نحن نقف الآن على اتصالٍ وثيق أكثر من أي وقتٍ مضى مع حلفائنا الشجعان. نحن، أيضًا، نحمل آثار المعركة في قلب بلدنا.»

توقف طومسون لإنهاء إفطاره، وترك الفقرة الافتتاحية وانتقل إلى أخرى أكثر تحديدًا.

حيث استطردت الصحيفةُ قائلة: «إن الخسائر في الأرواح، على الرغم من أنها مؤسفة، ليست كبيرةً، بقدر ما وصلت إلينا التقديرات. فقد قُتل ٣١ مدَنيًّا، وأُدخل مائة واثنان إلى المستشفيات، ومما يُثير الفضول، أن عسكريًّا واحدًا فقط قد فقدَ حياته. إننا نأسف بشدةٍ لإعلان وفاة الضابط الشاب المتميز الكابتن رونالد جرانيت، ابن شقيق السير ألفريد أنسيلمان. فقد أُلقيت قنبلة على سطح منزله في ساكفيل ستريت، فدمَّرت الشقة التي كان يقيم فيها. كما مات خادمه معه. أما بقية شاغلي المبنى الآخرين فكانوا، لحسن حظهم، غير موجودين به في هذه الليلة.»

انزلقت الصحيفة من أصابع طومسون. ونظر عبر نوافذ غرفته، نحو نهر التيمز. وفي مقابله تمامًا، كانت هناك مدخنة متهدمة وأربعة جدران سوداء، لا يزال الدخان يتصاعد

منها، لتذكيره بالمأساة الكبرى. فنظر إلى الصحيفة مرةً أخرى. لم يكن هناك أي خطأ. لقد كان حكم محكمة أعلى من محكمته!

ومن ثَم توجه إلى مكتب الحرب قبل الساعة العاشرة صباحًا بقليل. وقد ازدحمت الشوارع بالناس وتوافدتْ حشودٌ حول كل مكان من الأماكن التي أُلقيت فيها القنابل. بالقرب من قوس بال مول، وقف الناسُ بالآلاف، في محاولةٍ للاقتراب من حُطام منطاد زيبلن الضخم، الذي منع تمامًا كل حركة المرور عبر سانت جيمس بارك. وتوقف طومسون للحظة في الجزء العُلوي من ميدان ترافالجار ونظر حوله. لقد كان كلام الصحيفة صحيحًا بالفعل. إذ حصلت لندن على نصيبها من النُّدوب، ومع ذلك لم يكن هناك شيء في وجوه الناس يدل على الخوف. إذا كان هناك أي شيء، فقد كان هناك جوٌّ في كل مكان أكثر حيويةً وأكثر قوة. لقد أصبح الإحساس بخوض الحرب يقترب أخيرًا من أعمدة الصحافة اليومية. كان هذا هو الشيء الحقيقيُّ الذي تفاعل معه حتى اللندني البسيط. من كوكسبر ستريت إلى نصب نيلسون التذكاري، اصطفَّ الرجال في طابور طويل، وشقوا طريقهم إلى مكتب التجنيد.

أجرى الأدميرال كونيرز زيارته الصباحية المعتادة إلى مقرِّ البحرية الملكية، وتناول الغداء في ناديه وعاد إلى المنزل ذلك المساءَ في حالةٍ من الانفعال المكبوت. ووجد زوجته وجيرالدين بمفردهما، فاتخذ في الحال موضعَه المفضل على بِساط المدفأة.

وقال: «من بين المفاجآت الأخرى في الأربع والعشرين ساعةً الماضية، تلقَّيتُ واحدةً اليوم كادت أن تحبس أنفاسي. لها علاقة بشخص تعرفانه كلاكما.»

سألته الليدي كونيرز: «هل تقصد المسكين كابتن جرانيت؟ لقد قرأتَ عنه في الصحف، أليس كذلك؟»

تابع الأدميرال قائلًا: «ليس للأمر علاقة بجرانيت، ذلك المسكين. اسمَعا، كنتُ أسيرُ، إذا سمحتما، لبضع ياردات مع الرجل المسئول عمَليًّا اليوم عن إدارة الحرب. وعند زاوية بال مول، قابلنا طومسون وجهًا لوجه. فأومأت برأسي وكنا سنمرُّ ونُكمل طريقنا، لكن ما أدهشني هو أن رفيقي توقف ومد كلتا يدَيه. وهو يقول: «طومسون، صديقي العزيز، لقد جئت إلى مكتبك اليوم، لكنهم أخبروني بأنك كنت منشغلًا للغاية. لا أجد أي كلمة أخرى للتعبير عن امتناني سوى هذه ... شكرًا! عندما نكتب تاريخنا، فسيعرف البلد ما هي مدينة لك به. أما في الوقت الحاضر، فشكرًا!»»

شهقت الليدي كونيرز وهي تقول: «الميجور طومسون؟»

وردَّدت جيرالدين: «هيو؟»

ابتسم الأدميرال.

وتابع: «ثم استأنفنا سيرنا، وقلت لسيادته: «ألم يكن ذلك طومسون، مفتش المستشفيات الميدانية؟» فسخر مني بكلِّ بساطة. وقال: «عزيزي كونيرز، أنت بالتأكيد كنت تعلم أن هذا كان مجردَ ستار، أليس كذلك؟ إن طومسون هو مدير إدارة المخابرات العسكرية بأكملها. لديه رتبة عميد في انتظاره عندما يودُّ في أي وقت أن يحصل عليها. لكنه يُفضل أن يظل مجهولًا ومتخفيًا قدر الإمكان؛ لأن ذلك يُساعده في إنجاز عمله.» الآن اسمعا! لقد قرأتما في جميع الصحف بالطبع، أنَّ قواتنا تلقَّت تحذيرًا بما كان سيحدث في الليلة الماضية، وأن سبب نجاحنا كان لأن كلَّ ضوء في لندن قد أطفئ وكل منصة مدافع زُوِّدت بطاقم مزدوج؟ حسنًا، إن التحذير الذي تلقيناه كان بفضل طومسون، ولا أحد غيره!»

صاحت الليدي كونيرز: «يا للعجب، لقد كنا شبه خائفتَيْن من إخبار والدك أن هيو سيأتي لتناوُل العشاء معنا!»

كانت جيرالدين قد تسللَت من الغرفة. فأصدر الأدميرال صوتًا من أنفه.

وقال: «آمُل أن تُرجح جيرالدين كفة العقل. لقد كنت أعتقد دائمًا أن طومسون رجل جيد، لكن جيرالدين بدَت وكأنها منجذبة تجاهَ ذلك الشاب جرانيت. مسكين! لا يمكن للمرء أن يقول أيَّ شيء عنه الآن، سوى أنه كان فقط النمط العادي للجندي الشابِّ المتفاخر، غير المناسب ليحمل شمعةً لرجل مثل طومسون.»

اندهشت الليدي كونيرز بعضَ الشيء.

وغمغمت: «إن لديك تقديرًا موفَّقًا للغاية، يا سيمور.»

تأخر طومسون على العشاء بضعَ دقائق، لكن حتى الأدميرال عذَرَه في ذلك.

وقال بينما يتَّجهون إلى غرفة الطعام: «بما أنه لا يوجد معنا أحد غريب، يا طومسون. يا لها من صدمة تلك التي أصابني بها مديرُ مكتب الحرب اليوم! لقد نجحتَ في التخفِّي للغاية. مفتش المستشفيات، حقًّا!»

ابتسم طومسون.

وقال موضحًا: «كان هذا عُذري المنطقي، الذي يُسهل لي التنقل بين فرنسا وإنجلترا في بداية الحرب. ليس هناك سرٌّ معيَّن حول منصبي الآن. لقد خُضت معركةً صعبة للغاية للحفاظ عليه، معركة صعبة للغاية لجعلِه مفيدًا. حتى الليلة الماضية، على أي حال، لم

يبدُ لي أن الإنجليز كانوا يدركون أننا في حالة حرب. والآن، آمُل أخيرًا أن نخلع القفازات.» وتابع قائلًا، بعد ذلك بقليل: «هل تعلم أنهم في فرنسا يعتقدون أننا مجانين. بصراحة، في منصبي، لو كان لديَّ القوانين الفرنسية لتدعمني، أعتقد أن الحرب كانت ستنتهي اليوم. لكن نظرًا إلى أن الحال لدينا مختلف، عندما بدأت حتى منصبي كان مَدْعاةً للسخرية. كان علينا أن نخضع طوال الوقت، للسلطات المدَنية. لقد أرادوا تغريم الجاسوس عشرة شلنات أو محاكمته قانونيًّا للحفاظ على السلام! لم أضطرَّ قطُّ إلى الكفاح من أجل أي شيءٍ صعبٍ في حياتي مثلما اضطُرِرت إلى الكفاح مرةً أو مرتَيْن من أجل ملف الرجال في سجن تاور. في بداية الحرب كنا نقبض عليهم متلبسين تمامًا. وكل ما كان عليهم فعله هو الاستسلام للسلطات المدنية، ثم يعرضون على قاضٍ ابتدائيٍّ يبحث في القوانين ليرى كيفية التعامل معهم.»

قال الأدميرال بجدِّية: «هناك أشياء كثيرة للغاية ستصبح مادة للقراءة غير المعتادة بعد انتهاء الحرب. وأتخيل أن إدارتي السابقة ستُوفر بعض الأخبار المثيرة. ومع ذلك، فإن أخطاءنا ذاتها هي مبرِّرنا. لقد كنا مستعدين للحرب مثلما الليدي كونيرز هناك مستعدة للعبِ كرة الرجبي لفريق أكسفورد.»

وافق طومسون على ذلك بقوله: «لقد استغرقنا جزءًا كبيرًا من العام حتى نُدرك ما تعنيه الحرب. حتى الآن هناك أشخاص يلتقي بهم المرء كلَّ يوم ويبدو أنهم يعيشون منفصلين عن الواقع.»

قال الأدميرال وهو يُصدر صوتًا من أنفه: «لا بد أن غارة الليلة الماضية ستُفيق القليل منهم. كنت أودُّ أن أُريَ هؤلاء الشياطين أين عليهم أن يُلقوا بعضًا من ألعابهم الصغيرة. هناك رجل أو رجلان كانا يضعان القوانين منذ وقت ليس ببعيد، وكان يجب قصفُ منازلهم.»

ضحكت جيرالدين برقة.

وقالت: «أعتقد حقًّا أن أبي يشعر بالتعطش للدماء عندما يتحدث عن بعض سياسيِّينا، أكثرَ مما يشعر به تجاه الألمان.»

قال السير سيمور في إصرار: «إن بعض أسوأ أعدائنا موجودون داخل الوطن، بأي حالٍ من الأحوال، ولن نواصل الحرب أبدًا حتى نتخلص منهم.»

استفسر طومسون: «أين أُسقطت أقربُ قنبلة من هنا؟»

أجاب السير سيمور: «زاوية سانت جيمس ستريت. كان هناك منزلان في بيركلي ستريت مشتعلان، وثقبٌ في سقف منزل في هاي هيل. ولم تنفجر القنبلة هناك، رغم ذلك. أمر محزن ما حدث للشابِّ جرانيت، أليس كذلك؟ يبدو أنه الرجل العسكريُّ الوحيد الذي عانى على الإطلاق.»

ارتجفت الليدي كونيرز من فرط التعاطف.

وغمغمت: «لقد كان أمرًا مروعًا للغاية.»

تابع الأدميرال قائلًا: «لقد كان ضابطًا شابًّا واعدًا للغاية، على ما أعتقد، وموته مؤسفٌ للغاية. ويحزنك عندما تتذكر أنه كان هنا بالأمس فقط، المسكين!»

نهضت جيرالدين ووالدتُها من مكانيهما، بعد بضع دقائق. ونظرت جيرالدين إلى طومسون وهو يفتح الباب.

وقالت راجية: «أنت لن تتأخَّر، أليس كذلك؟»

قال الأدميرال، وهو ينهض أيضًا: «يمكنكِ أن تأخذيه معك، إذا أردت، فهو لا يتناول المشروب، والسجائر في غرفتك. يجب أن أتولَّى الرئاسة في اجتماع تجنيدٍ في هولبورن في غضون ربع ساعة. إن السيارة تنتظر الآن. سوف تعذرني لأني مضطرٌّ إلى الانصراف، أليس كذلك، يا طومسون؟»

قال الأخير: «بالطبع. أنا نفسي يجبُ أن أغادر مبكرًا. يجب أن أعود إلى مكتب الحرب.»

أخذت جيرالدين ذراعه وقادته إلى غرفة الجلوس الصغيرة.

وبدأت الحديث، وهي تُجلسه في مقعدٍ بجانبها وتقول: «أترى، أنا أسرقك بأسلوب مكشوف للغاية، لكنك حقًّا شخص مراوغ، وفقط هذا الصباح، في خضمِّ ذلك الدويِّ الفظيع للقنابل، عندما وقفنا على السطح ونظرنا إلى لندن والنيرانُ تشتعل فيها، لم أستطع التوقف عن التفكير ... أو على الأحرى التذكر ... كم كانت المدة قصيرةً منذ أن كنت أنا وأنت وجهًا لوجه مع ذلك الرعب الآخر وأنت أنقذتَ حياتي. هل تعلم، لا أعتقد أنني قد قلت لك أبدًا «شكرًا لك» ... ليس على النحو اللائق، على أي حال.»

أجاب وهو يبتسم: «أعتقد أن الكلمات قد تذهب. لقد كانت مدةً مروعة بينما هي مستمرة، لكنها سرعان ما انتهت. كان أسوأ جزءٍ منها هو رؤية هؤلاء الآخرين، الذين لم نتمكن من مساعدتهم، ينجرفون مع التيار.»

قالت بهدوء: «لولاك لانجرفتُ معهم. لا تظن أنني لا أعرف ذلك. لا تظن أنني لا أشعر بالندم في بعض الأحيان، يا هيو، لأنني لم أكن أثق بك أكثرَ من ذلك. أنت محقٌّ بشأن أشياءَ كثيرة. لكن، يا هيو، هل ستُخبرني بشيء ما؟»

«بالتأكيد!»

«لماذا تعمدتَ الصمت تقريبًا عندما تحدث والدي عن موت الكابتن جرانيت المسكين؟»

أجاب طومسون: «لأنني لا أستطيع أن أتفق مع ما قاله. أعتقد أن موت جرانيت بهذه الطريقة بالضبط كان أفضلَ شيء يمكن أن يحدث له ولنا جميعًا.»

ارتجفت وهي تنظر إليه.

وغمغمت قائلة: «ألستَ قاسيًا قليلًا؟»

أكد لها بحزم: «أنا لستُ قاسيًا على الإطلاق. اسمحي لي أن أقتبس كلمات رجل عظيم: «ليس لديَّ أعداءٌ سوى أعداء بلدي، وليس لدي أيُّ رحمة لهم».»

«ما زلت تعتقد أن الكابتن جرانيت ...»

«لم يعد هناك أيُّ شك في ذنبه الكامل. كما تعلمين أنت نفسك، فإن الرسالة المشفَّرة التي تُحذر أفرادًا محددين في لندن من الغارة القادمة، مرَّت بين يديه. حتى إنه جاء إلى هنا لتحذيرك. وكانت هناك تهمٌ أخرى ضدَّه كان من الممكن إثباتها حتى النهاية. وبينما نحن بصدد هذا الموضوع، يا جيرالدين، اسمحي لي أن أنهي الأمر تمامًا. إذ قبل وقت قصير فقط واجهته بجريمته، ومنحتُه عشرة أيام كنت آمُل خلالها أن يتبنى المسار المشرف الوحيد المتبقيَ له. لقد جازفتُ بتركه حرًّا، لكن خلال الجزء الأخير من الوقت كان يُراقَب ليلًا ونهارًا. وإذا كان قد عاش حتى هذا الصباح، فلم تكن هناك قوة على الأرض يمكن أن تمنع دخوله سجن تاور، أو أي قاضٍ، مهما كان رحيمًا، كان من الممكن أن يُنقذه من الإعدام رميًا بالرصاص.»

قالت في تلعثم: «إنه أمر مروع للغاية، ومع ذلك ... أشعر بالخجل الشديد، يا هيو، لأنني لم أكن أثقُ بك بشكل مطلق.»

فتح محفظته فاحمرَّ خداها فجأة. وأخرج الخاتم في صمت.

وسألها: «هل ستثقينَ بنفسكِ الآن وأخيرًا، يا جيرالدين؟»

ومن ثم مدت إصبعها.

وهمست: «سأصبح فخورةً جدًّا وسعيدة جدًّا لاستعادته مرةً أخرى. أشعر حقًّا كما لو أنني تصرفتُ كطفلة حمقاء، ولا أحب هذا الشعور على الإطلاق؛ لأنه في هذه الأيام يجب أن يكون المرء أكثرَ جديةً في العادة، أليس كذلك؟ هل سأصبح قادرة على تعويضك، يا هيو، هل تعتقد ذلك؟»

انحنى ليلتقي بشفتَيها.

وتجرأ قائلًا: «هناك تعويضٌ يمكنكِ تقديمه، يا عزيزتي. هل تتذكرين اقتراحي خلال إحدى مآدب الغداء التاريخية لليدي أنسيلمان؟»

ضحكت وهي تنظر في عينيه للحظة ثم نظرَت بعيدًا.

وقالت: «كنتُ أتساءل عما إذا كنتَ قد نسيتَ ذلك.»

هنـــداوي